

حَدِيثُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي هَاشِمٍ

أَيُّ

فِتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ

لَمْ تُشْأَمْ

مُحَمَّدُ الْمُبَوَّحِيُّ

كَاتِبُ الشَّيْخِ عَبْدِ الصَّادِقِ وَالسَّلَامِ
بِمَرْجٍ وَلَا يَقُولُ رِوَاغًا

(الطبعة الثالثة على نفقة)



« حقوق الطبع محفوظة »

الكتبي بصر

(طبع بمطبعة السعادة سنة ۱۳۴۱ هـ و ۱۹۲۳ ميلادي)



حَدِيثُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي هَاشِمٍ

في
فتره من الزمن

لمنشئه

محمد الميخني

كانه النبي عليه الصلوة والسلام
يخرج ولا يقبل روي

(الطبعة الثالثة على نفقة)



« حقوق الطبع محفوظة »

الكتبي بمصر



(طبع بمطبعة السعادة سنة ١٣٤١ هـ و ١٩٢٣ م)

أهداء الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

ألف المؤلفون والكتاب أن يبدأ بكتابة عند نشرها
بإهداءها إلى بعض ذوى الشأن والفضل . والضميمف العاجز يهدي
هذا الكتاب إلى كل من يقرؤه من أن يجد فيه طرفاً من
الأدب وحكيم يرى فيه لمحة من الحكمة وعالم يبصر فيه
شذرة من العلم ولغوى يصادف فيه أثر من الفصاحة وشاعر
يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال

وأهديه إلى أرواح المرحومين الأديب الوالد والحكيم جمال
الدين والسالم محمد عبده واللغوى النقيبى والشاعر البارودى
اولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدبت بأدبهم وأخذت عنهم

وأهدى هذه الرسالة التى اختصنى بها المرحوم الأستاذ جمال
الدين الأفتانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل
الفضل والأدب لما تضمنته من الحث على طلب العلم وأدب
النفس ولحسن أسلوبها فى كتب المودات . وهى لا تزال عندي
إماماً يهدينى ونوراً أستضيء به فأردت أن أشاركهم فى هذه

الذخيرة التي يحق الضنّ بها والحرص عليها ونقلها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لا أثر تلك اليد الكريمة. وإذا قدّرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين في اقتناء الرسائل التي تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطّهم ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم ويبيذلون في سبيل ذلك من الأموال والمساعى ما لا يقدر فإني أكون قد أهديت إلى أهل الفضل هدية يمتدّون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله تعالى



جمیر حفتر

نفسک فشان الحال ایشم مصدور الحوض من حدره
و خوشتر که فزون کلا آب بر رخ فلور علفت یک اما نا
دیس بعد از کلامی الله العلی و الله یومنه انفسک
و لغت منک لطیف الکریمه فسرکه اخر و بند فنی من
فاشد از نا و ابرام با اوتیت من کلمه و اذق و سر
حتی کن کلک الی می کلمه و کن لایق غزتم انفسک
ایران و دانتم الطون الی سوره رقاها و حیدر انهم یکنون
صفا و یصلون امر و کن عالی در نفک و انفسک
الانفسک عندک لایق لایق و لایق لایق و لایق لایق
و انفسک فزینک می و ایا من فزینک و منفسک

حبيبي الفاضل

تقلبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من
جسراتها وخواصك في فنون الآداب يريح قلوباً علقت بك آمالها
وليس بعد الإرهاص^(١) إلا الإعجاز ولك يومئذ التحدي ولقد
تمثلت اللطيفة الموسوية في مصر كرة أخرى وهذا توفيق من الله
تعالى فاشدد أزرها وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحدق
أمرها حتى تكون كلمة الحق هي العليا ولا تكن كالذين
غرّتهم أنفسهم بباطل أهوائها وساقتهم الظنون إلى مهواة شقاها
وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ويصلحون أمراً وكن عوناً للحق
ولو على نفسك ولا تتف في سيرك إلى الفضائل عند عجبك لا
نهاية للفضيلة ولا لالكمال ولا موقف للعرفان وأنت بغريزتك
السامية أوتى بها من غيرك والسلام جمال الدين الحسيني
الأفغاني

(١) الارهاص الحارق الذي يظهر من الني قبل البعثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي
الأمي القرشي الأبطحي التهامي المكي المدني وآله الطيبين
الطاهرين . وبعد فهذا الحديث — حديث عيسى بن هشام —
وإن كان في نفسه موضوعا على نسق التخيل والتصوير فهو حقيقة
متبرجة في ثوب خيال لأنه خيال مسبوك في قالب حقيقة حاولنا
أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه
الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعين اجتنابها والفضائل
التي يجب التزامها . وهذه الطبعة الثالثة بعد نقاد الطبعة الثانية
تمهيدناها أيضا بما تقتضيه معاودة النظر من اصلاح مواضع النقص
والإهمال . ومداركة مالا يخلو منه كل عمل من شائبة السهو
والإغفال . وقد رأينا أن نقسم الكتاب في هذه المرة فصولا
ونجعل لكل فصل عنوانا خاصا به يفهرس له اسم تفسير الألفاظ اللغوية
في الصحيفة نفسها لا في آخر الكتاب كما كانت عليه الحال في الطبعة
الثانية . ومن الله التوفيق لكل حال والتيسيد في كل مقال وفعل .

﴿ العبرة ﴾

حدثنا عيسى بن هشام - قال رأيت في المنام . كأنني في صحراء
 «الإمام» . أمشي بين القبور والرجام^(١) . في ليلة زهراء قراء .
 يستريحونها بنجرم الخضراء^(٢) . فيكاد في سنا نورها ينظم الدرر
 ثاقبه . ويرقبه . رراقبه . وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور
 وفوق هاتيك^(٣) ضرر . بغرور الإنسان وكبره . وشموخه بمجده
 وغره . وإغرائه بحواه واسرافه في هواه . واستعظامه لنفسه .
 ونسيانه لرأسه . وقد شمع المغرور بأنفه حتى رام أن يثقب به الفلك .
 استكباراً لما جمع واستتلاء بما ملك . فأرغمه الموت فسد بذلك
 الأنف شقاً في لحده . بعد أن وارى تحت صفائح^(٤) صحائف
 عزه ومجده . وما زلت أسير وأفكر . وأجول وأتدبر . حتى تذكرت
 في خطاي فوق رمال الصحراء . قول الشاعر الحكيم أبي العلاء :
 خفف الوطاء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الاجساد
 وقبيح بنا وإن قدم العمد هوان الآباء والأجداد
 سر إن أسطعت في الهوامر ويدا لا أختيالاً على رفات العباد
 فقرعت سن الندم . وخفقت وطاء القدم . وإن في دهم أولئك

(١) الرجام جمع رجم وهو القبر (٢) الخضراء السماء (٣) العماص حجارة القبور

الأموات. وغمار تلك الرمم والزفات . لمباسم طالماحول العاشق
قبلته لقبلتها . وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجت بنبار
الغبراء . واختلطت ثناياها بالخصى والخصباء^(١)

وتذكرت أن تلك الحدود التي كان يقرأ منها الورد فيبكي
بدموع الندى . وليشتعل الفؤاد منها بنار الجوى . ويقف الخال
منها موقف الخليل من النيران . أو ابن ماء السماء في شقائق
النعمان^(٢) . ويتفرق فيها ماء الحياء وماء الشباب . قد طوى الدهر
حسنها طي الكتاب . وصار بحكم القضاء . أديماً لوجه الفضاء

وأن تلك العيون التي صادت بأهدابها الملوك الصيد^(٣) . فكانوا
رعاة الأمم رعايا الغيد . وسحرت يبابل هاروت وماروت .
وأوقفت موقف الاستكانة ربّ الجلال والجلوت : يلتبس —
والتاج في يمينه . وعرق الحياء فوق جبينه — من خلال لحظاتها
قبولا . كسائل يمدّ لالئاس الإحسان كشكولا . قد أمتت نراباً
تحت الرمس^(٤) . كأن لم تقين بالأمس

وأن ذلك الفاحم الأنيث من الشعر^(٥) . الخاطف يبريقه

(١) الخصباء صفار الحجارة وأحدها خصبة (٢) ابن ماء السماء هو ابن النذر وكان أسود وشقائق
النعمان زمر احبر (٣) الصيد جمع أصيد وهو الملك المتكبر الزاهي (٤) الرمس القبر (٥) شعر
أنيث تكبير عظيم

سواد القلب والبصر . قد حصده من منابته يد الزمن . ففسح
الأجل منه ثوب الكفن

وَأَنَّ تِلْكَ النُّهُودَ الَّتِي كَانَهَا حَقَاقٌ مِنْ لُجَيْنٍ^(١) تَزِينَتْ بِحَبِّ مِنَ
الْمَرْجَانِ . أَوْ كُرَاتٍ مِنْ جَلِيدٍ بَثَّقَ فِيهَا زَهْرٌ مِنَ الرِّمَانِ . قَدْ
أَصْبَحَتْ كَالْخَلَاةِ عَلَى الصَّدْرِ . تَحْمِلُ الزَّادَ لِلدُّودِ الْقَبْرِ

كَمْ صَائِنٍ عَنْ قُبَلَةِ خِدَّةٍ سُلْطَتِ الْأَرْضُ عَلَى خِدَّةٍ
وَحَامِلٍ ثِقْلَ الثَّرَى جِيدُهُ وَكَانَ يَشْكُو الضَّعْفَ مِنْ عَقْدِهِ
وَأَنَّ تِلْكَ الرِّثَفَاتِ وَالْعِظَامِ . مِنْ بَقَايَا الْمُلُوكِ الْعِظَامِ . الَّذِينَ
كَانُوا يَسْتَصْفِرُونَ الْأَرْضَ دَارًا . وَيَحَاوِلُونَ عِنْدَ النُّجُومِ جَوَارًا . —
وَتِلْكَ الضَّلُوعُ الَّتِي انْجَنَتْ عَلَى الْبَطْشِ وَالْحِلْمِ . وَالشِّفَاهُ الَّتِي طَالَمَا
لَفِظَتْ أُمْرَ الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ . — وَتِلْكَ الْأَنْأَمِلُ الَّتِي كَانَتْ تَبْرِي
الْقَلَمَ لِلْكِتَابِ . وَتَبْرِي بِالسَّيْفِ الرِّقَابِ . — وَتِلْكَ الْوُجُوهُ
وَالرُّؤُوسُ . الَّتِي اسْتَعْبَدَتْ الْأَبْدَانُ وَالنَّفُوسُ . وَوُصِفَتْ تَارَةً
بِالْبُودُورِ وَتَارَةً بِالشَّمُوسِ . — قَدْ كَسَاوَى الرَّئِيسُ فِيهَا بِالرُّؤُوسِ .
فَلَا تَفْرِيقَ الْيَوْمَ وَلَا تَمْيِيزَ . بَيْنَ الذَّلِيلِ مِنْهَا وَالْعَزِيزِ :

هو الموتُ مُثَرٌ عنده مثلُ مُقْتَرٍ
وقاصدُ نهجٍ مثلُ آخرِ ناكِبٍ
ودرعُ الفقى فى حكمه درعُ غادقٍ
وأَيّاتُ كسرى من بيوت العناكبِ
فرُجِّلَ فى غبراءِ والخطبُ فارسُ
وما زال فى الأهلين أشرفُ راكِبٍ

وما للنمشُ إلا كالسفينَةِ رَامِيَا يَفْرَقَاهُ فى بحرِ الردى التراكِبِ
وبينا أنا فى هذه المواعظِ والعبرِ . وتلك الخواطرِ والفكرِ .
أَتَأْمَلُ فى عجائبِ الحدَثَانِ . وأُنَجِّبُ من قلبِ الأَزمَانِ . مُسْتَفْرَقَا
فى بدائعِ المقدورِ . مُسْتَهْدِيَا للبحثِ فى أسرارِ البعثِ والنشورِ . إذا
برجعةً عنيفةً من خلفي . كادت تَقْضِي بِحَتْفِي . فالتفتُ التفتاتَةَ الخائفِ
المذخورِ . فرأيتُ قبراً انشقَّ من بين تلك القبورِ . وقد خرج منه
رجلٌ طويلُ القامةِ عَظِيمُ الهامةِ . عليه بهاءُ المهابةِ والجلالةِ .
ورُوءاءُ^(١) الشرفِ والنبالةِ . فصعقتُ من هولِ الوَهْلِ^(٢) والوجلِ .
صعقةً موسى يومَ ذلكَ الجبلِ . ولما أَلْقَتُ من غشيتي . وانتهت من
دهشتي . أخذتُ أسرعُ فى مشيتي فسمعتُه يناديني . وأبصرته يداينيني

فوقفت امتثالاً لأمره . واتفقاء لشره . ثم دار الحديث بيننا وجري .
على شئ ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :
(ابن) — ما اسمك أيها الرجل وما عملك وما الذي جاء بك .
فأنت في نفسى حقاً ان الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين
ثم يسأل على أسلوبهما فاللهم أنقذنى من الضيق وأوسع لى في
الداريق . لا خلص من منافشة الحساب . وأكتفى شر هذا
الذباب . ثم التفت إليه فأجبتة :

(عيسى بن هشام) — اسمى عيسى بن هشام . وعمل صناعة الاقلام .
يجب . نالاً اعتبر بزيارة المقابر . ففى عندى أو عظم من خطب المنابر
(الدفين) — وأين ذواتك يا معلم عسى ودقرك
(عيسى بن هشام) — أنا لست من كتاب الحساب والديوان .
ولكنى من كتاب الانشاء والبيان
(الدفين) - لا بأس بك فاذهب أيها الكاتب المنشئ . فاطلب
لى ثيابى وليأتونى بهرسى « دحمان »

(عيسى بن هشام) — وأين ياسيدى بيتكم فانى لا أعرفه
(الدفين) مشهوراً — قل لى بالله من أى الاقطار أنت فانه
يظهر لى أنك لست من أهل مصر إذ ليس فى القطر كله من أحلب

بجمل بيت أحمد باشا المنيكلى ناظر الجهادية المصرية
(عيسى بن هشام) — اعلم أيها الباشا أنى رجل من صميم أهل
مصر ولم أجعل بيتك إلا لأن الليوت فى مصر أصبحت لاتعرف
بأسماء أصحابها بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها فإذا تفضلت
وأوضحت لى شارع يتنعم وزقافه ورقه انطلقت اليه وأتيتك
بما تطلبه

(الباشا) مغضباً — ما أراك أيها الكاتب إلا أن بمقلك دَخَلَ
فتى كان لليوت أرقام تعرف بها وهل هي « إفاذات أحكام » او
« عساكر نظام » والا ولى ان تناولنى رداءك استتر به وتنه اخبنى
حتى اصل الى يتي

(قال عيسى بن هشام) — فنزلت له عن ردائى — وقد كان
المعهود ان سلب المارة لا يكون الا من قطاع الطريق فاذا هو
ايضا من سكان القبور — ثم ارتداه مستكفأ متردداً وهو يقول :
(الباشا) — للضرورة احكام وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء
فى مصاحبتنا لأفندينا المرحوم ابراهيم باشا على طريقة التنكرو
و « التبديل » فى الليالى التى كان يقضيها فى البلد ليستطاع بنفسه
احوال الرعية . ولكن كيف العمل وكيف يتنى الدخول

(عيسى بن هشام) - ماذا تريد
(الباشا) - أنسيتَ أننا في الثالث الاخير من الليل وليس
من يعرف بهذا الرءاء على ابواب مصر ولم يكن معي كلمة « سر »
الليل « فكيف تفتح لنا الابواب .

(عيسى بن هشام) - كما أنك يا سيدي لم تعرف أرقام البيوت
ولم تسمع بها في حياتك فأنا لا أعرف « سرّ الليل » ولم أسمع به
(الباشا) مستهزئاً ضاحكاً - ألم أقل لك إنك غريب الديار
ألم تعلم أن « سرّ الليل » كلمة تصدر من القلعة في كل ليلة إلى
« الضابطة » وإلى جميع « القرى قولات » والابواب فلا يجيزون
لأحد مشى الليل الا اذا كان حافظاً لهذه الكلمة يلقبها في اذن
البواب فيفتح له وهي تُعطى لمن يطلبها من الحكومة سراً
لقضاء أشغاله بالليل وتغيير في كل ليلة . فليلة تكون كلمة
« عدس » وليلة تكون « خضار » وليلة تكون « حمام » وليلة
تكون « فراخ » وهلم جرّاً

(عيسى بن هشام) - يظهر لي من كلامك هذا أنك لست
أنت من أبناء مصر فما علمنا ان هذه الالفاظ تطلق فيها على غير
الاطعمة ولم نسمع انها تدل على الاجازة للناس بالسير في ليالهم .

على ان الفجر قد دنا ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا غيرها
(الباشا) - الامر في ذلك موكل اليك

قال عيسى بن هشام - فسرنا في طريقنا واخذ الباشا يري في
تعريفه بنفسه ويقص على من أنباء الحروب واخبار البغاة التي
شاهدناها بعينه وسمعها بأذنه ويذكر لي ما شاء من ما أثر محمد بن
ابراهيم ومازلنا على تلك الحال حتى وصلنا في ضوء النهار الى ساحة
القلعة فوقف وقفة المستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لريح محمد
على ويخاطب القلعة بقوله في بلاغة تركيته :

«إلهك يا منصدر النعم ومصرع الجبارة من عتاة المماليك ويا مبتدئ
الملك ورجض المملكة ومنبع الدن ومنهبط القوة و... تنفع الجند
و... المستغيث ورحمى المحتمي وكنز الرغائب وممتنع المطالب
ومثوى البطل الشهم ومقبر الملك الهمام . أيها الحصن فككت
بالكرم عانيا . وقيدت بالاحسان عافيا . وكأرغمت أنوفا . وسللت سيوفا
وجمعت بين البأس والندى . وداورت بين الحياة والردى »

قال عيسى بن هشام - ثم التفت الباشا الى وقال : أسرع بنا نحو
البيت لا تبس ثيابي وأقلد خسانى وأرغب جوادى ثم اعود الى
القلعة فأنتم أذبال ولى النعم الداورى الأعظم

﴿ الشرطه او البوليس ﴾

ولما غادرنا ساحة القلعة أخذنا في الطريق وبينما نحن نسير اذ تعرض لنا مكار يسوق حماره وقد راضه الخبيث على التعرض وسد الطريق على المارة فكلماسرنا وجدنا الحمار في وجهتنا والمكارى ينبج بصوت قد بُح حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له :
(المكارى للباشا) — اركب يا أفندي فقد عطلتني وأنا أسير

وراءك من الصباح

(الباشا للمكارى) — كيف تدعوني أيها الشقي الى ركوب الحمار وما رغبت فيه قط وما دعوتك في طريقي وكيف لمثل ان يركب الحمار الناهق . مكان الجواد السابق

(المكارى) — وكيف تُنكر اشارة يدك التي دعوتني بها وأنت تتكلم مع صاحبك في طريق « الامام » وقد دُعيت مراراً من السائرين فلم أقبل منهم ولم ألتفت اليهم لارتباطي معك بتلك الاشارة فاركب معي او أعطني اجرتي

(الباشا) وهو يدفع المكارى بيده — اذهب عنا أيها السفينه فلو كان سلاحي معي اقتلتك

(المكارى) متسافهاً في القول — كيف تجسر على هذا الانكلا

فأما أن تعطيني اجرتي وإما أن تذهب معي الى « القسم » وسأرى هناك ما يماقبونك به على تهديدك إياي بالقتل

(الباشا لعيسى بن هشام) — انى لا أعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيفه الذى استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته فهل فاضربه بالنيابة عني حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه

(عيسى بن هشام) — كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام (الباشا) — مالى أراك قد شقّ الخوف قلبك وقطع الهلم أنفاسك أيعتريك الخوف وانت معي . ان هذا لمعجب منك

(المكاري) — مستهيناً — العفو ! العفو ! من أنت ومن غيرك ونحن فى زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير ولا تفاوت بين المكاري وبين الامير

(الباشا لعيسى بن هشام) — ويحك هلم فاضربه أو دهنى أقتله (عيسى بن هشام) — أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً مادمت معي . واعلم أنه لا تصدر منا « مخالفة » أو « جنة » أو « جناية » الا والعقاب من ورائها فلا تعجب من طول صبرى واحتمالى وأقول لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام « إنك لن تستطيع معي صبرا » وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً والطريقة

للتخلص من سفاهة هذا السفیه أن أعطيه شيناً من الدراهم فيتحول
عنا الى سوانا وأنا أسأل الله ان يلاغنا يثثك بالسلامة

(الباشا) — لا تعط هذا الكلب النائح درهماً واحداً وقد أمرتک
أن تضربه فان لم تفعل فانا أنزل الى ضربه وتأديبه والفلاح لا يصلح
بجلده الا بجلده

قال عيسى بن هشام — ثم أمسك الباشا بمنق المكارى وأوسعه
ضرباً واخذ المكارى يستغيث وينادى يا « بوليس » يا « بوليس »
وانا اجتهد في إنقاذه من مخالفه وأستعید بالله من شر هذا اليوم واقول
للباشا : ليس هذا بما يحمد عقباه فاتق الله ايها الأمير في عباد الله .
فما أتممت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب وتقلب عليه
الحدة فتغير وجهه واتقلب حمايته وتقلصت شفته واتسع منخره
وصاقت جبينه تخفت ان يحمله جنون الغضب على البطش بي مع
المكارى فتداركت امرى وقلت له : مثلك ادام الله عزك لا يتنزل
لمثل هذا الفذل فانت أرفع قدراً من أن تمس بيدك الشريفة . مثل
هذه الجيفة . فسكنت بذلك من حدة وحمدت الى المكارى فوضعت
في يده دربهات على فير علم من الباشا وطلبت منه ان ينصرف
عنا فما ازداد اللثم بذلك الا استغاث بالشرعة واستنجد بالبوليس

(الباشا لعيسى بن هشام) - ألم أقل لك ان الفلاح لا يصلحه الا
للضرب ألم تعلم ان غاية ما ينتهي اليه امره في رفع الالم عنه ان
يلوح صياحه استغاثةً بالمشايخ والاولياء . ولكن قل لي بالله هل
« بوليس » هذا الذى يناديه ويستغيث به ولى جديد

(عيسى بن هشام) - نعم ان هذا البوليس هو ولى الامر اخذت
فيه القوة الحاكمة

(الباشا) - استأفقه هذا المعنى فأوضح لي حقيقة هذا البوليس
(عيسى بن هشام) - هو « القواس » الذى تعرفه
(الباشا) - وأين هذا « القواس » الذى لا يسمع النداء فأتى
ادغب في حضوره ليتلقى امرى في هذا الشقى
(المكارى) - يا بوليس ! يا بوليس !

(الباشا لعيسى بن هشام) - هلم الى مساعدته في نداء القواس
قال عيسى بن هشام - فقلت في نفسي كيف انادى البوليس
وانا احمد الله على سكوته وسكونه وهو بمقربة متالا يكثر بندا
للمستغيث . ثم التفت الى الباشا وقلت له : ان البوليس هو هذا الذى
تراه أمامنا وليس يفيد فيه الا ن صياح أو نداء فانه مشتغل بياثمه
للفاكهة كما ترى . ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع اليه

وتبعه من تجمع حولنا من النظارة فوجدوه واقفاً وفي يده منديل
أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه في صباحه من باعة الاسواق
في محافظته على « النظام » وهو لا لبصاحب الدكان يأمره ان
يضع في داخلها ما عرضته في خارجها من عيدان القصب وفي يده عود
منها يهدده به ويهزه في وجهه هزة الرمح ثم هو يضاحك من
جهة أخرى طفلاً على كتف امرأة ويناغيه حتى اذا أقبلنا نحوه أقبل
هلينا والمنديل في يده وعود القصب في الاخرى

(البوليس للجميع) - ما هذا الصباح في الصباح وما هذا النداء
وما هذا العناء كأن كل واحد من الاهالي يجب ان يكون له واحد
من البوليس خاص بخدمته

(المكارى) - أغثنى « ياسعادة الجاويش » فان هذا الرجل ضربني
ولم يعطني أجرتي وأنت تمرقني في هذا « الموقف » وتعرف أنني
لست بمن يتشاجر أو يتخاصم

(الباشا) - خذ أيها القوَّاس هذا السفينة وضعه في السجن حتى
يأتيك أمرى فيه

(البوليس للمكارى) - من أين ركب معك هذا الرجل يا « مرسى »

(المكارى) - ركب معي من جهة « الامام »



(الباشا للبوليس) - ماهدا الابطالة في تنفيذ أمرى - أسرع به
الى السجن

(البوليس) ضاحكاً هازئاً - أظنك ايها الرجل من « مجاذيب
الحضرة » فى « الامام » هلم معى الى القسم فان ههناك تنفى عن
إفلاسك ومجرك عن دفع الاجرة

قال عيسى بن هشام - وجذب الشرطى صاحبى من ذراعه فكاد
يغنى عليه من الدهشة فلم يدري ما يصنع . وأودع البوليس ما كان
فى يديه من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذى أودع المكاري حمازه
عنده وسار صاحبى سحوباً بذراع الشرطى والمكاري خلفهما والجمع
على اثرهم الى « القسم » فلما وصلوا اليه وصعدوا السلم بدأ المكاري
يصرخ ويصيح فقابله احد عساكر « المراسلة » فضربه ليشكته لان
« حضرة المعاون » غرق فى نومه فدخلنا جميعا فى حجرة « المدبر »
لنضبط الواقعة فوجدناه يأكل والقلم فى أذنه وقد نزع « طربوشه »
وخلع نعليه وحل أزراو ثيابه وبجانبه اثنان من الفلاحين اظنهما من
اقربائه يشاهدان ما يتمتع به من لذة الامر والنهى وسعة سلطانه على
الكبير والصغير فى عاصمة القطر وقاعدة الملك وما فى قدرته من حبس
اى شخص كاننا من كان وشهادته عليه بما يجرى فى هواه . فطردنا جميعا

من الحجرة حتى ينتهى من طعامه فخرجنا ننتظر واراد الباشا ان يستند على الجدار من شدة ما ألم به من الحزن فغائته يده فسقط فوق جندى كان يكس الارض هناك فأخذ الجندى فى السب والشتم ودخل الى حجرة «الصول» هاجماً فقال له ان المتهم الذى يشكى منه المكارى تعدى على « فى اثناء تأدية وظيفتى » فضررتني بكل جسمه . فأمر «الصول» باحضاره ونادى كاتبه العسكرى فطلب منه ان يحرر « محضرين » محضر مخالفة ومحضر جنحة وأمل عليه كلاماً مصطلحاً عليه لم افهم منه حرفاً . وبعد ان شهد «البوليس» الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع المكارى فى تأييد دعواه وشهد «الصول» نفسه فى محضر الجنحة بانه شاهد المتهم يتعدى على احد عساكر القسم فى اثناء تأدية وظيفته ختم المحضرين وامر بالمتهم ان يؤخذ الى «خشبة المقياس» وتحريره ورقة التشبيه «فجاء العسكرى صاحب الدعوى وأخذ يمين صاحبه وأجرى ذلك عليه بنفسه وأداقه أنواعاً من الأذى فى مقياسه . كل هذا والباشا كالمغشى عليه من الدهشة والذهول حتى اذا أفاق من غشيته التفت الى يقول :
(الباشا) - انا لا اتصور فى هذه الحالة التى انا عليها الا أن يكون اليوم يوم خسر أو أن اكون حالماً فى المنام أو أن يكون

الذائري الأعظم غضب على غضباً شديداً فأمر باهاتني على هذه الصورة الشنيعة

(عيسى بن هشام) - لا بد لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه النازلة بسلام

قال عيسى بن هشام - ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا هل له من صامن يضمه فقدمت نفسي لضماته فلم يقبلوا مني الا بتصديق « شيخ الحارة » فخرت في أمري ومن أين أجد « شيخ الحارة » في الحال . فألقي بمض العساكر في اذني أن اخرج فانك تجد « شيخ الحارة » بالباب فأعطيه عشرة قروش للتصديق على الضمانة فخرجت ولحقني ذلك العسكري فدلىني على شيخ الحارة وتوسط بيننا في مناولة اجرة التصديق . ثم اشتغل عنى بمشاركة العساكر في ضرب ارباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوم خشية ان يوقفوا المعاونة من رقادهم ثم مالبتوا ان رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب في أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلاً نزل عليهم من السماء ووجدت من كان من بينهم أشد إيذاء لعباد الله وأعظم حرصاً على راحة المعاونة في منامه . قد هجم على باب الحجرة فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهز

السريبر هزاً عنيقاً فاستيقظ المعاون فزعاً وعلم ان « المفتش » قد شوهد داخل من باب القسم فأسرع الى ثيابه فلبسها في لحظة وهرب الى استقباله فلما رآه وقف « وقفة النظام بملامة التعظيم » ولكن كان من نكد طالعه انه ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يحمل زرّه جهة اليمين بل تركه فوق الجبهة وكان الشعر قد تجدد في عارضيه لانه لم يتمكن من حلقه في يومه فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل الى الحجره منضبطاً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته في الزى « للاوامر المستديرة »

ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرة واحدة وما تولى المساكر من الخوف والاضطراب وما شاهده من حركات المعاون سألتني عن شأن هذا الداخل الذي أوردت ذلك الانقلاب فأعلمته بأنه « المفتش » جاء الى « القسم » للتفتيش والتتقيب في الاحوال والنظر في شكاوى الشاكين وتطبيق اعمال العمال على ما يقضى به القانون والنظام . فقال اذا فلندخل اليه لنعرض عليه ما اصابنا من الاهانة . فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب في تقريره فالتفت الينا وسألنا عن أمرنا ولما بدأنا بذكر القصة امر أحد المساكر باخراجنا من حضرته . ثم رأيناه قد وضع التقرير

في جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت في التفتيش والتفتيش لغير
 زى المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصباح والضجيج في
 أنحاء القسم الى أشد ما كان عليه قبل حضوره . وصاح أحد
 المضروبين في شدة ألمه بأنه لا بد أن يشتكي عمال القسم الى
 « النيابة » فدخل أحد المساكين الى المعاون ليخبره بما يقول الرجل
 فوضعت أذني عند الباب فسمعت المعاون يحادث نفسه بقوله :
 « ما هذه الخدمة وما هذا الذل وامن الله على ضرورة الحاجة في
 العاش . ومع ذلك فالحمد لله اذ كان هذا المفتش من الانكايذ ولم
 يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن عجزه في فهم اللغة
 وجهله بالعمل جعله يقتصر في التفتيش على طربوشى وحقى ولو كان
 من « أولاد العرب » لأطلع على الاختلال الواقع في التعداد وما
 يرتكبه عمال القسم من مخالفة « الأصول » ثم التفت الى العسكري
 وسمع منه ما ينقله اليه من قول ذلك الرجل الذي عزم على الشكاية
 الى « النيابة » فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً
 أربعاً وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم فذهبت الى المعاون وكتبت
 فيه ليطلقه بعد ضمانتي له فأبى ذلك وقال لي بوجه عبوس : الا ولى
 أن يبقى في القسم الى الغد حتى يكشف على « السوابق » ثم

يرسل من هنا الى النياية . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين

﴿ النياية ﴾

قال عيسى بن هشام — ولما تركت صاحبي في حبسه وذهبت الى دارى بت طول ليلتي في هم وأرق وقضيت رقادى في اضطراب وقلق لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتالية وهو غريق في دهشته وخيرته لا يدرك مضى الزمن ولا يدري ما الحال ولا يعلم بتغيير الامور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دوائه من تبدل الاحكام واتقلاب الدول . وكنت هممت أن أكتشفه بشرح الاحوال وتفصيل الامور عند أول مصاحبتى له لولا ما دهمنا به القضاء المحتوم فأوقفنا فيما ألم بنا . ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الراى عندى ان يبقى الرجل جاهلاً بالامر حتى ينتهى من خطبه ويكون جهله بتغيير الاحوال قائماً بمذره في التخاص من محالته ثم عقدت العزيمة على أنى لا أفارق صحبته بعد ذلك حتى أريه ما لم ير وأسمعه ما لم يسمع وأشرح له ما خفى عليه وغمض من تاريخ العصر الحاضر لا طلمع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته بالمهر الماضى ولا أعلم أى العهدن أجل قدراً وأعظم نفعا وما الفضل الذى يكون لأحدهما على الآخر . ففكرت الى القسم فى

اليوم الثاني وحملت معي ما يليق بصاحبي من الثياب ليرتديها عند خروجه من حبسه فوجدت المسكرى يستعد به للذهاب الى قلم « السوابق » في دار المحافظة فلما بصرتني ناداني بقوله :

(الباشا) - ماهذه الخطوب والملفات قد كنت أظن ان ما وقع لي أمس كان اسخط ولي نعمتنا الداوري الاعظم وغضبه علي عبده بمكيدة كادها لي أعدائي أوفرية افتراها حسادي فلذلك صبرت لحكم الضرورة وامثلت على تلك الصورة حتي اتمكن من التشرف بالاعتاب والمثول بين يدي مالك الرقاب فأزيل الشبهة وأنتي الرية وأبرأ له مما رماني به الساعي والواشي وأجلى له حقيقة عيودي و اخلاصي فيضاعف علي رضاه لحسن ما قمت به من الطاعة في احتمال هذا الهوان

طالب مني تحمل خلت أني قابض من أذاته فوق حجر ثم اني أهدد به ذلك الى إفشاء العقاب عقاب القتل والصلب في هؤلاء الأذنياء السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء ما اجترؤا عليه في معاملتي واقترفوه من جهل منزلي ولكني سمعت في الحبس - ويأسوه ما سمعت - وعلمت - وياشر ما علمت - ان الدول دالت والاحوال حالت وانكم أصبحتم في زمان غير ذلك الزمان وفي حال

من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكاري : « أنه هو والباشا في المنزلة سواء » وتلك التي :

نصم السميع ونعني البصير ويسأل من مثلها المافية
 فاللهم عفوك وصفحك هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت
 المراتب وانحلت الرئاسات وتساوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير
 والعظيم بالحقير والعبد بالمولى ولم يبق لقرشي على حبشي فضل ولا
 لأمير مناعلى مصرى أمر . ذلك ما لا يكون ولا تحمله الظنون .
 ثم اعلم أيها الرجل ان ذنب أولئك السفهاء فيما جنوه على لا يمد
 في جانب ذنبك عندى الا كالخردلة من الصخر والقطرة من البحر
 لكتمانك على الأمر حتى دخلت بي بلداً هذا حاله وذاك شأنه
 وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن

(عيسى بن هشام) - انما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قاله
 موسى للخضر عليهما السلام « لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى
 من أمرى غسراً » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك
 من القبر ما أودتني التبلد والتحير ومنعنى عن تبصرك بالواقع وتنبهك
 على ما تغيرت به الحال من بعد عهدك وما كدت أنتبه الى تعريفك
 بها حتى دُهينا بذلك المكاري ودُهنا بتلك الحادثة فلادب لى فيما

أُتيت والمذرم مقبول لديك فاصبر على ما ألاقه . واحتمل ما أنت فيه . وتقبل القضاء . بوجه الرضاء . ولا تأس على ما فات . لتكفر عنك السيئات

(المسكرى للبasha) - هلم الى السوابق
(البasha) - سبجان العزيز القادر أترى قد زال عنى بؤسى
وانتشع نحمى ورجع الى عزى فجاءونى بمركبى وخيلى
(عيسى بن هشام) - ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد
الصفافات . والمتاق الصاهلات . وانما هو ديوان تقيديه سحنة
للتمهم وسياه . ويكشف فيه عما جنته يده
(المسكرى للبasha) وهو يسجبه - لا تطل فى الكلام وامش
معى ساكتا ساكتا

(البasha) وهو يتمتع - ما الحيلة فى القضاء وما العمل فى المقدور
وكيف اخلاص وأين الجاه ومن لى بالموت ثانية ليردنى الى راحة القبر
(عيسى بن هشام) وهو يتضرع - أقسمت عليك بدفين القلعة
ووقع سيفك فى الممعة الا ما قبلت نصيحتي وعملت بمشورتي
فلا تعارض ولا تعاند فان الاتناع لا يفيد ولا يزيدنا فى ملامتنا الا
شدة . والمقل يرشدنا ان نسلم للاقدار حيث لا عمل وان نلبس

يسكل حالة لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها

(الباشا) ممثلاً - اللهم لا رأى مع القضاء

قال عيسى بن هشام - وسرنا مع العسكري فوصلنا الى د قلم
السوابق وتحقيق الشخصية ، فرأى الباشاهناك من الشدة ما نخلع
له القلوب وتشيب منه النواصي فجر دوه من ثيابه وخصوا بذنه
عضواً عضواً وقاسوا وجهه وجسده وحدقوا في عينيه وصنعوا
به ما صنعوا وهو يتنفس الصعداء حتى انهوا من عملهم . ثم سأوا
عن ضمانته فلم يجدوا له ضماناً لأن المعاون قاتله الله ردي شيخ الحارة
عن التصديق على ضمانتي ليجوز له الجلس فأرسلوا مع العسكري
الى النيابة . ولما دخلنا على النائب وجدنا أمامه قضايا جمّة وأصحابها
مزدحمون ينتظرون نوبتهم فانفردنا ناحية ننتظر نوبتنا أيضاً
والتفت الى صاحبي يسأل ويستفهم :

(الباشا) - أين نحن الآن ومن هذا الغلام وما هذا الزحام

(عيسى بن هشام) - نحن أمام النيابة وهذا عضو النيابة وهؤلاء

أرباب الدعاوى

(الباشا) - وما النيابة

(عيسى بن هشام) - النيابة في هذا النظام الجديد هي سلطة

عضائية مكلفة بإقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية والغرض من إنشائها أن لا تبقى جريمة بلا عقوبة ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البريء (الباشا) - وما الهيئة الاجتماعية التي تنوب عنها

(عيسى بن هشام) - هي مجموع الأمة

(الباشا) - ومن هذا الأمير العظيم الذي اتفقت الأمة عليه

لينوب عنها

(عيسى بن هشام) - ليس هذا الذي تراه بأمر ولا بمظلم من عطاء الأمة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسله أبوه إلى المدارس فقال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الأمة ولاية الدماء والأعراض والأموال

(الباشا) - نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة والشهيد في الجنة أهل الدرجات ولكن كيف تتصور عقولكم - وأظنكم فقدتموها - أن تجتمع الشهادة في سبيل الله والحياة في الدنيا لأحد من الناس - والذي يفوق ذلك عجباً ويزيد العقل خيالاً أن يحكم الناس فلاح وينوب عن الأمة حرّاث . ويشهد الله أنني خرجت من شدة إلى عدة وانتهيت من خطب إلى خطب فسلمت وصبرت ولكن لا

صبر لي على هذه الخارقة فأعظم الفاجعة وأشقّ النازلة . لقد
فني مني الصبر . ومن لي بفناء القبر

(عيسى بن هشام) - اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة
الجهاد بل هي ورقة يأخذها التلميذ في نهاية دروسه ليثبت بها أنه
تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف
وخمسمائة فرنك

(الباشا) - مه مه كأنك تريد الإجازة التي يميزها علماء الأزهر
لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها . غير أننا ما سمعنا في دهرنا
بهذه الأمانة وما عهدنا أن الأزهر الشريف يعرف ما الفرق نكاته
أو يفقه من العملة سوى الجرايات

(عيسى بن هشام) - ما هذه العلوم بل علوم الأزهر ولكنها
علوم افرنجية يتقونها في بلاد الافرنج . والفرنك عملة تلك البلاد
ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة . وهي قيمة لا تذكر بالنسبة
الى كثرة فوائدها لأن القاعدة في هذا النظام وان الشهادة بلا علم
خير من العلم بلا شهادة « وصاحب الشهادة اذا قدمها للحكومة
يكون له الحق في الاستيلاء على مرتب ووظيفة يزيد على
الدوام ويرق

(الباشا) - الآن كدت أفهم . وأظن هذه الشهادة تماثل
«أوراق الاتزام» و «سراكي الروزنامجة» في أيام حكومتنا
قال عيسى بن هشام - وبينما نحن في هذا الحديث اذابشايين رشيقين
دقيقين قد أقبلوا يخطران في مشيتهما والطيب ينتشر في الجو من
أردانهما وهما يصعران خدما^(١) كبراً واختيالاً . ولا يلتفتان الى من
حولهما تيهاً وإعجاباً . أحدهما يشق الهواء بعصاه . والثاني تلعب
«بالظارة» يذاه فشخصت فيهما الاظار وتحولت نحوهما الانصار .
والحاجب من أمامهما يدفع الناس من طريقهما حتى وصلا الى باب
النائب فقام لهما عن مجلسه وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرة
واشتغل الحاجب بسحبهم وجرتهم وطردهم ونهرهم واشتغل النائب
بطي الحاضر ورفع المخبر حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل
(الباشا لعيسى بن هشام) - يظهر لي ان هذين الشايين من
أكبر أولاد الامراء او أنهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم
(عيسى بن هشام) - ما أظنهما الا زائرين من قرناء النائب
في المدرسة كما يظهر لي من شمائلهما
(الباشا) - وهذا أعجب وأعجب

(١) صعر خده أماله تكبرا

قال عيسى بن هشام - وأردت أن أخبر خبرهما وأكشف
أمرهما فاتهمزت فرصة التزام بين الناس واشتغال الحجاب بهم
فأزويت في عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى فسمعت
هذه المحاوراة بينهم :

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس - لماذا تركتنا أمس
أيها الخبيث من قبل أن ينتهي اللعب
(النائب) - لأنه كان قد مضى من الليل أكثره وعندي
من القضايا ما يضطرني إلى التبكير

(الزائر الثاني) - وهل سمع أحد أن القضايا تعوق الإنسان
عن مجالسة الإخوان . ومثل هذا العذر يُتذَرَّبُ لغير الواقفين
على أعمال النيابة وقضاياها أو لم تعلم أن فلاناً وفلاناً وسواهما من
أفرائك لا تستغرق منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة
وأخص بالذكر منهم فلاناً فإنه يكتبني بأن يمر عليها بلحظة منه
ويستغنى عن مطالعتها ويرتكز على توقد ذهنه ونباهة قريحته
وكثرة تمرنه للاحاطة بفهمها وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى
أمره بين النيابة و « البوليس » فالأولى الاكتفاء بمحاضر
البوليس أو إعادتها إليه لاستيفائها ولا محل لتجديد التحقيق

بعده وتضييع الوقت سدى فيما عساه أن يولد الشقاق أو يبعد
التزاع مرة أخرى

(النائب) — ذلك ما أفعله ولكن لا بد من التمسك « بالظواهر »
والأصول « على قدر الامكان

(الزائر الاول) — أفاعندك الكاتب يقوم في ذلك مقامك ويكفيك

(النائب) — صدقت ان الكاتب ليكفى . والقول الصحيح
ان السبب في مفارقتكم أمس وفي ترك اللعب هو أنني خسرت ما
كان معي من مرتب الشهر ونحن لا نزال في أوائله

(الزائر الاول) — تلك هي عادتك في ادعاء الخسارة دائماً
مهما ربحت ومهما كسبت وما سمعت منك في عمرى الا انك
خسران . أفلم ترجع منى في « السيد الاخيرة » التي كانت يئتنا
خمس جنهات

(النائب) — وحق شرفى وذمتى ومستقبلى انى قت من
عندكم أمس بالخسارة

(الزائر الثانى) — ما علينا . ولكن قل لى هل أنت لا تزال
على وعدك معنا فى التوجه الى صاحبنا الى مشاهدة الرقص
البلدى من فلاة المشهورة

(النائب) - أسألك المساعدة فإنه لا يمكننى ذلك أولاً لأن هذا الرقص الذى يجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبني وثانياً لانى دعوت « مادموازيل فلانة » الشخصية فى « الاوبرا » مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغداء فى الازبكية عند « سائتى » وسنذهب بعد ذلك الى « خان الخليلى » و « قصبة رضوان » و « مقابر الخلفاء » وبعض الأماكن القديمة من البلد للتفكه والتسلى

(الزائر الاول) — دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر شئ، فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات

(النائب) — فأتنى أن أذكر لكما ان معنا فلاناً المحامى ومعه صاحبه العمدة

(الزائر الثانى) — وكيف يميل هذان الشخصان الى مثل هذا المجلس الأفرنجي أو يستريحان له وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الاوربية

(النائب) ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحباً لأهل القضاء . وأمنية الفلاح أن يتحكمك بنا . والرغبة عند أمثالهما عظيمة فى حضور المجالس الافرنجية وإن كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم

(الزائر الاول) مقتضياً - من أين اشتريت هذا
والكرافات ، (رباط الرقبة)

(النائب) - ما اشتريته يا د مونسير ؟ (عزيزى) وإنما
جاءنى مع ملابسى من عند الخياط فى باريس وهو من آخر طرز
(الزائر الثانى) - هل بلغك زواج فلان بمشوقته

(الزائر الاول) - هل ركبك مع فلان فى الاوتوموبيل
(الدراجة الكهربائية)

(النائب) - قد وقفت لكما على سبب انتخاب ابن فلان المتمول

(الزائر الاول) - أنا أعرفه فهو الغرام

(النائب) - لا

(الزائر) - المال

(النائب) - لا

(الزائر) - المرض

(النائب) - لا. وإنما هى سنة جديدة فى شبان باريس

أقتدى المسكين بها

(الزائر الاول) سواء أنا وقفت لكما على سبب استملاء فلان من وظيفته

(النائب) - ميرته

(الزائر) — لا

(النائب) — وطنيته

(الزائر) — لا

(النائب) — فرنسيته

(الزائر) — لا . وانما هي « انكليزيته »

الحامي الاهلي *

قال عيسى بن هشام - فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث الملقط وبوانتهزت دخول الحالج فخرجت من مكفي وعمدت إلى الباشا صاحبي فوجدت بجانبه أحد «ممارسة الحامين قد التصق به وهو يحاوره فوقفت عن بُعْدٍ أسمع ما يدور بينهما

(السمسار) - اعلم ان الحامي يدير القضاء في يده بما يريد فيعاقب من يشاء ويبريء من يشاء وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع اشارة ورهن كلمته وكلائهم في اصبعه فلا حكم الا بقوله ولا قضاء الا بأمره وأنت على ما أراك رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ولا يليق بالمرؤة أن ادعك طعمة في أيدي بمض الحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق اللبس والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ولي صاحب معروف

بين طائفة المحامين بالصدق والامانة وله مقام سام بين القضاة
والحكام فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضى وخدين
النائب ووكيل «البرنس» ولو شاهدتهُ ياسيدى مرة واحدة في
اجتماعه معهم في السهر والنمر ورفع الكلفة بينه وبينهم في ساعات
الأنس وأوقات السرور يشاربهم ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكهم
ويتناظرهم ويقامرهم لا يفت في الحال ان كل طلب له يحجب وليس
لأمره من راد فالجزم برى والبرى جان على حسب المراد. فقل
لى حينئذ عن مقدار ما تستطيع دفعه من «مقدم الأتعاب» في
تبرئتك من تهمتك والانتقام لك من عدوك

(الباشا) - أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرنى صاحبي
عن هذا الخاتم القادر الذي تصفه لى فاذا استفهمت عنه
(السفسار) مقاطعاً - لا لزوم للاستفهام من أحدها هو حضرة
الحامي قد أقبل لمقابلة «النائب العمومى» فانا أستوقفه لحظة للنظر
فى شأنك

(ويسرع السفسار الى مكالمه الحامي بعد أن يوسع له فى الطريق
ويسلم عليه بسلام الأمراء حتى يصل به الى جانب الباشا)
(الحامي) بصوت عال - أنا لا أستطيع قبول التوكيل عن

أجد في هذه الايام لثراكم الاعمال وتراحم القضايا فلم يبق عندي وقت للطعام وللشراب فكيف تكلفني أن أقبل التوكيل عن صاحبك في هذه القضية الصغيرة وقد رفضت في صباحي هذا خمس قضايا لها شأن عظيم

(السمسار) - سألتك بحق الانسانية وحرمة المروءة وبما نجبت عليه من الحنو والشفقة على الضعفاء ان تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية ان لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فان المقصود هو تأثير اسمك وصيتك في الحكمة

(الحامي) - لأرى في ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك (وينصرف الحامي بعد مصافحته للباشا)

(السمسار للباشا) - هلم فادفع عشرين جنيهاً

(الباشا) - ليس عندي الا ن شيء من الدراهم

(السمسار) - أعطني تحويلاً

(الباشا) - أنا لا أفهم لك كلاماً فاذهب عني فقد ضقت بك ذرعاً

(السمسار) - كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة

الحامي أمامني

(الباشا) - أنا لم أوافق مع أحد فاركب وانصرف

(السفسار) - كيف تنكر اتفاقك مع الحامي بعد ان وضعت
يدك في يده

(الباشا) - عفوك اللهم ولطفك ! ومن يصبر على هذه الحال
أثرت يدي في حديثي مع صاحبي ف وقعت في حادثة المكارى .
وصاغت الحامي فصرت مدينا بعشرين جنيها . ففي أى العوالم
أنا وبين أى المخلوقات

قال عيسى بن هشام - ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه
الباشا خشيت أن يقع مع السفسار في حادثة أخرى فأدركته ووبخت
الرجل على احتماله وتوعدته بالشر ورفع الأمر الى النائب
العمومي إن لم ينته عنا . تخلفنا وانصرف . ونادي الحاجب أرباب
القضايا فدخلنا فوجدنا النائب لا زال لاهيا في حديثه مع زائرته
وأشار لنا بالتقدم الى الكاتب فتقدمت مع صاحبي وشرعت في بسط
القضية وبيان ما قاسدها من سوء معاملة البوليس وقبح اقتراه
فالتفت النائب الى الكاتب وقال له : لا تقبل كلاما في البوليس
ولا تسع فيه طعنا بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه . ثم نظر
في الساعة فوجد الميعاد قد حل فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج
يهرب مع صاحبيه . فقلت لصاحبي الآن يجب أن أذهب

لبيحت عن أحد المحامين الصادقين من أصحابي المدافعة عنك

(الباشا) - قل لي بالله ما هو المحامي عنكم

(عيسى بن هشام) - هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ولكن قد دخل في الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فأتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامي ومساره . وهؤلاء بعضهم هم الذين يَمنِيهم علاه الدين الكندي بقوله :

ما وكلاء الحكم إن خاصموا إلا شياطين أو أو باس
قوم غدا شرهم فاضلاً عنهم فباعوه على الناس

﴿ المحكمة الأهلية ﴾

قال عيسى بن هشام - ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا الى المحكمة . فوجدنا في ساحتها أفواجا ذوى وجوه مكفيرة .
وألوان مصفرة . وأنفاس مقطوعة . وأكف مرفوعة . وشاهدنا
باطلاً يذكر . وحقاً ينكر . وشاكياً يتوعد . وجانياً يتودد وشاهداً
يتردد . وجندياً يتهدد ، وحاجباً يستبد . وعامياً يستمد . وأما
تنوح . وطفلاً يصيح . وفتاة تلهف . وشيخاً يتأفف . وممناً

ألفاظاً متناقضة . وأقوالاً متعارضة . ورأيينا المحاميين . عن
الخصمين . يشخذ كل منهما لسانه . ويقدح جناحه . استعداداً للنزال .
في ميادين المقال . وتأهباً للدفاع . في مواقف النزاع . ليخرج كلاهما
بنسيئة البراءة في الحكم . ورفيع النعمة والجُرم . فانزويت بصاحبي .
ومحاميننا بجاني . يذكر لنا « أصولاً مرعية » . و « مسائل فرعية »
و ظروفًا وأحوالاً . وشروحاً وأقوالاً . ومواد وفقرات . في الجنب
و الخالفات . ثم يتصفح محاضره . ويقلب دفتره . ويقسم لنا بوكيد
الآيمان . أن الباشا من تهته في أمان . وأنا أجيب صاحبي عن كل
سؤال . بما تقتضيه الحال . ولما سألني عن هذه الملحة . قلت
له هي المحكمة

(الباشا) — قد كان العهد بالمحكمة الشرعية ويدت القاضي على
غير ما أرى فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب
(عيسى بن هشام) — هذه هي المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية
(الباشا) — وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية
(عيسى بن هشام) — لا قضاء في هذه البلاد على ما تشتهى محاكم
متمتدة ومجالس متنوعة . فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية والمحاكم
للمختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الإدارية والمجالس العسكرية

والمحاكم القنصلية دع المحكمة الخصوصية .

(الباشا) - ما هذا الخلط . وما هذا الخبط . وسبحان الله هل أصبح المصريون فرقا واحزا با . وقبائل وأنفاذا . وأجناسا مختلفة . وفئات غير مؤتلفة . وطوائف متبددة . حتى جعلوا الكل واحدة . محاكم على حدة . ما عهدناكم كذلك في الأعصر الأول . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الغراء . واندرست نبوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان .

(عيسى بن هشام) - ليس الأمر على ما تتوهم وتخيّل فلم يفرق المصريون فرقا ولم يتوزعوا شعوبا بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب في القضاء والحكم . وأنا أشرح لك جملة الحال شيئا قليلا .

أما المحاكم الشرعية فقد جردت من النظر والحكم في عامة الخاصات واقتصرت العمل فيها على الأحوال الشخصية أعني مسائل الأزواج والطلاق وما يدخل في هذا الباب .

(الباشا) - تالله لقد فسد الحال وانحل النظام وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بنير شرع الله وسنة نبيه وهل أصبحتم في الزمن الذي يعنيه القائل بقوله :

قد نُسَخَ الشرعُ في زمانهمُ فليتهم مثل شرعهم نُسِخُوا
 (عيسى بن هشام) لم ينسخ الشرع ولم يرتفع حكمه بل هو باقٍ
 على الدهر ما بقى في العالم لإنصاف وفي الأُمم عدل ولكنه كنز أهله
 أهله ودرة أغفلها تجارها فلم يلتفتوا إلى وجوه تشييده وتمكينه وتمسكوا
 بالفروع دون الأصول واستغنوا عن اللب بالقشور واختلفوا في
 الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفساف الأمور وتعلقوا بمن الدين
 بالأغراض الخفية والأقوال الضعيفة وتركوا الحقيقة إلى الخيال
 وتمدوا الممكن إلى المحال فكان من أكبرهم العالم العلامة فيهم والخبر
 للفهامة منهم أن يُدعى في التنزيل للأغراض في الحق الأبلغ والتعميد
 في الخفية السمحة ولم ينتبهوا يوماً إلى ما تجرى به أحكام الزمن في
 دورته ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام
 للشرع على ما تستقيم به المصلحة بين الناس بل ظلوا واقفين عند الحد
 الأدنى لا يتزحزون ولا يتحللون معتقدين أن الدهر دار دورته ثم
 وقف وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن فلا أمل فيه ولا عمل فكانوا
 سبباً في تهمة الشرع الشريف بخلال الحكيم ووهن المقد وقلة الفناء
 فيه لأنصاف الناس في معاشهم ومراقبتهم على حسب ما تجدد به
 حالات الزمن وتخالف عليه أشكال المصور ، ومن هنا تولدت

الحاجة إلى انشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية
(الباشا) - ما أظن إلا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه في
الدين عذرٌ واضح في النزول إلى هذه الحال السيئة من معارضة
معارض ومنازعة منازع أو من جور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر
فصدّهم عن سواء السبيل وأرغام هذا المرعى الويل
(عيسى بن هشام) - لم يكن من ذلك شئ على الإطلاق فلا إادات
غشارة والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة وليس
الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحداثان ولكنه فساد
في التربية عمّ أمره وانتشر وانحطاط في الأخلاق عظم بلاؤه
واشتهر سكنت إليه نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم وقدغن منهم
داء التحاسد والتباغض ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن
واستولى على قلوبهم الجبن والخوار على عقولهم الضعف والخليل وعلى
نفوسهم الفتور والكسل فوصلوا إلى الحال التي يرون بها الشبهة بدعة
والبدعة سنة والفضيلة تقيصة والنقيصة فضيلة وأقاموا يتعسفون
في الحكم ولا ينصفون . ويتفكحون في الدين ولا يتفقهون . وصرفهم
حب المال . عن صالح الأعمال . وألهام ما يدخرونه من زخرف
الحياة الدنيا . عما يدخرون لهم في الدار الآخرة . فنحن الذين فعلنا

كل هذا بأنفسنا . منا الإثم والوزر . وعلينا الذنب والإصر
وأما المحاكم الأهلية فهي القضاء الذي يَقْضَى على الرعية
اليوم في جميع الخصومات طبقاً لنص القانون
(الباشا) - القانون «الهمايوني»

(عيسى بن هشام) - القانون «الامبراطوري»

(الباشا) - ما عهدت منك أن تُعْجِم وتُبْهِم

(عيسى بن هشام) - لا إعْجَام ولا لبْهَام فهو قانون نابليون

امبراطور الفرنسيين

(الباشا) - وهل عاد الفرنسي فأدخلكم تحت حكمهم

وسلاطنتهم مرة أخرى

(عيسى بن هشام) - لا . وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا في

حكمهم فاختَرنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا

(الباشا) - وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع

للشريف والسنة المطهرة والافانهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله

(عيسى بن هشام) - المسألة فيها خِلَاف فالإجماع تام عند

علماء الشريعة في السرد والنجوى على أنه مخالف للشرع وأن كل

من يقضى به داخل تحت نص الآية الشريفة : «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا

أنزل الله فأولئك هم الفاسقون». ولكن يظهر أنه مطابق عندهم
للشرع في حالة الجهر والعلن بدليل ما أعلنه أحد كبارهم عند نشر
هذا القانون وهو يومئذ مفتي نظارة الحقانية فقد أقسم الأيمان
المغلظة على فتواه التي أفتاها بأن هذا القانون الفر نسوى غير مخالف
للشرع الاسلامي وإن كان لاعتقاب في هذا القانون على الفسق
واللواط مع رضا المفسوق به ان تجاوز عمره الثانية عشرة يوم
واحد ولاعتقاب فيه على من يزني بأمة اذا هي رضيت به وكانت
غير متزوجة . وهو الذي يمد الأخ مجرماً جانياً اذا تعرض لحماية
عرض أخته والمدافعة عنه وكذلك بقية أهلها ماعدا زوجها . وهو
الذي يحكم بالزام المدينين بدفع الربا لمداينتهم . وهو الذي يقبل
شهادة المرأة الواحدة على الرجل . وهو الذي لا يعاقب الزوج اذا
سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا
الأب من ابنه

وأما المحاكم المختلطة — وقضاة من الاجانب — فهي تختص
بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الاهالي والاجانب وبين الاجانب
وبعضهم في الحقوق المدنية أعني في قضايا المال . ولما كان الاجانب
هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدهم وكان المصريون أخلق بالفقر

وأجدر لا إهمالهم وتوانيم كان معظم القضايا التي تحكم فيها هذه المحاكم لابد أن تنتهي بسلخ المصرى من ماله وعقاره

وأما المجالس التأديبية فهي تختص بالنظر في عقاب الموظف الذى يُخل بتأدية وظيفته — وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يهتمونه — وحدها فى العقاب الوقت والجُرمان من المعاش. وما بقى من درجات العقاب فالنظر راجع فيه الى المحاكم الاهلية

وأما المجالس الادارية فهي تختص بعقاب من يخالف اللوائح والامور والنشودات. وشرح ذلك يطول

وأما المحاكم العسكرية فهي تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضباط والجنود وتحكم أيضا على الاهالى فى مسائل القرعة وما شاكلها

وأما المحاكم القنصلية فهي تختص بالنظر فى الجنح التي تقع من الاجنبى على المصرى ومن الاجنبى على الاجنبى من جنس واحد: فاذا وقعت جناية من أجنبى على مصرى فليس لها فى مصر من حكم أو عقاب ولا تختص أى محكمة من كل هذه المحاكم التي عدتها ذلك بالنظر فيها بل يرتد الجاني بالقضية الى وطنه ومسقط رأسه

وديار قومه فينظر قضائته هناك في أمره والغالب في مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بطل معلومة مثل : « عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى .. وضياح معالم القضية - وعدم توفر الشهود » وأما المحكمة المخصوصة فهي تختص بمحاكمة الاهالى عند تعدّهم على الجنود الاجنبية .

(الباشا) — ما زلتَ تسمعى الغريب وتفهمنى غير مفهوم ومن أعجب ما سمعت أن المصرى يتعدى على الجندى

قال عيسى بن هشام - وبيننا نحن في هذا الحديث إذ ارتجّ المكان وتماوج الزحام وأقبل القاضى وهو في عتفوان شبابه وصبا أيامه يتألق وجهه حسنا . ويشاكل في القد غصنا . وكأنه طائر في مشيته من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ذهب أسأر عن نوبة القضية ثم عدت إلى صاحبي ومكثنا في الانتظار زمنا طويلا إلى أن جاء وقتنا ونوئى الباشا فدخل مع المحامى في الجلسة وقام النائب فطالب الحليم على المتهم بمقتضى مادتي (١٢٤) و (١٢٦) عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال « الضبطية القضائية » في أثناء تأدية وظيفته وبالمادة (٣٤٦) مخالفات لتعديه على الكارى بالإيذاء الخفيف (الناضى للمتهم) - « هل فعلت هذه التهمة »

(التهنئ) - لم أفعل

قال عيسى بن هشام - وجاؤا بنى شاهداً فسألنى القاضى عما أعلمه
فى هذه الواقعة فأجبتُه :

(عيسى بن هشام) - ان لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة
وهى انه

(القاضى) مقاطعاً - لازوم لتفصيل القصة والحكاية . قل لى
« معلوماً لك » فيها

(عيسى بن هشام) - « معلوماً لى » هى اننى كنت أزور للقابر ذات
ليلة وقت الفجر أبى الموعظة وأنشد الاعتبار ...

(القاضى) مستثلاً - لازوم لكثرة الكلام . أجبنى عن النقطة
اللى سألتك عنها فقط

(عيسى بن هشام) - ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو أنى
وأيت رجلاً خرج من ...

(القاضى) متمثلاً - قلت لك انى لا أقبل التطويل ولا الشرح
فى الواقعة ولكن هل ضرب المتهنئ العسكرى والخمار

(عيسى بن هشام) - ما ضرب المتهنئ الخمار وانما دفعه عنه من شدة
الحاجة وما ضرب العسكرى وانما سقط عليه مما غشيه بغير عمد

ولا قصد وهو مجهول

(القاضي) - يكفي . يكفي . هلم « النيابة »

(النائب) - « ان هذا البشامتهم بتعديده بالضرب على أحد رجال البوليس في أثناء تأدية وظيفته بالقسم ومتهم بالتعدي بالإيذاء على مرسى الحمار . والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التي في الاوراق واطلاع المحكمة عليها كاف وبذاء عليه النيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلب من عداله المحكمة التشديد في العقوبة لان حالة المتهم تستدعي ذلك فانه يتخيل ان رتبته تجعله خارجاً عن سلطة القانون وتخوله الحق في اعتباره بقية الناس أصغر منه شأنًا فيؤدبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ولا شك ان تشديد العقوبة عليه واجب لاعتبار أمثاله به والمساواة في العدالة وأفوض الامر الى المحكمة »

(القاضي الحامي) - المحاماة . مع الاختصار

(الحامي) بعد أن يتنحج ويقلب في أوراقه - « اننا نتعجب من ان النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين . ونقول ان أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضي في وضع الشرائع والقوانين في هذا العالم منذ البدأوة وعصور الحجية كان يقصد منه

(القاضي) مشمئزًا - اختصر يا حضرة المحامي وادخل في الموضوع
 (المحامي) - ... ومن المعلوم ان نظام الترتيب يا حضرة القاضي
 في طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى
 (القاضي) متعجباً - اختصر . يابك .
 (المحامي) - الموضوع يقتضى ذلك
 (القاضي) متأقفاً - لا لزوم له
 (المحامي) متحيراً - قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من
 أقوالها) ونحن نقول اننا لو سمعنا جدلاً . . .
 (القاضي) مغضباً - يكفي يابك . الموضوع
 (المحامي) متلعثماً مضطرباً - ان هذا المتهم يا حضرة المحكمة
 الواقف الآن بين يذى القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل
 العصر القديم وله حديث منشور في الجرائد - وهذه أعداد جريدة
 « مصباح الشرق » تطلعون عليها - وقد اعترضه في طريقه أحد
 المكارين فدفعه عن نفسه والناس يعلمون إلخاخ الحمار وسوء أدبهم
 ومثل هذه الطبقات التي ليس فيها تربية . . .
 (القاضي) نافداً صبره - قلنا اختصر . يابك
 (المحامي) وهو يتصبب عرقاً - ... ولما توجه المتهم الى القسم

أُغْمِيَ عَلَيْهِ فُسْقَطُ بَدُونِ تَعَمُّدٍ عَلَى عَسْكَرِي كَانَ يَكْنُسُ أَرْضَ الْقِسْمِ
بَغَيْرِ مَلَابِسِهِ الرَّسْمِيَّةِ . وَعَدَالَةُ الْمَحْكَمَةِ تَقْضِي بِعَدَمِ الْإِتِّفَاتِ إِلَى
دَعْوَى الْبُولِيسِ . وَلَا عِقَابَ عَلَى الْمُتَّهَمِ أَلْبَتَّةُ لِأَنَّهُ كَانَ فِي عَصْرِ غَيْرِ
عَصَرِنَا وَفِي نِظَامٍ خِلَافَ نِظَامِنَا وَلَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةُ الْقَانُونِ فَهُوَ يَجْهَلُ
أَحْكَامَهُ وَحَضْرَةَ الْقَاضِي الْفَاضِلِ أَدْرَى بِالْأَحْوَالِ وَإِنْ

(الْقَاضِي) مُنْفَعلاً ضَارِباً يَدَهُ عَلَى الْمَكْتَبَةِ - الْمَحْكَمَةُ تَنَوَّرَتْ يَا بَاكَ
وَلَا لَزُومَ لِلْكَلَامِ مُطْلَقاً فَهَلُمَّ طَلِبَاكَ

(الْحَامِي) سَاخِطاً فِي نَفْسِهِ - طَلِبَاتِنَاهِي وَ إِنَّا نَطْلُبُ مِنْ بَابِ
أَسْأَلِ الْحَكْمِ بَرَاءَةَ الْمُتَّهَمِ وَإِنْ رَأَتْ الْمَحْكَمَةُ غَيْرَ ذَلِكَ فَتَرْجُو اسْتِعْمَالَ
الرَّأْفَةِ بِالْمَادَّةِ ٣٥٢ عُقُوبَاتٌ »

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ - وَبَعْدَ ذَلِكَ نَطَقَ الْقَاضِي بِالْحُكْمِ فَحُكِمَ عَلَى
الْبَاشَا بِالْحَبْسِ سَنَةً وَنِصْفًا بِمُقْتَضَى الْمَادَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ مِنْ قَانُونِ
الْعُقُوبَاتِ وَبِخَمْسَةِ قُرُوشٍ وَالْمَصَارِيفِ بِالْمَادَّةِ الْمَذْكُورَةِ أَيْضًا مِنْ
الْمُخَالَفَاتِ . فَخَسَّامَتْ الْأَرْضَ بِي وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي وَكَدَنْتُ
أَشْتَرَكُ مَعَ صَاحِبِي فِي الذُّهُولِ وَالْإِغْمَاءِ لَوْلَا أَنَّ الْحَامِي أَكْدَى لِي كُلَّ
التَّأْكِيدِ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الْبَرَاءَةِ فِي مَحْكَمَةِ الِاسْتِثْنَاءِ لِعَدَالَةِ رِجَالِهَا
وَلَكِنْ يَجِبُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ تَرْفَعَ عَرِيضَةً شَكْوَى إِلَى «لَجْنَةِ الْمُرَاقَبَةِ»

لحسن التأثير في القضية عند نظرها في الاستئناف ثم قال لي اعلم ان السبب في كل ما صدر عن هذا القاضي من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لانه مدعو في وليمة بعض رفقاءه عند الظهر تماماً وأمامه في جدول القضايا ثلاثون قضية يريد ان يأتي عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد

وأطعنا إشارة المحامي فقدمنا عرضة الى « لجنة المراقبة » ولما طلبنا منه ان يتوجه معنا للسؤال عما تم في أمره انحنى عن استصحابنا وقال انه كان يوده مباشرة ذلك بنفسه ولكن يمنعه ان يعلم القاضي بسعيه في التظلم منه فيتمعد في المستقبل اذاه وينصرف همه الى نكايته بسبب شكايته والمحامي في حاجة دائمة الى اجتلاب رضا القاضي واجتناب غضبه فقبلت عذره ودعوت الباشا الى التوجه والسؤال فأعرض ونأى بجانبه وخاطبني وهو يشتد في الإباء ويلجج في الامتناع بقوله: (الباشا) - يكفيني ما قد وصلت اليه من الذل والهوان وما قاسيته من نزول القدر وحلول الضيم بحجم القضاء من رافع السماء وأنا أربأ بنفسى ان يجتمع عليها ذلّان في سلك واحد ذلّ المتحمل للظلم المستكن للجور وذلّ المشتكى الضارع والمتظلم الخاضع . فاليك عنى لا تكن عوناً للخطوب . ومفتاحاً للكروب . وصدق

ابن يعقوب : « رب السجن أحبُّ إلى مما يدعونني اليه » . ويعلم الله لولا عذاب النار . لفرجت من هي بالانتحار . وبودي لو يبدل حكم الحبس بالاعدام . لأخلص من هذه الأوصاب والآلام . وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون في عقاب الكبراء والامراء وانما هو يجري عندنا في عقاب النوغاء من الناس والسفلة من العامة وللأمرء الامتياز على كل حال فان كان ثم لنا عقاب . فضرب الرقاب . وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظلمة السجون (عيسى بن هشام) - ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفرح ولا أتوقع منك مثل هذا الخور والهلع . وأنت البطل الجرىء والشجاع المقدم وما الشجاعة الا في التصبر على المكروه والتجمل للخطوب تتلقاها بوجه طلق وصدر رحب وتترقب الفرج منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأمر له . فرجة كحل العقال
وأنت عندي الحازم الأرشد . والعامل المسدد . وما العقل
الا نفاذ الرأي في كشف الملمة . وتسديد الحيلة في إزاحة الغمة .
وأمانا اليوم طرق مسنونة ووسائل مشروعة لا غضاضة علينا في
ولو جها ولا مضاضة في ساو كها . واعلم أن تبدل الزمان وتقلب

الحدّان يغير من مبادئ الأمور ويكيف في اعتبار الأشياء فما كان يُعتبر بالأمر فضيلة يُعتبر في الغد رذيلة وما كان يعدّه الناس في الزمن الماضي تقيصة يعدونه في الحاضر كمالاً . وإن كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السطوة والمنعة ويقوم ركنه على البأس والبطش فإن الشرف اليوم كل الشرف في الاستكانة للأحكام والخضوع للقانون . فهل نسلك سبيله وتأخذ طريقه عسانا أن ننتهي بالخلاص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء أن يقبل الإنسان نظام الأحكام في البلد الذي اتخذ داراً واختار مقاماً (الباشا) - لطم الموت الزؤام (١) أهون من هذا الكلام .

وللشرب من حميم أن (٢) أثر من احتمال هذا الهوان قال عيسى بن هشام - فاعتلت على وجوه الآراء في صرف صاحبي عن الامتناع والإباء - وكدت أياض من بلوغ الغاية . في باب النصيحة والهداية . لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى في طريقنا بصوت نكير . دونه صوت الحمير :

المؤيد والبقطم : الأهرام ومصر :

الاريدة بقرش

(١) الموت الزؤام الكره أو الجهر (٢) الحميم الماء الحار وآن شديد الحرارة

(الباشا) - ماذا أسمع من الاعاجيب ! أصبحت المساجد
والجبال والآثار والبلاد تباع في الاسواق بالمراد
قد اختل الانامُ بغير شك فجدوا في الزمان أو العيوش
(عيسى بن هشام) - ماهي الآثار ولا بالبلاد ولكن السماء انتحلت
أعلاماً لهذه الجرائد اليومية

(الباشا) - لعلك تعنى جرائد الصيافة ويومياتهم ، أو
«جرائد الالتزام» ولكن ما وجه هذه التسمية في التسمية
(عيسى بن هشام) - ليس الامر كما ذهبت اليه ولكن
الجرائد هي اوراق تُطبع كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تُجمع
وتُسرَد فيها الأخبار والروايات العامة ليطلع الناس على أحوال الناس
وهي أثر من آثار المدنية الغربية انتقل اليها من افريقيا وانتقل
في وضعها انتشارُ الحمد للفضيلة والذم للرديلة والنقد على ما فتح
من الاعمال والحث على ما حسن من الأفعال والتنبية على ما اضرع
الخلل والتحضيض على اصلاح الزلل وتعريف الأمة بأعمال
الحكومة النائية عنها حتى لا تجري بها الى غير المصلحة وتعريف
الحكومة بحاجات الأمة لتسمى في قضائها . وبالجملة فان أصحابها هم
في مقام الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر الذين أشارت

الشريعة الإسلامية اليهم

(الباشا) - قد كنا نسمع في زماننا بشيء من هذا القليل يقال له «غازية» وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها «روزنامه» وقائع، وأخرى بالفرنسية اسمها «الوقائع المصرية» تدون فيهما المدائح والتهاني ويذكر فيهما انتقال الركاب العالي. ولكن ان كانت الجرائد قد ارتقت اليوم الى ما تزعم فلا بد أن يكون قد اشتغل بها واهتم بأمرها كبراء العلماء الاعلام وعظماء المشايخ الكرام ولنعمت الوسيلة وحسنات الطريقة في تبليغ الناس ما يصلحهم في معاشهم وينفعهم في معادهم. فعلى بواحدة منها (عيسى بن هشام) - علماؤنا ومشايخنا - يغفر الله لهم - حم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق وممارسة هذه الصناعة وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونه فضولا تنهي عنه الشريعة وتداخل فيما لا يعني فلا يأنهون بها وربما اختلفوا في كراهة الاطلاع عليها أو بإباحته. وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغير الفاضل واتخذها بعضهم حرفة للتميش بها والتكفف على أية حالة كانت فلا تجذب بينهم وبين أهل الحرف بوباعة الاسواق فرقا في الغش والخداع والكذب والنفاق والمكر

والاحتيايل للاستلاب والافتيال

عَمَرُوا مَوْضِعَ التَّصَنُّعِ فِيهِمْ وَمَكَانَ الْإِخْلَاصِ مِنْهُمْ خَرَابٌ
فَذَهَبَ مِنْهَا الْغُرُضُ الْمَقْصُودُ وَسَقَطَ شَأْنُهَا بَيْنَ الْعَامَةِ بِمَدَانِ سَفَلٍ
قَدَرَهَا عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَأَصْبَحَ مَا كَانَ يُرْجَى فِيهَا مِنَ النِّفْعِ دُونَ مَا تَجَلَّبُهُ
مِنَ الضَّرَرِ . وَمِنَ الْعُقَلَاءِ مَنْ لَا يَزَالُ يَرْجُو مِنَ الْإِيَّامِ أَنْ تَدُورَ
يَوْمًا بِتَهْذِيبِ هَذِهِ الْخَالِ وَرَفْعِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا
مِنَ الشَّرَفِ وَعُلُوِّ الْقَدْرِ . وَالْحَكْمُ كُلُّهُ لِلْقَارِئِينَ فِي الْأَقْبَالِ عَلَى مَا يَنْفَعُ
وَالْإِنْصِرَافِ عَمَّا يَضُرُّ . فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جَفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
النَّاسَ فَيَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ . ثُمَّ نَادَيْتِ الْبَائِعَ فَاشْتَرَيْتُ مِنْهُ أَرْبَعًا
وَفَتَحْتُ وَاحِدَةً أَقْرَأُ عَلَى صَاحِبِ ثِقْفٍ مِنْ أَخْبَارِهَا فَوْقَ نَظَرِي فِيهَا
عَلَى كَلَامِ طَوِيلٍ عَنِ الْحَكَمِ عَلَى أَحْمَدَ سَيْفِ الدِّينِ فَأَسْمَعْتُهُ مَا جَاءَ
فِيهِ مِنْ وَصْفِ مَا يَقَاسِيهِ هَذَا الْأَمِيرُ مِنْ خَشَوَةِ الْعِيْشِ فِي سَجْنِهِ
وَاسْتِدْرَارِ الدَّمُوعِ لَمَّا يَلَاقِيهِ هَذَا الْغَلَامُ مِنْ ضَيْقِ السَّجْنِ وَهُوَ مِنْ
سَلَالَةِ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ . ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : بَعْدَ أَنْ أَنْتَهَيْتُ مِنْ أَقْوَالِ
الْجُرَيْدَةِ فِي اسْتِعْطَافِ الْقُلُوبِ وَالتَّمَاسِ لِلْعَفْوِ :

(عيسى بن هشام) - انظروا أيها الباشا كيف وضلت بنا الحال
في المساواة وقد علمت ما أصاب « البرنس » أحمد سيف الدين

من حكم الحاكم عليه فكيف ترفع نفسك بعد ذلك وتأبى
الخضوع للقانون والامتثال لأحكامه والتوسل بطرقه للخلاص
مما وقعت فيه

(الباشا) - ما « البرنس » . ومن أحمد سيف الدين

(ميسى بن هشام) - اما « البرنس » فهو لقب أجنبي قديم
كان يتلقب به رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجتزوا على الأمة
باتحال لقب « امبراطور » ثم صار يُطلق بعدهم في أوربا على أعضاء
بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة . ويُطلقه اليوم على
أنفسهم أعضاء « العائلة الخديوية » ذكورا وإناثا وإن كان لا ذكر
له بين الألقاب الرسمية في الدولة العلية . واما أحمد سيف الدين
هذا فهو أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن محمد علي جد الأسرة
الخديوية وعميدها وقد ارتكب جناية فسحبه إلى الحاكم واستحق
العقاب الذي يقضى به القانون فخسرت عليه الحكمة الابتدائية
بالسجن سبع سنين فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة
الاستئناف فأنقضوا المدة إلى خمس ثم استغاث بحكمة النقض
والإبرام فلم تنفعه . وقد انصرفت المساعي لاتفاق أعضاء الأسرة
الخديوية على التماس المغفرة عنه وذهبت أمه يمينا وشمالا فلم تبق

وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها ولكن لا وسيلة مع القانون فان سيفه ماضٍ في كل الرقاب وساطعته نافذ في كل الرؤوس . فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وترفع عن التوسل والتظلم وتأنف نفسك من السعي وراء « لجنة المراقبة » و « محكمة الاستئناف » وقد علمت من تاريخ الأُمراء وأولياء النعم ما علمت (الباشا) - نعم كيف لا تخز الجبال الشم . إذا استنزلوا منها الأراوى المضم^(١) . وكيف لا تنشق القبور . ويُنفخ في الصور . وقد انحطَّ المقام وسفل القدر . وحقت كلمة ربك على مصر : « فجعلنا عاليها سافلها » . وما دام حفيد محمد علي في السجن على ما تروى يخضع لحكم القانون ويتوسل بثلث الوسائل وتتشفع أمه بثلث الشفاعات فما على من عارٍ فيما تدعوني إليه فاذهب بي الى حيث تريد . وليتهم كانوا يقبلون مني ان أكون فداء لابن سادتي وأولياء نعمي فتضاف عقوبته الى عقوبي .

﴿ لجنة المراقبة ﴾

قال عيسى بن هشام - فسرتني من الباشا مطاوعته لِبَيِّ وقبوله لنصيحتي ورضيَ بالتوجه إلى نظارة الحفانية فسار معي وهو

(١) الأراوى جمع أروية وهو الومل والاعمى ما في ذراعيه ياض وسائر أسود

محتق بدمعه متمر بقدمه. ولما وصلنا إليها قصدنا مكان « لجنة المراقبة » وعلمنا بالدخول في حجرة المفتشين فنحننا الحاجب وطلب منا « الكارت »

(الباشا) مستفهماً - ما معنى هذا اللفظ الأعجبي

(عيسى بن هشام) - « الكارت » بطاقة صغيرة يُطبع عليها الاسم والعمل أو الحرفة والصناعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون الزور بالخيار في قبول الزيارة أو التماس منها

(الباشا) - لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة في أيامنا لكل من يطرقها. وكيف ينطبق هذا التضييق على ما تصفه لي من المساواة في الحقوق والانصاف في الأحكام

(عيسى بن هشام) - لا يسلم الحال من زيارة زائر بنير شغل أو من لاجئة صاحب حاجة فوضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم

(الباشا) - ألم تكن هيئة الحكام وعزتهم بكافية لصد من ذكرت عن الدنو منهم والتجرو عليهم

قال عيسى بن هشام - وبادرت الى القلم فكتبتُ وريقة باسم الباشا وسلمتها للحاجب فجاءنا بعد الا انتظار بالاذن فدخلنا فوجدنا

أمامنا فتى من أجل الفتيان . قد أرسل لحينه قبل الاوان . يتوج
تحتها ماء الشباب . كما يتوج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا
منه بعض الاقتراب . رأيت في يده جريدة حساب . يجمع في
أرقامها ويضرب في أعدادها . ثم يضع يده على جبهته . كمن يذكر
رقماً سقط من حسبته وعن يمينه كتاب أعجمي وعن شماله كتاب
عربي . فكتاب اليمين « ثولثير » الفرنسوى الملحد . وكتاب
الشمال لابن العربي المتصوف الموحد . ولما قدمنا نحوه سألنا عن
حاجتنا فذكرت له العريضة التي قدمناها وقصصت عليه القصة
وشرحت له ماعاملنا به القاضى من سوء المقاطعة فى الشهادة
والرافعة . وهنا انبرى الباشا مخاطباً بقوله :

(الباشا) : وأدهي ما فى القضية وأمر ما فى الامر أن الذى
تسمونه « النائب » اعتبر رتبتي سبباً لأهانتي وما كنت أتخيل فى
الاحلام ان الرتبة التى تلتها باقتحام الاخطار واحتمال المشاق تكون
جريمة لا تنمقر وبرهاناً قاطعاً لديه فى تشييد دعواه يُطلب به تشديد
العقوبة . فقولوا لى بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب
العقاب والانتقام . ومن أى صنف أنتم بين صنوف الانام
قال عيسى بن هشام - ودخل أحد الزائرين فى هذه الاثناء

فجمدت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله والافقد كان الباشا
اندفع فيه . بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلم الزائر سأل عما حدث
من الاخبار . في وجه النهار . فنأوله المفتش خطبة يتفكه بقراءتها .
بعد ان بالغ له في بلاغتها . وما كاد يلتفت اليها ثانية حتى وافاه
أحد المفتشين من الاجانب فأطلعه على رسم في ورقة زعم أنه نقشه
في أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام واحتد الجدل فنظر الشاب
فيه نظرة وضحك له ضحكة ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا فخطب
الباشا بكلام لطيف عذب يني عن كرم نسيه وحسن أدبه وختم
كلامه بقوله :

(المفتش للباشا) - قد أطلعت على ظروف القضية كلها في « مصباح
الشرق » فإما القاضي فقد يكون له المدر في مقاطعة الحامي لان
منهم من اعتاد أن يأتي في مرافعاته بتاريخ نشأة الخليفة وتكوين
الجمعية البشرية وما يجري هذا الجري مما يطول شرحه ويمل
سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية وهم يستعملون ذلك
في أيسر القضايا وأدناها ليقنع صاحب القضية ان الحامي لم يدخر
لديه كلاماً يقال في الدفاع عنه بقطع النظر عن ربح القضية
أو خسرانها . فترى أبواب القضايا يعتقدون ان الحامي لا يستحق

أجره من المال . الا بكثرة ما يقال . كالسامة يكون تقدير ثمنها . على كمية وزنها . وقد تواف بمضهم مرة عن دفع النأخر من الجمالة للحاميه بعد أن ربح له القضية بدعوى انه لم يسمع منه كلاماً مطوياً لا في المرافعة يستحق عليه الاجر سواء كان مفيداً أم مضراً بها وايس يخفى أن وقت القاضي قصير ثمين فلا يسهه الا لقاطعة على المحامى المكثرفى كلامه . وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتوجيهه الى وقائع الحادثة لتلايفوتها بالخروج عنها . وحاصل الامر ان القاضى لم يخالف القانون بشئ فيما أتاه معكم

(الباشا) - ليت شعري اذا اعتذرت عن القاضي فى مقاطعته فما المنذر فى وضعه لى فى « قفص المتهمين » وتقييده لى بالقيام عند كل سؤال وأنا رجل شيخ . عمر وقد قضيت عمرى فى المناصب العالية بالحكومة المصرية وبذلت دمى فى خدمة الاسرة الخديوية فهلا كان وقرنى لسنى واحترمنى لقدرى وأى قانون فى الدنيا يمنعه من ذلك وتوقيف السن طبعى واحترام المقامات أمر أصلى والله تعالى يقول : (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات)

(المفتش) - ذلك ما يقضى به القانون أيضاً فإنه قائم على المساواة بين الناس ولا فرق عنده فى المقامات والاعمار وهذا عين ما يأمر

به الشرع الشريف وعين مايجرى على أعضاء الأسرة الخديوية وخاصة الحكام اذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذ به القانون عليه . ولا مفرّة عليك ولا غفاعة في وقوفك أمام القاضي فاما تلقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهي أكبر الدرجات (الباشا) - ان كان هذا حككمكم في القاضي فما الحكم في

عضو النيابة الذي عيّني بشرف رتبتي

(المفتش) - انا لم أطلع بعد على أوراق القضية وتفصيل المرافعة ولكن ما انتشر في «مصباح الشرق» من كلام «النائب» لا يؤخذ منه معنى التعبير بالرتبة بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة منها عظم شأنها لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتياز بها على الناس أمام القانون فانها قاصرة على صاحبها لا تجمل له سبيلا على محروم منها . ولا بأس عليكم من كلام النائب في هذا الباب فانه جرى بيننا مجرى المادة في هذا العصر

(الباشا) - اذا كان للقاضي العذر وللنائب الحق فما فائدة تطلي لكم وحضورى أمامكم أفما كان من من اللائق أن تزجروا القاضي وتؤنبوا النائب وتفحصوا التهمة وتثبتوا من بطلان التهمة وتنقضوا ذلك الحكم أمامها

(المفتش) - ليس ذلك من اختصاصنا . وإذا وقع من أحد رجال الحاكم ما يخالف واجب وظيفته فالنظر في أمره متوكل على مجلس التأديب ، ولا سبيل لرئيس على مرؤوس إلا بحكم من الحكمة . وأنا آسف فاية الأسف لعجزنا عن التصرف في قضيتك .
والحكم فيها راجع إلى محكمة الاستئناف وحدها

قال عيسى بن هشام - وكنت أشاهد في أثناء هذه المحاورة شاباً آخر يجانبنا من المفتشين يسلم « طربوشه » احمراراً ، ويقب طرفه ازوداراً . تلوح على وجهه غمائل الامارة . ولا تنفك يده في رفع وخفض « للنظارة » . وتشهد عليه سيماؤه بالتفنن في التدبير . وتدل على قوة الدهاء والتفكير . فلما وصلنا إلى حيث وقف بنا الكلام رأيناه ينادى الحاجب ويقول له :

(المفتش الثاني) - على « بدلاوز » و « جارو »

(الباشا لعيسى بن هشام) - هل هذان الاسمان يطلقان على القاضي والنائب وهل ترى هذا الشاب هباً للالتصاف لي منهما
(عيسى بن هشام) - هذان اسمان لكتابين في فقه القانون بدل « ابن عابدين » و « الهداية » في فقه الشرح

وحضر خازن الكتب بالكتابين فرد المفتش له أحدهما وقال له :

ما طلبت «بودرى» بل طلبت «جارو». ولما جاءه به أخذ يبحث في الكتابين طويلاً ثم نظر للخازن نظرة اليأس وقال: انتنى «نفوستن هيلى» فأتاه بكتاب آخر فخرج منه بعد النظر الطويل الى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسية وانتهى الامر بينهما أن قالاً للباشامكا: ليس أمامك الا الاستئناف في قضيتك وأما ما يختص بالقاضي والنائب فسنضع له «دوت» (مذكرة) وتقدمها الى اللجنة عند انعقادها فاذا تبين لها أطلّ خلال في تصرفها أصدرت منشوراً الى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك في المستقبل

ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول:
(الباشا) - قد كتب على أن لا أخرج من قم الا الى قم ولا أنتهى من كدر الا الى كدر حتى كاد يصفو بالى ويخلو خاطرى لكثرة ما تراكم على من الهدوم والاحزان:

فاني رأيت الحزن للحزن ماحياً كما خط في القرطاس رسم على رسم
ومن البديع الغريب في أمر هذه الحكومة الحاضرة اننى
ما وضعت قدمي في دائرة من دوائرها الا ورأيت أمامي غلماناً
وقتياناً يتولون أمورها ويتصرفون في أعمالها فهل خلق المصريون
خلقاً جديداً أم صاروا في الجنة استوت فيها الاعمار

(عيسى بن هشام) - لا تعجب من تقلد الشبان المناصب بالحكومة
فان نظام هذا العصر يقضى بذلك وهم يزعمون انه ليس في استطاعة
الكهول والشيوخ ان يقوموا بأعباء المناصب خلوهم عن علومها
الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة

(الباشا) - كيف يدعون ان العلم ينحصر في الشبان دون الشيب
وما عهدناه الا في من أحتت السنون ظهورهم ويئضت التجارب
مفارقهم فابتسم فيها بياض الرأى والادب

(عيسى بن هشام) - هم يقولون ان العلم والمعرفة لا يختصان بسن
دون سن ولا صر دون صر وربما كان الشاب أفقد سهما في حلبة
العلوم وأجمع لشتات الفنون لما يختص به من جدّة الذهن وسرعة
الادراك فاذا انصرف بهمة الى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من
نصيب الكهول والشيوخ وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة
التجارب التي يمتاز بها ذوو الاسنان والاعمار :

ليس الحداثة عن علم بمائة قد يوجد العلم في الشبان والشيب
(الباشا) - ولنرجع الى شأننا فقد اتبعت آراءك وامثلت نصائحك
وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى فليس لنا
بعد هذا التعب الا الركون الى راحة اليأس ولم يبق لك بعد اليوم

وجه في أى احتجاج وجيه توجهنى به وتسحبنى معك للسعى والتظلم
أمام الحكام

(عيسى بن هشام) - لا تيأس ولا تقنط فان أماننا محكمة
الاستئناف ولى اعتماد عظيم على انصافها فى الاحكام . ولو خاب
فيها الامل على الفرض والتقدير فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً
نلتزمه بوساطة ناظر الحقانية

(الباشا) - لا تذكر لى من الآن حاكماً ولا ناظراً فقد سئمت
من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان مهمبالغت لى فى الوصف
واستشهدت فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) - ليس ناظر الحقانية الذى أذكره لك من
صف هؤلاء الشبان وطرازم بل هو رجل كهل عاكف على العبادة
منكب على الاوراد منصرف الى الاذكار . ينهى ليله قائماً .
ويصبح نهاره صائماً فبين السبحة وأصابعه عهد وميثاق . وبين
السجادة وجبهته ارتباط والتصاق . وبالجملة فهو يذكرنا فى هذا
العهد الجديد بمهدكم القديم . وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمه
حسن باشا المناسترلى

(الباشا) - حسن المناسترلى !! ذاك خليلى وقرينى وصاحبى

وخديني ورفيقي في الخدمة وأخى في الحكومة ولما لم تخبرني
عن ابن أخى هذا من أول الأمر فتكون قد حقنت ماء وجهي
وأقذتني من كل هذه الالهانة وذلك التحقير

(عيسى بن هشام) - ما فاب عني ان أذكرك به فإنه لم يكن له
أقل نعم يدفع عنا ما تقابلنا فيه من المصائب وإنما نفعه يكون في
آخر الدرجات ولا عمل نرجوه منه في مساعدتنا إلا بعد صدور
حكم الاستئناف والسمى في التماس المغو من ولي الأمر

﴿ محكمة الاستئناف ﴾

وآن أوان الجلسة في الاستئناف . فبسرنا في طلب العدل
والانصاف وكل واحد منا مشغول بحاجته . لاه بنازلة . قالبا
يفكر في مصيبته . ويتألم من بليته . والحاجي يدبر في أمره . ويتطلع
لأجره . وأنا أسأل الله لنا النجاة . من مكايد الحياة . ولما وصلنا
الى حي « الاسماعيليه » ورأى الباشا ذورها ومباريتها . وشاهد
قصورها ومنازلها . واستطاب رياضها وحدائقها . واستنشق رياحينها
وشقائقها . استوقفنا سائلا مهوتا . واستنطقنا بعد أن كنا سكونا .
فقال ألا تخبراني عن موضع هذه الجنة الزاهرة . من مدينة القاهرة .
فقلت له هذه « الاسماعيليه » اختطها اسماعيل . فيما اختطه لزيته

وأدى النيل : يسكنها اليوم جماعة من العظماء . ذوى الغنى الأثراء .
وقد كانت في أيامكم خراباً قفراً . لا تحمل بيتاً ولا ترفع قصراً .
ولا ترى فيها من النبات غير الطلح والضال^(١) . ولا من الأزهار
غير شوك القنادأ وشوك السيال^(٢) . ولا من الطير غير البوم والغراب .
أو الزخم والعقبان . ولا تجد فيها من الانس إلا لصاً سالباً .
أو مثلاً ناهباً . أو فاتكاً متأهباً . أو كامناً مترقباً .

(الباشا) — لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر . فأبد لهم
من الشوك الزهر . وأسكنهم هذه القصور العالية . بعد تلك
الاحلال للبالية

(الحامى) — أيها الأمير لا تنبسط المصرى على نعمته . وتعال
قابلك معنا من نعمته . فليس له في هذه الجنة من دار . يقر له فيها
من قرار . وكل ما تراه من هذا الجانب فهو ملك للجانب
(الباشا) — لله أبوك كيف يختص الاجنبى دون الوطنى بهذه
الجنان الناضرة . ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة . ولعلك
تلفت في قرارك وتحتاجى . وتعمى في تعبيرك وتداجى

(١) الطلح شجر عظيم يرعاها الابل والضال البندر البرى
(٢) القنادأ شجر صلب له شوك كالابر والسيال جمع سيالة نبات له شوك أبيض

(الحامى) لا تحجية ولا تمعية بل هكذا قدر المصري نفسه .
وتبدل سده بنحسه . واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف . ورضى
بالقسم الخسيس الضعيف . فبات محزوماً تحت ظل إهماله وخوله .
وفداً بالأسا في سبائه وذهوله . وما زال الاجنبى يسعى ويكد .
ويعمل ويجد . وينال ثم يطعم . ويسلب ثم يجمع . والمصرى يبذر
بجانبه ويسرف . ويبدد ويتلف . ويحترق ثم يلهو . ويمجز ثم يزهو .
ويقتدر . ثم يفتخر . وساداتنا وكبرائنا . وولاتنا وأمرائنا .
يعاونون الاجانب بسطوتهم فينا وسطوتهم . ويساعدونهم علينا
بأسهم وقوتهم . ويصطفونهم أنصاراً وأعواناً . لينيدوا بهم
المصريين ذلاً وهواناً . حتى اوقموا أيضاً بأسرهم . فى قبضة
أسرهم . فتساوى السيد والمسود . وتشابه الحاسد والحسود . وتعادل
الرفيع والمنيع . بالحقير والوضيع . واشتر كنا كلنا على السواء .
فى منازل الشدة والبلاء . وأصبح نصيب القوى المسكين . مثل
نصيب الضعيف المستكين . وكذلك تكون عاقبة من يلقي
للأجنبى يديه . ومن أحان ظالمًا سُلط عليه :
ومن يحمل الصرغام بازاً لصيده . نصيده الصرغام فيما تصيده .
قال عيسى بن هشام . وما كاد ينتهى رفيقائى من خطبائهما .

هو فرغان من سؤالها وجوابها . حتى مر بنا راكب دراجة تنساب
به كالصلال^(١) . في بطون الرمال . وتمايل بهاتمايل النشوان . مالت
به نشوة الحر . وينثني انثناء الاغصان . هزها نسيم الفجر . فامتلا
الباشا . تمجيبا واندهاشا . وسألنا الشرح والبيان . عن أمر هذا
« البهلوان » . فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس . على
المركبات والافراس . ومما يرغبهم فيها انها لا تأكل ولا تشرب .
ولا تهزل ولا تتعب . وهذا الراكب رجل من أهل القضاء .
يركبها لرياضة الاعضاء . فأتيته الباشا نظره فوجده قد سقط فجأة
من فوق دراجته فانفرط عقد الهيئة على سطح الارض الى ثلاثة
أقسام : الراكب والمجلة والطربوش . ثم رأيناه تماثل للقيام فلم
شعته وحاول أن يملو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها بيده يجرها
ويعامشها . وأخذ الباشا يخاطبني فيه وفيها :

(الباشا) - يا حيد الزعمدنا من حيث آتيننا . وكنا مطلقين لانا
ولا علينا . وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم اذا كان هذا منظره
وذلك مركبه أمام أعين العامة . وهل حكم الناس يوما بغير أهبة
الحجاب وعظمة المناظر ونخامة المواكب وقد كان الحاكم أو القاضى

(١) جمع صل وهو الحية

لا يركب في عصرنا الا في موكب تحف به الخشم والاهوان . وتقدمه الجنود والفرسان . فترتجف منه القلوب رعبا . وتخرقه الاغواق رهبا .
وقل من يجترئ من الناس على ارتكاب ما يقفه امامه يوما موقف
التهمة والارتياب

(عيسى بن هشام) - ذاك عصر مضي . وحكم انقضى . ولقد تفنن
أهل المصور الماضية في وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال
وهيئة العزة والوقار حتى أدخلها الشعراء في مخالضهم البديعة كقول
أبي الطيب في ممدوحه مثلاً :

جَمَّحَ الزَّمانُ فما لَدَيْدٌ خالِصٌ مما يَشُوبُ ولا سرورٌ كاملٌ
حتى أبو الفضل ابن عبد الله رُوِيَ يَتُّهُ المُنَى وهي المقامُ الهائلُ
(الحامى) - قد آذن أن نفرغ من هذا الحديث فقد اقتربنا من الحكمة
(عيسى بن هشام) - ولعلنا نجدها باذن الله في مكانها فقد تمودت

التنقل من مكان الى مكان حتى استبنت خيام العرب :
يوماً بجزوى ويوماً بالعقيق وبلا مديب يوماً ويوماً بالخليصاء
ثم اقتربنا فوجدناها واقفنا في ساحتها ننظر نوبتنا بين أرباب
القضايا حتى نودى علينا فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة فأخذ
الاجنبى منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية وحروف لم

تستوف مخارجها فقال : « ان هذا الرجل متهم بالتعدي على فلان العسكري بالضرب في أثناء تأدية وظيفته في يوم كذا من شهر كذا والتهم أنكر وشهد المجني عليه ودل الكشف الطبي على وجود علامات فيه للضرب والحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق على مادتي ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات فاستأنف المحكوم عليه »

ولما سألت المحامي عن هذا التلخيص الغريب قال لي هكذا تجري العادة هنا فيأخذ مثل هذا القاضي الاجنبي عبارة الديباجة المذكورة في الحكم الابتدائي فيجملها تلخيصاً للقضية ثم يكتبها بعريتها بحروف أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنته وصناعته ومحل اقامته وأشار الى النيابة بالكلام فشرع النائب في شرح القضية على ما يوافق هواه . ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له في كلامه كما يكون في المحاكم الابتدائية (والسر في ذلك ان بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية في الاستئناف هم في حاجة الى العلم بهامن أقوال النائب فيتركوه وشأنه في التطويل والاسهاب) ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامي مع الايجاز فابتدأ

المحامى يسرد أقواله فى أوجه الدفاع عن التهم وكلما وصل الى النقطة المهمة فى دفاعه قال له الرئيس : « الموضوع » : « طلباتك » . ولما تكرر منه وقوع ذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس على ان كلام المحامى فى عين « الموضوع » (وللرئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة) ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : « سُمعت القضية والحكم بعد المداولة » فانتقلت الجلسة الى حجرة المداولة وخرجنا ننتظر وسألت المحامى عن المدة التى تنقضى فى المداولة فأجابنى :

(المحامى) - لا تزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة

(عيسى بن هشام) - وما هو متوسط عدد القضايا فى الجلسة

(المحامى) - متوسطها عشر قضايا

(عيسى بن هشام) - وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ما تحويه

القضايا الجنائية من كثرة الاوراق

(المحامى) - نعم تكفى عندما لسل القضايا ولو كان الاطلاع

على القضية الواحدة التى يحكم فيها بالاعدام أو بالاشغال الشاقة

المؤبدة يستغرق ساعتين أو ثلاثاً . وطالما اطلعنا على القضايا التى

تعود من عند القاضي «المخلص» الى قلم الكتاب لاطلاع المحامين

فتجده عليها ومزاً بأحده هذه الاحرف : «ب» ، «ع» ، «ت» . فالباء
 اشارة الى البراءة والعين اشارة الى العقوبة والتاء اشارة الى تأييد
 الحكم الابتدائي . وانما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه في
 القضية عند عرضه على زملائه في المداولة فاذا عرضه عليهم لم يضع
 الوقت بينهم سدى في البحث والمناقشة . ولكن لما كان القاضى الجنائى
 له الاستقلال المطلق في الحكم بما يرتاح اليه ضميره وتعلمثن به نفسه
 كان من الواجب عليه ان يسلك غير هذا الطريق ويفحص أدلة
 الثبوت وأدلة البراءة بنفسه فيعرضها على ضميره وهو خال من كل
 اعتقاد خاص للبراءة أو للتهمة حتى اذا استقامت لديه الادلة حكم
 بما يوجب عليه منها لا أنه يحرى في طريق التسليم لرأى غيره ولا أن
 يكون الحكم مبتوتاً في القضية بأحد هذه الاحرف الثلاثة التي
 عنت للقاضى الملخص وهو يمر عليها في انفراده ييمته مر السحاب
 قال عيسى بن هشام - وبيننا نحن في هذا الكلام اذ عادت
 الجلسة الى انعقادها فدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة
 الباشا لعدم ثبوت التهمة عليه لانه قد حالت دونه ودون دعوة
 القانون قوة قاهرة . فخرجنا مسرورين بهذه النعمة وخرج الباشا
 وهو يقول :

(الباشا) - لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولكنه بطيء .
لا يتحمل أعباء بطئه البرى . . وكان الأولى في هذه المحاكمات أن
تكون النهاية في البداية فلا يحق من كان مثلى هذا المحران والصغار
ويقع به ما وقع من الحبس والعار بعد أن يقف موقف الهممة والإجرام .
ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام

(الحامى) - انى أهنتك بهذه البراءة وأسأل لك دوام العافية من
مصائب الاتهام ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من
قوسه والسيوف من غمدته . وقد مضى منى الدفاع وبقي عليك الدفع .
قال عيسى بن هشام - وما زال الحامى ما كفاً علينا يطالبنا بالاجرة .
والباشا بعده لآخر الشهر . حتى يأتية بمض خدمه وأتباعه . بمال
من عقاره وضياعه . والحامى يأبى التسوية والامهال . والا
الدفع فى الحال :

(الحامى للباشا) - أظن ان هذه الوعود . تقوم لدينا مقام النقود .
فى بلد كثر فيه الاتفاق وزادت الضرورات . وقل فيه الرخ كما
قلت المروءات . وصار الدرهم أعز عند الاب من بنيه . وعند الابن
من أبيه . ولقد تمبت فى القضية تعيين باللسان وبالجنان . ولا أستريح
منهما الا بتقد الاصفر الزنان . وانك لا تصرفنى - وان كنت محمود

أخلق - بالوعد . واكتك نصرفني - وأنا نأحمد - بالنقد . واني لأريد
أن أسكن في بيت المتنبى :

أنا الغنى وأموالى المواعيد

فلا تحمل الخلاص من قضية بقضية . والفكاك من بلية بلية .
فذلك مالا يأتيه العلاء . ولا يرضيه الامراء

قال عيسى بن هشام - ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلطف . من
شدة الجنى والتغيظ . وقفت بينهما وقفة الارب . وتوسطت توسط
الليث . فقلت بلطف الالتماس والرجاء : رضاء المحامي بالمهلة والارجاء .
الى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر . الى الغنى واليسر . وقلت
له ما يقال في باب الزروة والهمة . من وجوب الخنوع على من يقع
في مصيبة أو ملة . وأن من تذكر الدهر وغيره . والزمان
وغيره . لانت عريكته . وظاوعت شكيمته . وايس بين صعود
المرء وتزوله . وإشراق سعادته وأفوله . وبين غناه وفقره . وصفوه
وكدره . الامسافة انقضاخ القضاء . من رب السماء . فنظر الى
الباشا نظرة الاحتقار والازدراء . وخاطبني بالانقة والكبرياء :
(الباشا) - لبئس الخدين أنت والقرين . كيف تسميني بسمة الفقراء .
وتستعطف على قلوب الضمفاء . وأنا الأمير السرى . والغنى

المترى . وأين ما ادخرته في صمري . واكتنزته في عصري . من مال
وعقار . وفضة ونضار . وقصور وضياع وزخرف ومتاع . ولقد كان
يضرب بنى اللؤلؤ . فان كنت جاهلاً بي فسَلْ . اذهب فأتني
بخبز . اخلقت وأبقيت . وأثر ما جمعت واقتنيت . وكيف يخفى عليك
وعلى المحامي مالى من الاموال والعقار . وما قضيت فيه العمر من
الجمع والادخار . فاني يشهد الله ما ركب حيلة . ولا أغفلت وسيلة .
في الحصول على الاثراء والغنى . حتى جمعت منه كثيراً مما تفرَّقَ
على الورى . فجعلته عُدَّةً لشدأ زرى . وأماناً لى من مصائب دهرى .
وتركت ذخيرته لآ بنائى وحفدى . وميراثاً لآ عقابى وذرى . ليكونوا
من ذل الحاجة فى جنة . ومن نعيم العيش فى جنة . وتركتهم على
ذلك . مطمئن القلب مستريح الفؤاد . رفيع الذكرى رفيع العباد

(المحامى) - إنا لنعلم يا معشر الامراء والحكام انكم قضيتم
الاعمار فى جمع الحطام واتخذتم الحكم والسلاطان تجارة من التجارات
وبضاعة من البضاعات تربحون منها الغنى والثروة ولم تكونوا تعلمون
للحكم من مزية سوى اكتناز الاموال واستلاب الحقوق واقتزاز
الدراهم من دماء الارامل والايامى واقتزاع الاقوات من أفواه
الاطفال واليتامى . وكنتم سواء عليكم أحزنتم المال من حله أم غنمتم

حله لم تبالوا بالضعيف المسكين ولم ترثوا للعاجز المستكين بل
 ظلمتم البرى وبراً أتم الظالم فجعلتم لديكم من أثر ذلك ما فرقة
 الله على عباده من رزق وما قسمه لهم من قوت ورضيتم بالوزر
 وطوقتم اعتناقكم بالإصرح حرمتهم بعد ذلك على أنفسكم التمتع
 بما جمعتموه وحرمتوها من كل ما حزنوه ولم تكونوا من الذين
 في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ولم تؤدوا ما فرضه الله
 عليكم فيها من الحقوق ولم تطهروها بزكاة ولم تركوها بإحسان
 وأطربكم دين الدرهم فوق الدرهم وصمت الدينار مع الدينار
 وأبدعتم ما شئتم في وسائل وطرائق يأبأها الله لعباده ويعقها
 ويستبشعها الانسان ويستفظمها لسلب ما سلبتموه وكنز ما
 كنزتموه بالاثم والعدوان ومعصية الرسول واجترأتم على الله في
 أوامره ونواهيه وكلفتم العلماء بتأويلها على أهوائكم فأولوها
 لكم لانحصار الارزاق في أيديكم واحتياجهم الى ما يقتانون
 به من فضلات عيشكم فالوزر عليكم وعليهم ولكنه عليكم
 أعظم وفوقكم أثقل . حتى اذا انقضى العروحل الأجل تركتم
 ما خلقتموه لغاية من أولادكم وصبايا من جواريتكم نشأوا بينكم على
 الحرمان ولم تشفقوهم بالتعليم ولم تتركوهم لازم يؤد بهم

وللأيام والليالي تهذبهم فكنتم في اعينهم كالرصده الذي يكون
على باب الكنز - كما يقال في الاقاصيص - يحتالون لنقله بقتله فاذا
استراحوا منكم بالموت أو القتل مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم
وفرقوا شملها في أدنى من لحظة جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب
التمتع فما هو الا أن يتسابق الدود والورثة في احشائكم المدفونة.
وأحشائكم المخزونة . فيسبق الورثة الدود . في الصدور والورود.
فتذهب البدره وراء البدره والضيعة بعد الضيعة والدار عقب الدار
حتى اذا لم يبق الا بيت السكن أتوا على ما فيه من الاثاث يعمأوا في
أعناق الجوارى من الجواهر والقلائد رهنًا ولا يزالون يُخلُون من
البيت حجرة إثر حجرة والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة
الى أن يندك بناؤه ويمفوا أثره ويذول اسم بانيه الذي ارتكب ما
ارتكب من الذنوب لتشبيده ودوام بقائه وهو يشيع منهم بالعتين
في الحالتين حالة الاخلاص منه بالتشيع الى القبر وحالة أسفهم على
إحماله أيام من تثقيف العلم بما كان ينفعهم في خشوة الفقر
هذه أيها الامراء عاقبة ما صارت اليه أموالكم ومقتنياتكم
من بعدكم وياليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم في
جمعها من دماء المصريين باتفاقها بينهم وتبذيرها فيهم فيكون ذلك

منهم كرت بعض الحق الى أهله ولكن البلاء كل البلاء انها ذهبت جميعها
الى أيدي الاجانب والغرباء . وكان الدهر سلط المماليك على المصريين
ينهبون أموالهم ويسلبون افواتهم ثم سلط عليهم لسلب ما جمعه
ثم سلط عليهم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للاجانب يتمتعون به على
أعين المصريين والمصريون أولى بالقليل منه . وما دفع بأعقابكم الى
هذا الليان والتسليم الا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الاجنب
والاحتقار لجانب المصري وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أربابا
للمصريين حتى شاركتهم معكم الاجنبي في تلك الربوية فغلبكم عليها
واشرككم مع المصريين في العبودية وتشابهت الموالي بالعبيد . وقد
آن ان تلم ايها الامير بان جميع أقرانك وإخوانك من ذوي الثروة
واليسار في أيامكم قد أصبحت يوتئهم خاوية على عروشها وأبصار
أعقابهم شاخصة اليها فان أردت ان تبحث عن أموالك وضياعك
اليوم فابحث عنها تحت فقال ^(١) تلك الرحى وقدل معي ما يقوله
الشاعر الحكيم :

يقول الفنى ثمرت مالي ولانما لو ارنه مائت المالك كاسبه
يحاسب فيه نفسه في حياته ويتركه نهبا لمن لا يحاسبه

فيا هـ المذبح الجاهل . وياغبى المكتنز الطامع . ما كان أغناكم عن
الجمع والادخار . وعن الحرمان فى الدنيا والخلود فى النار .
(الباشا) - أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدك فى اللوم
والتعنيف وخرجت عن طورك فى العذل والتعزير وكان بودى أن
أعظيك أجرك . مضاعفاً ولا أشاهد منك هذه الجرأة علينا بسوء
التقريع والتوبيخ . وربما قلت حقاً فى بعض ما تقول والرجاء فى غفران
الله العظيم وفى رحمة متمسك ولعل ما تخلل أعمالنا فى أيامنا من الحسنات
يشفع لنا فى ما أقرناه من السيئات . ولكن كيف التدبير الآن
فى اكتساب المميشة والاحتياى لالتماس الرزق بعد أن ضاعت
الاموال وذهبت من أيدينا الاحكام على نحو ما تروى وتحكى . وما
أرى اضيق من الفرج الا أن أورد نفسى حتفها وأعيد لها حامها فما
أروح . ما كنت فيه من ظلام الرمس . وما أقبح ضياء هذه الشمس
(عيسى بن هشام) - ليس لمثل حالتكم فير الاسف . وما اتوجه
للم فقد تمكن الاعتقاد فى رؤوس الحكام أن ما يقع بالاتفاق لهم
أحياناً من ولاية الاحكام هو قياس مطرد وصراط مستقيم
لاما جالكم سواه فى وجوه المساعى وممارسة مطالب الحياة . وقامت
الولاية عندهم مقام بقية الآلات والصناعات التى يجتري أهلها منها ثمر

الارتزاق والتكسب فاذا خلت أيديكم منها واعتزلتم الاحكام تقطعت
بكم الاسباب وضافت بكم السبل في وجوه المعاش كما تصاب يد
الصانع بالشلل فيتعطل عن العمل ويصبح كلاً على كاهل الجميع يرجو
الموت كارجوت ويتمني راحة العدم كاتميت . وكأنكم أيها الحكماء
صنف فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر
الخلق فلا تكونون الا فوق ذهب المرش . أو فوق خشب النمش .
وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه وهو في ضيق الحبس .
وضيق النفس :

ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
ومعلوم لك ما في هذه الصناعة صناعة الولاية والحكم من قلة
ما يرفعه الصدر وكثرة ما يرضه القبر . وكان الأولى بكم ان تكونوا
كالناس في معاشهم لكل انسان آلة يدن من صناعة أو حرفة أو مهنة
يُحسن بها العيش والارتزاق حتى اذا أنتم نزلتم عن تلك العروش
دخلتم في بقية الأحياء من افراد الجمعية تنفعون وتنفعون

(الباشا) — تألم ان ما قاسيته من الاسلام أمام البرليس والنيابة
والمحكمتين واللجنة كان أفلّهما وأدنى شجناً من مرارة هذا النصع
والوعظ . وما رأى عندكم وقد فات وقت التحصيل والطلب ولم

يبقى وقت للصناعة والعمل . والموعظة صالحة نافعة ولكنها لمن
يجي لا لمن يعصى

قال عيسى بن هشام - فأحزننى حالة الرجل وأشفقت عليه فأخذت
أندبر له واتفكر فى طريقة يتميش بها وكما خطر لى فى ذلك خاطر خاب
رجائى فيه حتى كدت أياس من الحيلة والباشا ينظر الى وأنا فى تفكرى
تارة ويطرق للتفكير فى نفسه تارة أخرى . ثم رأيت قد انتقض
من مكانه وأخذ ييدى يقول لى :

(الباشا) - قد وجدت والحمد لله باباً لسدّ الغوز وكفاف العيش

(عيسى بن هشام) - ماذا وجدت

(الباشا) - كان من عادة الحكام امثالنا فى الأزمان السالفة أن

يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التى تقرّ بهم من الله وتعتق رقابهم من
النار بعمل صالح اتفقوا عليه كافة وهو إقامة بناء لجامع أو كتاب
أو «سبيل» وكانوا يخصصون له أرضاً أو ضيعة وفقاً عليه للاتفاق
من دبرها على طول الزمان وقد سلكت مسلكهم واتبعت سنتهم
وخلفت لذلك وفقاً عظيماً لاتناله أيدي الاعداب بالإتلاف والتبذير
فهل معي نبحث على ما شيدته ووقفته

﴿ الوقف ﴾

قال عيسى بن هشام - وظلمت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف للوقوف على تلك الاوقاف ونسائل العابر وابن السبيل عن المسجد والسبيل: ولا سؤال المجذب عن الروض. والظمان عن الحوض. فلم نجد من يرشد. إلى ما ننشد. وأخذ الباشا يتذكر الطرق وأماكنها. والأزقة ومساكنها. ويقول كان هنا وكان هنا. وجل ما يقضي به إلحنا. وما زال يماصر في خطواته. ويطاول من آهاته ويبيكي لرسوم الأطلال والديار. بكاء صاحب عزة أو صاحب نوار^(١) فأسألنها واجعل بكاء جواباً تجد الدمع سائلاً ومُجيباً حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب. وترداد الجيء والذهاب. إلى منطف مضيق. في منتهى الطريق. فوقف الباشا هناك قبالة دور مهذمة. وجدران محطمة. ومسجد في فجوة منه حانوت خمار. وفي زاوية منه دكان دطار. وبجانبيهما حوانيت متباينة الاوصاف. مختلفة الاصناف. فطفق الباشا يصعد نظره فيها ويصوبه. ويخطي محدسه تارة ويصوبه. فهداه طول النظر والتدقيق. وشدة الامعان والتحقيق. أن رأى شيخاً قانياً متربماً في دكانه. متحيزاً

(١) نوار هي أسماء الفرزدق التي كان يتعجب بها

بمكانه . عليه علامات الانحلال والسقوط . وشارات الخذلان
والقنوط . وسِما الرضاء بالمقسوم . والتسليم للقضاء المحتوم . له
جبهة كأنها من ورق البُرْدَى العتيق . تنلو فيها ما دونه الدهر من
آيات الشدة والضيق . نخرج الباشا في الحال من حال التحير المتردد .
الى حال الواثق المتأكد . فننادى صاحب الدكان عن بُعد . نداء
السيد للعبد . فانتفض الرجل انتفاضا عجيبا . وقصده مليكا ومحيبا .
فما شككت من هيبة النداء ، وأدب التلبية . إلا أن ملكا ينادي احد
الحاشية . ووقف الرجل أمامنا وقفة الممثل الخاضع . والمطيع الخاشع .
فقال له الباشا بعد ان حدد فيه نظره . واستجمع فكره :

(الباشا) - أأنت أحمد أغا الر كبدار المعدود من أهل حاشيتي .

ألا تعرفني من أنا

(صاحب الحانوت) - لولا أن اللوت حجاب كثيف وحجاز
منيع بين ظهر الارض وبطنها لقلت انك سيدى وأميرى ويشهد
الله انني كلما أعمنت في وجهك وسمعت لصوتك كاد يطير عقلى
ويندهش لى لاستحكام الشبه بينك وبين سيدى المرحوم

(الباشا) - انى انا سيدك وهذه هى العلامة التى تعلمها فى جسمى .
من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك فى يوم من ايام السبق والرهان

وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة فوق الرجل منكبا على الأرض من شدة الدهشة يقبل قدم الباشا وينسأ لها بمنحدر الدموع ويقول في بكائه وشقيقته :

(صاحب الخانوت) - كيف بالحياة بعد الممات. لحق أنت إحدى المهجرات . وليس ما أراه بُغريب فقد شاهدت في هذا العمر الموجز ما لا تحيط بوصفه الاقلام ولا تتسع له بطون لدقائق من عجائب الانتقال وغرائب الانقلاب فلا يبعد بعد ذلك ان تشرق الشمس من مغربها وتُخْرِجُ الْأَرْضُ أَمْوَاتَهَا من مقابرها

قال عيسى بن هشام - فقلت للرجل لا تكثر من الدهشة والخيرة . ولا تقرب في الاستغراب والتعجب :

على أنها الأيام قد صرّنا كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب واعلم أن القدرة لا تمجز عن شيء في الوجود ولا تحيط بها العقول . ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية فصاح الرجل يبكي ويتضرع ويقول ليت أمي لم تلدني وليت القدرة التي بعثت الأمير من بعد موته نشرت معه زمنه وأعادت عصره وإلا فكيف نله بالعيش في هذا الزمن . وما أولاه بالدودة الى أدراج الكفن . ثم التفت الى الباشا وشرع يقص عليه ما صرّ به من الحوادث

والكوارث وما جرى لبيت الباشا ولا أهل طبقة من النوازل
والخطوب :

(صاحب الخانوت) - ولم يبق لك أيها المولى من أثر يذكر في
ثروتك ومتاعك . وأموالك وضياعك . وقد عشتُ دهرًا وأنا
مستمتع بربع ما وقفتهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك وعلى هذا
المسجد والسبيل والكتاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك فالبث
الوقف أن تهتم وتخرّب بطول الترك والإهمال فوقعنا كلنا في الفاقة
والاحتياج وانقلب الكتاب غزناو السبيل خماره والمسجد مصبغة
كما تشاهد وترى وأصبحت أنا ييطارًا بعد أن كنت «ركبدارًا»
وأخذت هذه الخانوت من الوقف لممارسة صناعاتي فيها والتعيش
منها وسبحان مقاب الأحوال ومبدل الاشكال

(الباشا) - ألم يبق من ذِريتي أحد يباشر هذا الوقف بنظره
(البيطار) - آخر العهد عندي كان بواحد منهم ذهبت إليه
لأجل هذه الخانوت وأعلمتهُ بمكاني من أهل الحاشية فاتهرنى
وطردنى وأبعدنى وزجرنى ولكن الحاجة دفعتنى إلى الإلحاح
فترددت عليه مرارًا فتخلص من ثقل إلحاحى بأحاطى على رجل
أفرنجى عنده يدبر له ما بقي لديه من ثروة نصبتُ عنها ونزحتُ

بئرها فأحالى الافرنجى على صاحب الجارة لأنه أصبح صاحبه
الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها وليس يحسر أحد أن يعمل
فيها شيئاً بغير ارادته خوفاً من الخصومة فى المحاكم : فقصدت
الحجار واتفقت معه على أجرة معينة وأتت فى هذه الحانوت أصرع
الدهر ويصرعنى وأطلب القوت ويعوزنى وأتمجل الأجل ويعملنى
وتعالى الله المتفرد بعزته المبدع فى حكمته

(الباشا) - وأين هذا الولد المايق المخالف لأرادتى وهو يعلم أن

شرط الواقف كنعن الشارع

(البيطار) - هو مقيم الآن فى «الاولتيل»

(الباشا) - وما الاولتيل

(البيطار) - «اللوكاندة»

(الباشا) - وما اللوكاندة

(عيسى بن هشام) - «الاولتيل» هو بيت معروف يعدونه

لنزول من لا بيت له من الغريباء على أجر معين وهو فى المعنى
كالخان الذى تعرفونه فى زمانكم

(الباشا) - هل وصل التبدنى بهذا الخائن إلى سكنى الخان

وسبحان مصرف الاجوال ومغير الازمان. وكيف يطيب للمسكين

عبدش على هذه الحال . بعد عز النعمة ووفرة المال . أفكان رجوعي
إلى الحياة على مالا أرغبه ولا أرضاه . تعذيباً لى على ما فرطت في
جنب الله . أولم يكن عنده سبحانه في الآخرة من عذاب النار .
ما يغني عن التعذيب بالعار . في هذه الدار . رب إن الجحيم لا هوّن
على في العذاب والنكال . مما ألقى من الرزية في المال والعيال :
فليت وليداً مات ساعة وضعه . ولم يرتضع من أمه النفساء
(عيسى بن هشام) - ليست السكنى في «الاو تيل» اليوم
عن ذل وفقر . بل هي عن عز ويسر . فان النفقة فيه عن بضعة
أيام تكفي لنفقة شهر . على أكبر قصر . بجواريد وخدمه .
وأتباعه وحشمه . وقد دما أولادكم الى ذلك ولوعهم بالحكام
التقاييد للجانب وإتقان الاقتداء بهم والسميد المنعم من أولاد
الأمراء اليوم من يبيع عقاره ويرهن ضياعه ليتيسر له الإقامة
في هذا الخان ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله فيؤتى له بالطعام
من «الاو تيل» الى البيت وعند الطباخ في أسفله والجواري
الطاهيات في أعلاه

(الباشا للبيطار) - أرجوك أن تصف لصاحبي مكان «الاو تيل»
الذى يسكنه ذلك الغلام فان بي حاجة الى لقائه

(البيطار) - كيف تخاطبني أيها الأمير بلفظ الرجاء وأنا أنتظر في خدمتك ان تأمرني بما تشاء وهل تظن أني أقارق زكائك أو أزايل مَعِينِكَ مِمَّا تَقْلِبُتِ الْأَحْوَالُ وتبدلت الأزمان فلم منك الأمر والاشارة وعلى السمع والطاعة

✽ أبناء الكبراء ✽

قال عيسى بن هشام - ودعاني الباشا للسير معه . وهو يكفكف أدمعه . وتبعنا البيطار من خلفنا بخطاه الثقيلة . وعماء الصقيلة . فقد صقلها طول التوكأ والاستعمال . وتمزى بها في السير والانتقال . عن ظهور الخيل ومتون البغال . إلى أن وقفنا عند أحد القصور الكبيرة . من الفنادق الشهيرة . فقال الباشا مارآه من ضخامة البناء . وغمامة المنظر والرواء . وما لقيه من ادب الخدم والاعوان . ورشاقة الوُصفاء والغلمان . فتخيل أننا أخطأنا الابواب والمداخل . فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء أو القناصل . وتقدمت للسؤال والاستخبار . وقد خلفنا البيطار في الانتظار . فدلنا أحد الخدم عن رُقم المِكان الذي يسكنه الأمير . بعد طول التردد والتفكير . فواصلنا حتى دفع الباشا يديه دَفْعِي الباب . لم تلتفت لطلب إذن ولا لرجع جواب . فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الأمراء . وأعقاب الكبراء . مختلفين

في الجلوس . حاسرين عن الرؤوس . ففريق منهم ما كفون على
 لعب القمار . وفريق ينظرون في صور خيل المضمار . ومنهم جماعة قد
 استداروا بامرأة نصف لاعجوز شوهاه^(١) . ولافتاة حسناء . تجتلب
 الحسن بافراط التأنق والتفنن . في وجوه التمنع والتزين . فيكاد
 يضيء وجهها بسنن العقود والقلائد . ويتلألأ جبينها بلألء الجواهر
 والفرائد . وفي وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح . في الأباريق
 والاقداح . وبجانبيها منضدة^(٢) . عليها آنية منضدة . وفوقها الدواة
 والقرطاس . ويراعة مرصعة بالماس . وكتب أعجمية موشاة بالذهب .
 لا أدري إن كانت في اللهاؤم في الأدب . وعلى الأرض أوراق أحكام
 منشورة . وجرائد تحت الأقدام منشورة . لم يفكض عنها ظرف .
 ولم يقرأ منها حرف . وسمعان يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية . دون
 اللغة التركية أو العربية . إلا ما كان من أسماء الخيول العربية . بعد
 أن يبدلوا القاف . بالكاف . وينطقوا بالحاء . كالحاء . ولما رأوا
 ظهر منهم العبوس والقطوب . وبدأ عليهم انقباض الصدور والقلوب .
 وانبرى من جانب المرأة شاب فأسرع نحو الباب . تخاطبنا بعبارة

(١) النصف المرأة الوسط بين الحديثة والمسننة
 (٢) المنضدة شيء له أربع قوائم يوضع فوقه مناع البيت

فرنسوية . ولشقة باريسية :

(الشاب) - كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن

(عيسى بن هشام) - دعا الى ذلك شوق الوالد الى رؤية ذريته

(الشاب) - است أفهم لك كلاماً فصرح لي وبين

(عيسى بن هشام) - فلان يسأل عن فلان

(الشاب) - إني أنا فلان ولكن من فلان الذي يسأل عني

(عيسى بن هشام) - هو جدك الاكبر أحياء الله بعد مائة

سبعين من رقادهم وكان من أمره اني كنت أزور المقابر ذات يوم

من الايام

(الشاب) مقاطعاً مستهزئاً اذهب عني فلست أسمع لهذا الكذب

والخرف وليس لي اليوم من جد ولا والد ولا أنا من يصدق بحديث

البعث في الآخرة فكيف برجوع الموتى الى الدنيا . تماثلوا أيها الاخوان

فأعجبوا معي واضحكوا مما أسمع من هذا الرجل الذي يخاطبني

وأنظروا الى هذا «الباشبوزق» الغليظ الذي يجانبه فهو يدعي انه

من آباءي وأجدادي بعثه الله لي طالبني فيما أظن بما ورثته من الاموال

وينازعني في نظارة الاوقاف . فهل سمعتم بأعجب مما أصبحنا فيه اليوم

لم يكتفِ الدهرُ بتكدير عيشنا وتعكير حياتنا بمطالبة أرباب الديون

حتى بعث الاموات من قبورهم ليطالبونا بموارثهم وأموالهم ألا
ترونها أيها الخلان انها أبعد نكته في أواخر القرن
قال عيسى بن هشام - فاستغرق الجميع عند ذلك في الضحك واستلقوا
من القهقهة وكلما سألتى الباشاعن مكان حفيده واستفهم منى عما يجري
معى من الكلام استتمهاته لتمام الحديث حتى لا يقف على شيء مما
يقال ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال . ولما انتهى الشبان من
ضحكهم نادوا بالخدام ليأمرؤهُ بطردنا وإخراجنا . وجأت في هذه
اللائة التفاتة من الحفيد بين دوراته وجركاته فلمح احد قرنااته
واخوانه قد انزوى بتلك الخلية . التى هي عندهم كالخلية . يلاعبها
وتلاعبه . ويعازلها وتداعبه . فانقض عليهما كالصقرا لأجل فاستمر
بينهم الجدال واشتد الخصام والتف حولهم الجمع وسمعت الحفيد
يمتد والصاحب يعتذر والمرأة تبتكت وتؤزب وتقول لعاشقها :
« ليس لك مثل هذه الجزاة فى العتاب والملام ولا يأتى ما نأتيه من
الحدة والتهور فى الغيرة إلا من كان قائما بما جئى محببا لرغبى وقد
طلبت منك بالامس ان تشتري لى ذلك العقد الذى حضر لتاجر
الحلى من اوربا فى البريد الاخير فسوفت وما طلت بعد ان اجبت
ووعدت واعتذرت بالاعسار والضيق ثم بلغنى اليوم انك اشتريت

قرمًا جوادًا بمقدار عظيم من المال فكيف تقصّر في حاجتي مثل هذا
التقصير وتبني منى الاقتصاد عليك والاختصاص بك دون بقية
من يبذل ماله وروحه في سبيل مرضاتي من أصحابك وأخوانك،
ثم سمعتُ الحفيد يجاوبها والعرق يتساقط من جبينه والوجد
يقطع أنفاسه : « تالله ما اشتريت شيئًا ولكن بمتّ أشياء
لا أشتري لك البعْذ بشئها ولا يفرّك ما يقال لك عن ثروة هذا
الصاحب الذي الخائن وعن قلة أمواله ودهن أطياقي فأنت تعلمين
بمقدار الأموال التي ستأتي من اكتساب القضايا المتعلقة لي في
الحاكم كما ينبغيك به المحامي في كل حين »

وما سمع ذلك الصاحبُ سبه بهذين النعتين حتى اضطرب
واضطرب . وثارت به سورة الغضب . فتقدّم فلَعَنَهُ وشَتَمَهُ . ودفعه
ولطمه . فوعده الملعون الملطوم . بالمبارزة في يوم معلوم

ثم علا هناك صياحٌ أيضًا في مجلس القمار بين صديق وصديق .
أحدُهما في يُسر والآخر في ضيق : وأخبر بغير الاقتراض من أخيه :
ومفلسٍ يطالب ميسرًا بدين لا يؤدّيه . وانكشف الجدال كذلك
عن الضرب والالام . وانهى النزاع بالصقع واللعن

واشتبك خصام آخر في ركن المكان : بين أهل السبق والرهان .

هذا يقول فرسي سابق . وفرسك لاحق . وذلك يقول «ركب داري»
حاذق وابن حاذق . وجوادك قصير وجوادى شاق . وأنت الآن
مقرع معترف . بأن الوزن بينهما مختلف . واشتدت المنافسة والمنازعة .
وجرى بينهم حديث المبارزة . كل هذا والمرأة تتسحب من حلقة
الى أخرى . تسحب الحية والأفعى . فتطفي نار الجدال مرة على
حسب بغيتها . وتشعلها طوراً لخبث نيتها

ورأيت الأجدد بنا أن تركهم على هذه الحال فجذبت بضبع
الباشا وخرجنا من ذلك المكان وأسرعت به منحدرأ الى الطريق
فسألني عن تفصيل ما كان وجرى فترجمت له شرح الحال والآل
فاحتدم غيظه واضطرم خنقه فلم يطفئه الا ما قلته له في آخر
الحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح فقال وهو
يتابع زفرائه : لعل القدرة تكشف عنى هذا المصاب . وتربحني
المبارزة من الأبناء والأعقاب . فقلت في نفسي ان أبناءكم لم يروا
منكم اخلاقكم . كما ورثوا عنكم أموالكم . وليس عندهم من الشهامة
ما يدفعون به عن الأغراض والاختساب . ولا من الشجاعة
ما يؤنسهم البطان والضراب . ولا يأتون لكشف العار . وأخذ
النار . والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل وتمضى بالنهار

وتذكر الباشا في طريقه شدة حاجته الى وفاء ماعليه من الاجر للمحامي فالتفت الى البيطار يسأله :

(الباشا) - هل بقي أحد من كانوا حولي من الخُلطاء والأقران أهل النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والمروءة

(البيطار) - لم يبقَ منهم إلا فلان وفلان وفلان

(الباشا) - إبدأ بالذهاب معنا الى بيت الأول منهم .

قال عيسى بن هشام - فسرنا الى حيث أشاروا وهمومُ تفرسنا .
والغوم تخرسنا . والاكدار لا تفارقنا . والاقدار لا توافقنا



﴿ كبراء العصر الماضي ﴾

قال عيسى بن هشام - ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناه الباشا ورفقائه . وبقيّة أخلائه واصدقائه . فأنتهى بنا طول المسير . الى بيت ذلك الأمير . وكأنه ميدان في اتساعه . وحصن في ارتفاعه . ووقف بنا البيطار . عند باب الدار . فسلم على الخدم وحياتهم . ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم . فأجابوه بالتجهم والمبوس . انه في قاعة الجلوس . فخطونا في مجبوحة الميدان . فرأينا في وسطه شجرة كثيفة الاغصان خني قوامها تقادم الازمان كأنها الشكلى حلت شعورها

في ماتم الاحزان. وفي ظلهما فرس يحن من النشاط والراح وبجانبه
كباش صنانٍ للنطاح . وحولهما ديكَةٌ نزالٍ وضراب . ظننا يدُها
مسنونة كالخراب :

فَحَمْرُ سَوْدٌ حَالِكَاتُ كَانْهَا سَوَامُ بَنِي السَّيِّدِ اَزْدَهْتُهُ الْقَوَائِمُ ^(١)
يُرْزَانُ لِدِيهَا الطَّمَنُ فِي حَوْمَةِ الْوَنَمَى إِذَا زَيْتُ لَهَا جَزِينُ الْهَزَامِ
وَفِيهَا إِذَا مَاضِيَ الْعَكْسُ غَيْرُهُ نَصَانُ بِهَا الْمُسْتَصْحَبَاتُ الْكِرَامُ ^(٢)
ثم وصلنا الى قاعة مشيدة البنيان . فسيحة الاركان . في أحد
جوانبها سلسبيل . يسيل ماؤه من أفواه التماثيل . والارض مفروشة
بالبسطة الفارسية . وبجلود الضواري الوحشية . والحيطان مستورة
بأنواع السلاح . من خناجر وسبوف ورماح . وفوقها عدة صفوف .
من الرفوف . تحمل الطرائف الكريمة . والأواني الصينية القديمة .
مع عيدان للتدخين . من اغصان الياسمين . فخلعنا نعالنا . وتقدمنا
أمامنا . فوجدنا الامير ومن معه جلوسا متربعين . منصتين مستمعين .
يُضِيءُ في وجوههم نور الشيب والوقار . وتردهم هيئة العزة
والاستكبار . فانقطع الحديث عند دخولنا . برد سلامنا . ولكن

(١) الدوام الابل الراعية وبنو السيد قبيلة نكثر فيها الابل السود والحمر

(٢) العكس الرجل الضعيف الدنى

مالبت أن اتصل ما انقطع من الكلام . بعد رجوع التحية ورد السلام .
ولما استقر بنا المكان همست في أذن البيطار أن ينبئني بأسماء
الحاضرين فقال لي : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان زب الدار
وهو رفيق مولانا الباشا في البيت الكريم الخديوي وقد اعتزل
الأعمال واعتكف في آخر عمره يتعبد ويتمجد ويسلك طريق
النسك والزهد ويتقرب إلى الله بدوام القيام والقعود . وطول القنوت
والسجود . وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قعدة المشايخ
وقوائم أهل الطريقة وطوائف الآفاق من سكان الأماكن المقدسة
رجاء أن يغفر الله له ما تقدم من الذنوب وأن يُلجِّقه بالصالحين من
أولياءه . وأما الذي عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الأعضاء
الكرام في مجلس الأحكام . والذي عن جانبه عالم من جلة العلماء
الاعلام والمشايخ العظام . وأما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق
الجهادي المشهور في الوقائع والفتوح . والذي بعده هو فلان من
كبار المديرين السابقين . وأما الذي تراه في أخريات المجالس فهو
فلان التاجر من تجار خان الخليلي

قال عيسى بن هشام — ولما وقفت من البيطار على معرفة
ما عرفنيهِ نظرت إلى الباشا فأدركت أنه لا ينبغي المبادرة إلى

كشفت أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم فأصبحت مع المنصتين
 فاذا الفريق الجهادي يقول في اتصال حكاية وروايته :

(الفريق) - وكان « جنتي مكان » محمد علي باشا الكبير معجزة
 دهره وآية عصره في الدماء وعلو الهمة وبعْد النظر وإحكام عقدة
 التدبير واجتذاب القلوب وتربية النفوس على الوفاء والامانة لخدمته
 فكان له من الكفاة مَنْ خدموه بالصديق وافسدوه بالارواح
 وأذكرُ منهم المرحوم « محمد بك لاظ أوغلي » فهو الذي دبر له
 قطع دابر المماليك في ساعة واحدة . وقد حكى لي المرحوم أخى وكان
 حاضراً في تلك الواقعة الهائلة أن المماليك لما رأوا أن المسكيدة في
 استئصالهم قد استحسِمَ عقدُها واشتدَّ رباطُها وأنهم أُحيطَ بهم من
 كل مكان تقدموا للبحث عن محمد علي في كل حجرة وزاوية من
 زوايا القصر للفتك به والتخلص من شره فلم يقفوا له على أثر
 وأعيام البحث والتنقيب لأن « لاظ أوغلي » أخفاه عنهم شديد
 الإخفاء وقام له في ذلك الوقت - إن جاز التشبيه والتثيل - قيام
 علي بن أبي طالب مقام الرسول عليه السلام ليلة الهجرة . وقد
 ورث المرحوم محمد علي من ذلك الحين تلك الصبيحة المزعجة التي لم
 تفارقه فيما بعد فكان يزأر في مجلسه بزأرة كزئير الأسود يتقطع من

هَوَّيْهَا نِيَّاطٌ^(١) القلوب . وقد مات بسببها رجل أفرنجي من
المصورين كان يقعد له المرحوم لرسم صورته وكان بعض الحجاب
نُبَّهَ إليها لئلا يفزع فلم يستطعها مع ذلك لشدها وأدركه الهلاك
لساعته . فأين مثل « لاظ أوغلي » لمثله من الولاة وأين مثل تلك
الصيحة في مثله من الرجال

(عضو الاحكام) — نعم وكان المرحوم محمد علي فوق
ما يقال وما يتصور في دقة سياسته تربية الرجال في خدمته فكانوا
كلهم طرازاً واحداً في حسن الولاة وجيل الاخلاص وربما كان
يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق في خدمته
طول حياته . ومن ذلك ما حكاه لي صديقنا المرحوم راغب باشا
قال : « كنت أقرأ بين يدي المغفور له أوقافاً وأنا يومئذ كاتبٌ
من كتيبة معيته فدخل علينا ساي باشا في أثناء القراءة ووقف
معنا فسأله محمد علي عما يريد فتلعلم تلعلم المتطالع لخروجي حتى
ينفرد به فيعرض عليه ما عنده . فقال له : قل ما عندك في الحال
فأني لا أخفي عن « راغب » سرّاً من أسرارى ولا فرق عندي
في المنزلة بين نسلي وذريتي وبين كتيبة معيتي »

(١) النباط عرق نبط به القلب الى الوتين .

فهل تعلمون يا قوم انه يقوم مقام هذه الكلمة في جلب النفوس وجذب القلوب الى النصح والولاء في الخدمة إنعام بضيايح أو احسان بأموال أو تقليد لرتبة أو نشان . ولقد كان المرحوم راعب باشا كثيرأما يقابل بين هذه الكلمة وبين ما كان يراه في خدمة الولاة من بعده مثل المرحوم اسماعيل باشا مثلاً فإنه كان يترك وهو اذذاك ناظر المالية المصرية والاوراق بين يديه وينتقل الى حجرة أخرى للنجوى مع سمسار أو بدال ويستمر راعب في الانتظار الساعة بعد الساعة واشغال الحكومة الكبرى في يده ينتظر بها انتهاء المناجاة فكان اذا قاس هذه بتلك ذهبت هذه بالاحسان والإنعام وبقيت بجانب تلك تخزن الصدر وتخزن في القواد . فانظروا الى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة في تربية رجاله . وما للملوك صناعة غيرها فاذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس واحتكره وذات القلوب فيصفوه له الملك ويعطي له الحكم

(الشيخ العالم) - أصبت وصدقت وقد اطلمت في التاريخ القديم على واحدة في هذا الباب للمنصور العباسي تدل على براعته ودقته في صناعة الملك وهي انه كان يأكل ذات يوم ومخاضيه إبنائه مع شيخ من قوادجيوشه ذهبت أسنانه لكثير سنة فكان يسقط من فمه بهض.

الفتات وهو يأكل والأمران يتغايزان عليه فالتفت اليهما الخليفة
فقرأى ما بينهما فمد يده فجمع ما سقط من ذلك الفتات فأكله
فقام القائد يقول له : لم يبق إلا ديني أقدمه لك يا أمير المؤمنين
فأمرني بما تريد »

(المدير السابق) - وأنا أقض عليكم واحدة أخرى للمغفور له
محمد علي تشهد بلطف سياسته وحسن عطفه على الأهالي وشفقته على
الرعية وهي ان أحد المديرين أراد أن يفوق اخوانه في الخدمة لينال
مكانة مالية من أميره فجد في تحصيل الاموال وتعالى في طريقته فأخذ
ما عند الأهالي من المال جملة واحدة فضج ضجيجهم واشتد صياحهم
حتى بلغ مسامع ولي النعم فأمر باحضار المدير فلما وقف في حضرته
قال له : أدن مني . فلما دنا منه أخذ بعنقه في قبضة يده وصار ينزع
من رأسه شعرة ومن قفاه شعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه
شعرة حتى جمع في قبضته خصلة من الشعر والمدير لا يجد لذلك من
الأم لا أثرأ خفيفاً ثم ان الأمير انتقل الى الحية الرجل فانزع منها
خصلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخصلة المتفرقة فنبع
من تحتها الدم وصرخ المدير من شدة الألم فقال له محمد علي « هكذا
تختلف المعاملة مع الرعية في جباية الاموال اذا أنت اخذت من ههنا

درهماً ومن ههنا درهماً آنا بعد أن خَفَّ الوقع على الأهالي ولم يدركوا
الآثم وحضنتَ منهم على مثل المقدار الذي تأخذُه جملة واحدة في
وقت واحد مع شدة الآثم كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات
متفرقات وبين انتزاعها مجتمعات والكمية واحدة والآثم بينهما
مختلف فأياك ان تعامل الناس بعد اليوم بما ياجنبهم الى الشكوى
ويجرهم على الاستغاثة»

وأعرف له واحدة أخرى في حسن الإجمال والإدماج وذلك
انه صدر امره الى المرحوم حسن باشا الانجير مؤيدني بتعيينه
حاكماً على السودان فامتنع الرجل وأظهر عجزه لجهله باللغة العربية
وقال : كيف يمكنني ان أتولى أمور قوم لا أعرف حرفاً واحداً
من لغتهم . فدعاه محمد علي وقال له : ليست معرفة اللغة مما تقتضيه
ولاية الاحكام ولا هي أداة لازمة للحكم يحتل بفقدائها وما عليك
في منصبك هذا الا ان تكتفي بمعرفة كلمتين اثنتين من اللغة
العربية يجري بهما لسانك وهما «فلوس» و «كرباج»

ولو تأمل المرحوم حسن باشا هذا في ان محمد علي حكم
الامة المصرية الدهر الطويل وفتح البلاد العربية ولم يكن يطق
بكلمة عربية في حياته - فما منعه ذلك من تسديد الحكم وتشديد

الملك - لم يعتذر عن قبول المنصب بمثل هذا الاعتذار
ومن النواذر التي يُستشهد بها في هذا الباب ان محمد علي أمر
بأن يكون اهل العاصمة رديفاً عسكرياً ثم عين عليهم ضباطاً
منهم بالرتب العسكرية فدخل عليه وفدٌ من أولئك الضباط وكان
الذي يترجم بينه وبينهم المرحوم صبحي باشا فقال لهم محمد علي
كلاماً يقتضي الاجابة بالشكر عليه فقال له متكلمهم : « نأشك
يا أفندينا » - وهي كلمة عامية منتشرة في ذلك الزمن بين العامة
يقولونها عند الاستحسان والاعجاب - فظهر الغضب على وجه
محمد علي لانه فهمها على اللفظ التركي : « نأشك » فأصرع صبحي
باشا بتفسيرها له فاستلقى الامير على ظهره من شدة الضحك .
فأية فائدة جيلئذ من معرفة اللغة العربية للحكام اذا كان اهلها
لا يجدون في مخاطبة اميرهم غير هذه الالفاظ السافلة الساقطة .
والذين تولوا زمام المصريين من الامراء والوزراء ولم يكونوا
يعرفون لغتهم عدد ليس بالقليل
(الشيخ العالم) منشداً - :

فلا تكثر وادكر الزمان الذي مضى فذلك عصر قد تقضى وذا عصر
ورحم الله الماضي وأعاذنا من الحاضر وأجارنا من المستقبل واني

لأراكم أيها الامراء مهما أصهبت في محاسن المغفور له وأفضاله .
وأطنتم في حميد أخلاقه وخصاله . فليست بيالني حق الشكر . ولا
موفين يحميل الذكر . ويكفي من الحسنات التي يغني ذكرها عن
الاجمال والتفصيل . وتحكم له بالسبق في باب التميز والتفضيل .
انه كان يقرب العلماء ويعظمهم . ويدنيهم منه ويكرمهم . ثم يقضي
حاجاتهم . ويتبرك بدعواتهم . ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له
في أخراه . بأن له جانباً مع الله . وأنه نال جزاء الاحسان . بسكنى
غراديس الجنان

قال عيسى بن هشام - وأقبل في أثناء هذا الحديث رجل من
اهل مكة المعروفين بالطوفين أو المزورين فتقدم الى رب الدار
فقبل يده والى الشيخ العالم فلم ذيله ثم وضع عن يده صرة فأخرج
منها قطعة من الحرير الأخضر وجزأ من التمر ومشطاً ومكحلة
وسبحة وشيئا من الحناء ثم قرأ الفاتحة وخاطب الامير بقوله :
(المكي) - قد جشنتك ايها الامير بالقطعة التي امرتني باحضارها
من الكسوة الشريفة وأيتك يجرء من ثمر النخلة المباركة التي
غرسها الزهراء البتول بيدها الكريمة
(الامير للخدم) - على بالمعلم مسيحه الباشكاتب ومعه الكيس

لنمطلي هذا المسافر جائزته

(وحضر المعلم مسيحه ودنا من الامير فلما بصرتك الهدية المباركة بين يديه انكب على وجهه يقبلها واحدة بعد واحدة ويقول للامير وهو يتبرك بها ويتيمين) :

(المعلم مسيحه) - تالله ما أنقذ ابني من عماه الا هذا الكحل المبارك ولا شفى والدته من داء الرعدة الا هذه الحناء الطاهرة

(الشيخ العالم) - بعد أن ذاق التمر واستطاب به - إيه إيه صدقت أيها الرجل ومن كان صائما فأفطر على تمر المدينة كتبت له الجنة قال عيسى بن هشام - فرأيت الباشا يتأفف بجاني ويزجر ويتململ ويتضجر ويهم بأن يتكلم . فالتفت صاحب الدار عند ذلك الى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر . فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه الى الدنيا ففهم من صدق ومنهم من كذب فتخرج الشيخ العالم وأشار فيهم بإشارة الاستماع ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) - اعلموا انه ليس بالمعجزات حد ولا للخوارق حصر ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته . فليس من حسن اليقين . أن تنكر بعث الدين . والرجوع الى الدنيا بعد الفناء .

أمر معلوم بلا ائتراء . تخص القدرة به . من تشاء . ببركة الاصفياء .
والاولياء . وأقرب ما أستشهد لكم به على ذلك من كتاب « مناقب
تاج الاولياء وبرهان الاصفياء القطب الرباني والنوث الصمداني
السيد عبد القادر الكيلاني » ما أرويه لكم بحرفه ونصه :

« ذكر في رسالة حقيقة الحقائق ان امرأة غرق ولدها في
اليم وجاءت الى النوث الأعظم وقالت : ان ولدى غرق في البحر
واعتقادي جازم بأنك تقدر على رد ولدى الى حيا . فقال لها رضى
الله عنه : ارجعي الى بيتك تجدى ولدك في بيتك . فراحت ولم
تجد . فجاءت ثانية وتضرعت فقال لها النوث أيضا : ارجعي الى
بيتك تجدى ولدك في بيتك فراحت ولم تجد . فجاءت ثالثة للبكاء
والتضرع فراقب النوث وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها :
ارجعي الى بيتك تجدى ولدك في البيت . فراحت ووجدت ولدها
في البيت فقال النوث الأعظم بطريق المحبوبة : يارب لم أخجلتني
مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : ان
كلامك حين قلت لها كان صدقا في المرة الأولى جمعت الملائكة
أجزاء المتفرقة وفي المرة الثانية أحيينته وفي الثالثة أخرجته من اليم
وأوصلته إلى دارها . فقال النوث : يارب خلقت الأكوان بأمر

« كُنْ » ولم يسبق زمان ولا آن وفي وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التي لا نهاية لها وتحشرهم في ظرفة عين وجمع أجزاء جسد واحد واحياؤه وبعثه الى دارها شيء جزئى فما الحكمة في هذا التأخير . فجاء الخطاب من الرب القدير : اطلب ما تطلب فقد أعطيتك عوضاً من انكسار قلبك فتضرع النوث ووضع وجهه على التراب وقال : يا رب أنا مخلوق فبقدر مخلوقي يليق بى الطلب . وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء فجاءه الخطاب كل من يراك يوم الجمعة يكون ولياً مقرباً وإذا نظرت الى التراب يكون ذهباً . فقال : يا رب ليس لى نفع من هذين أعطنى شيئاً أعظم منها . ويوقى بعدى لينفع فى الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلت اسماءك مثل اسمائى فى الثواب والتأثير ومن قرأ اسماء من اسمائك فهو كمن قرأ اسماء من اسمائى .

وروى فيه أيضاً عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرافعى رضى الله عنه قال : توفى أحد خدام النوث الاعظم موجأت زوجته الى النوث فتضرعت والتجأت وطلبت حياة زوجها فتوجه النوث الى المراقبة فرأى فى عالم الباطن ان ملك الموت عليه السلام يصعد الى السماء ومعه الارواح المقبوضة فى ذلك

اليوم فقال يا مملك الموت قف وأعطني روح خادمني فلان (وسماه باسمه) فقال مملك الموت : اني اقبض الارواح باسم ربّي وأؤديها الى باب عظمته كيف يمكنني ان أعطيك روح الذي قبضته بأمر ربّي. فكرر الفوت عليه ليعطاء روح خادمه اليه فامتنع من إعطائه وفي يده ظرف ممنوى كهيئة الزنبيل فيه الارواح المقبوضة في ذلك اليوم فبقوة المحبوبة جبر الزنبيل وأخذه من يده ففترقت الارواح ورجعت الى أبدانها . فنادى مملك الموت عليه السلام ربه وقال : يا رب أنت أعلم بما جرى بيني وبين محبوبك ووليّك عبد القادر فبقوة السلطنة والصلوة أخذ مني ما قبضته من الارواح في هذا اليوم . فغاطبه الحق جل جلاله : يا مملك الموت ان الفوت الاعظم محبوبي ومطلوبى لم لا أعطيته روح خادمه وقد راحت الارواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد فتندم هذا الوقت .

قال عيسى بن هشام — وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت الباشا قد انتفض قائماً يقول لهم والتضب باد على وجهه والنيط يتقد في صدره :

(الباشا) — اهلوا ايها الاخوان ان معقورة الرحمن وسكنى الجنان لا تنال بكثرة الصوم وأكل التمر أو التبرؤك بالآثار والتحصن

بالأُوراد وما تُكتسب الدرّجة الرفيعة عند الله الا بالعدل
والاحسان وفعل الخير واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكين
من عباد الله . وقد غرني في دنيائى ما يفرّكم الآن فكنت أسمع
قبل مماتى من مثل هذا الشيخ العالم ما يهون على ارتكاب الخزيات
وفضائح الشرور في معاملة الناس ارتكانا على نهارِ أصومته . وليلِ
أقومه . وحرزِ أحله . وأثرِ أقبله . فممتُ عن عمل الخير وغفلت
عن بذل المعروف فلما توفانى القدير العليم وسكنت في حفرة
القبر علمت ما لم أكن أعلم فلم يغنى ذلك وحده من الله شيئاً .
وما خفف على أحوال القبر وهوّن على سؤال الملك الا حسنة
واحدة كنت أتيتها في إغاثة مظلوم استجارنى فأجرته وهو في
يد الجلاّد بين السيف والنّطع . فعليكم بالعدل والاحسان وتقوى
الله في عباده وإفشاء البر والمعروف في خلقه ولا تطيعوا النّفس
الأمارّة بالسوء فتركبوا الى الاغترار بالامل . وتطلبوا المغفرة
بلا عمل . بل استكثروا من الخير قبل حلول الأجل . وتذكروا
قول الله الأجل : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » واعتبروا
بقول على رضى الله عنه : « لا كم من صائم ليس له من صيامه الا
الجوع والظمأ وكم من قائم ليس له من قيامه الا السهر والعناء » .

واسمعوا لقول حكيم الشعراء
 ما الخيرُ صومٌ يُذوبُ الصائمونَ له ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسدِ
 وإنما هو تركُ الشرِّ مُطَرِّحاً ونَفْضُكَ الصِّدْرَ من غلٍّ ومن حَسَدٍ
 (الشيخ العالم) - انى لا خالك أيها الرجل شيطاناً في زى انسان
 وزنديقا يندبتر بدعوى المنشور من القبور . تمسك لهذا الزمن
 ما أكثر أضاليله وبؤساً له ما أعظم أباطيله ولم يبق علينا من مذخرات
 عجائبه الا ان يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى فيه وبما سمع
 (صاحب الدار) - الباشا سألتك بالله أن تحبزي بأية لمة كان
 سؤال المالكين لك أبالعربية أم التركية أم السريانية فان هناك
 اختلافاً وأقوالاً بين العلماء .

(الشيخ العالم) - ناشدكم الله ان تقضروا عن هذا الرجل
 ولا تخاطبوه فانه فتنة من قن إبليس اللعين ونعوذ بالله من
 الشيطان الرجيم

قال عيسى بن هشام - فلم يسمع الباشا إلا الخروج من هذا
 المجلس وهو يهدر ويغلي ويستعبد ويستعدي فانخرطت وراءه وأنا
 أذكر قول عمر رضى الله عنه في مثل هذا الشيخ الغليظ البدن
 « ان الله ينفخ الخبَر السمين » وأردد قول أبي تراب كرم الله

وجهه « أشكو الى الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضللاً
ليس فيهم سلةٌ أبورَ من كتاب الله اذا تُلِي حق تلاوته ولا
سلة أنفقَ يوماً وثمناً من الكتاب اذا حُرِّفَ عن مواضعه ولا
عندم أنكرَ من المعروف ولا أعرف من المنكر »

ولحق بنا البيطارُ في خروجنا ومعه التاجر الذي كان مقبلاً
في المجلس ينادينا فوقفنا لهما فتقدم التاجر الى الباشا ومال على
يده يقبلها ويقول له :

(التاجر) - أشهد الله أيها المولى اننى مصدق بأمرك وليس بعد
اليمان من برهان وما أخطئ نظري فيك فأنت سيدى الباشا بعينه
وأنت صاحب اليد التى أتذكرها طول عمرى . وما بى من نعمة
خفك وما أصبحت فيه من ثروة فيمينك وفضلك ولست أنسى
أن أصل شهرتى واتساع تجارتى هو انك جلست فى دكانى مرة
عند ما عثرت بك رجلك وأنت تقصد زيارة الحسين فارتفع
يتلك الجلسة قدرى واشتهر ذكرى وأقبل على الناس من دون
التاجر لتوهمهم فى ان لى برحابتك صلة وبجنتك نسبة فأصبحت
ولله الحمد فى غنى وتسع ومال كثير وقد بلغت من أحمد أفاضل
ما أنت فيه من الحاجة الى الدرهم لا جرة المحامى التى جاءت بك

الى هذا المجلس ولكنك أنفت من ذكرها عند ما غضبت لله .
وأنا أتضرع اليك بخالق الخلق ان تتنازل فتقبل مني ما تسد به
حاجتك وتخلص به من مطالبة الهامين
(وأخرج التاجر كيساً مملواً فقدمه الى الباشا وهو يرتعد
من خيفة الرد فأخذه الباشا وقال له) :

(الباشا) — انى اشكرك جميل الشكر لحسن صديعك وأسأل
الله لك حسن الجزاء فلم يكتب لك صكاً بالمال لأردم اليك عند
استرداد أوقافى

(التاجر) — حاشا لله ان أكون من أهل هذا الزمن الذين
اصبحوا لا يثق بعضهم ببعض فلا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد
ولده ولا الصاحب صاحبه ولا الجار جاره على حرم واحد الا
بمقود وصكوك بل أنا لا ازال من أهل ذلك الزمن الذى لم
يكن يتعامل التجار فيه بينهم بغير الثقة والاثمان دون احتياج
الى تحرير الاوراق وتسطير الصكوك . وما يكون الاستيثاق
الا عند توم الخيانة والعياذ بالله

قال عيسى بن هشام — فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً
وقال لى : انصرف بنا الى الهامى نستنقذ رقابنا من أسره ثم نذهب

ألى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف . فقلت له لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقنا . فما نخرج من قبضة محام . الا الى قبضة محام . ونسأل الله السلامة فى الختام

﴿ المحامى الشرعى ﴾

قال عيسى بن هشام - وأخذتُ طريقى . مع رفيقى . أنشدُ صاحباً أسترشده . فى محام شرعى أقصده . وبيننا نحن نسير . ونسأل الله التيسير . اذا بصاحب لى عرفته . فاستوقفته . قال ما خطبك قلت قضية . فى المحكمة الشرعية . فاطرق الخبر مسممة . حتى أجرى دمه . وهو ل الامر وهولت . وحوقل وحوقلت . ثم قال لقد وقعتُ قبلك فى هذا البلاء . ولما تيمم لى النقاهاة من الداء . وأنا أنصح لك إن كنت مدعيًا أن تترك دعواك . وتصبر على بلائك أما إن كانت الدعوى عليك . فليس الخيار اليك . ولا مرد لحكم القضاء . بتدبير الآراء . فقلت للضرورة إحكام . فأرشدنى لا انتخاب محام . يكون مشهوداً بعدالته . مشهوراً بطهارته . بعيداً عن خلف الوعد . بريئاً من خلق الوعد (١) . لا يتفق مع الخصم ولا يصرق من «الرسم» .

قال اطلب من انواع الحال. أن يحمل الدر الجبال. ولا تطلب في عام
اجتماع هذه الشروط. فينتهي بك الأمر الى اليأس والقنوط.
ولمحاولة الارتقاء فوق متن العنقاء. أيسر من ذلك. طلبها. وأوسع
مذهبها. والمحامون الشرعيون — حماك الله — يستوون لدى الاختيار.
كأسنان المشط وأسنان الحمار. بل هم جميعا كحمارى العبادي قيل
له أي حماريك شر قال هذا ثم هذا. وأقسم لك بخالص الود. أني
لا أثق منهم بأحد. وكيف تكلفني أن أتق لك ذنباً من الذناب.
وأحمل على كاهلي عبء اللوم والعتاب. فأعفني من هذا الاختبار
والانتقاء. فاذك الله من جميع الأسواء. ثم ما ابث أن خلفني
بومضى وتركني على مثل جمر الغضى. فعمرت كثيراً حزينا. أبني
سواء مرشداً ومُعيّناً. ولما لم أجد من أصحابي من يتكفل على عهديته.
باختيار محام يوثق بدمته. قصدت أحد العلومين عندي بكثرة
الخصومات. وطول المحاكمات. فكشفته بطائفتنا. ليكشف من
مصيبتنا. فقال اعلم ان المحامين الشرعيين أجناس وصنوف. فمنهم
المبضر ومنهم المكفوف وفيهم — كتب الله لك السلامة — صاحب
«الطربوش» وصاحب العمامة. وأنا أدلك على أهونهم شراً. وأقلهم
خراً. وأخفهم رزيةً وبليّةً. وأكثرهم علماً بالحيل الشرعية.

فعليك بفلان ويته معلوم . في منتهى « حارة الروم » . فقصدنا البيت نشق طرقاً معوجة . ونحرق ثنيات . زدوجة الى ان انتهينا الى باب دار . كأنها مطلية بالقار^(١) . تسورت باكوام من الاقدار . وتلفتت بشلال من الأوضار . ورأينا عند مدخل الباب . صيدية يلعبون بالتراب . ومن بينهم طفلة تجتمع على وجهها . من الذباب . مثل البرقع تنقبت به قبل أوان النقاب . ولما تخطيناهم غشيتنا رائحة المرحاض . فاستندنا هناك على هضبة أنقاض . بجانبها مذودان . تزاحما عليه أوزان وبطتان . ثم اهتدينا الى حجرة في جهة اليمين . فرأينا أمامنا امرأة تنادى : « العجين » « والاجرة » . فسألناه عن رب الدار فأشار الى الحجرة . فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطى بالعباد والحضباء . ومتكسداً تعرض من الفراش والغطاء . وفي زاوية من زوايا المكان . سراج لا ينفذ نوره من تكاثف الدخان . وفي أعلى رفوف الزواق . أحمال كتب وأوراق . قام لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد . وألصقتها الرطوبة فحفظتها من التوزيع والتبديد . وفوق الارض زجاجات مطروحة من المداد . وفي بياض الحائط تسويد وتخطيط من لعب الاولاد . وبصرنا برجل :

تُغَيِّرُ حَنَاؤَهُ شَيْبُهُ فَبَلَ غَيْرَ الظُّرِّ لَمَّا انْحَنَى

ووجدناه جالسا على سجادة الصلاة . وعن يساره امرأة كأنها
السَّعْلَةُ (١) . فسمعناه يقول لها في تسبيحه : « أَتُسَبِّحِينَ - أَدْرَأُ
اللَّهُ عَلَيْكَ خَيْرَهُ . وَأَبْدَلَكَ زَوْجًا غَيْرَهُ . - مَا أَخَذْتَهُ مِنْكَ لَاسْتِبَاطِ
الْحِيلَةِ فِي التَّفْرِيقِ . وَاسْتَخْرَاجِ الْحَكْمِ بِالتَّطْلِيقِ . فَايَسَدَتْ عَنْكَ
زَوْجًا تَكْرِهِيهِ . لَتَبْدُلِي مِنْهُ زَوْجًا تُحِبُّهُ » . ثم إنه استحسن بدخولنا
من ورائه . فارتدَّ الى اتصال تسبيحه ودعائه . وانتفضت المرأة
فتنقبت بخمارها . وتلفعت بإزارها . وخرجت وتركتنا مع رجل
يخدع الانام بطول صلواته . ويتلو سورة الانعام في ركعاته :
إِذَا رَأَى كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمُهَا فَتَارَكُهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ
وَجَلَسْنَا مَدَّةً نَنْتَظِرُ خُلَاصَةً مِنْ هَذَا الرِّيَاءِ . وَخُلَاصَ الْمَلَائِكِينَ
مِنْ صَحِيفَةِ السُّودَاءِ . وَخُلَاصَنَا مِنْ هَذَا الْكِرْبِ وَالْعَنَاءِ . فَذَا هُوَ
قَدْ وَصَلَ الْمَغْرِبَ بِالْمِشَاءِ . وَكُنَّا نَشَاهِدُهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ نَظَرَاتٍ
تَحْتَكِمَاتٍ نَحْوَ الْبَابِ . كَأَنَّهُ هُوَ أَيْضًا فِي انْتِظَارِ وَارْتِقَابِ . إِلَى أَنْ
دَخَلَ عَلَيْنَا غَلَامٌ يُصَبِّحُ بِهِ : إِلَى مَتَى هَذِهِ الْعِبَادَةُ . فَقَدْ بَلَّيْتَ السَّجَادَةَ .
وَحَاجَاتُ النَّاسِ مَوْكُولَةٌ إِلَيْكَ . وَقَضَاءُ مَصَالِحِهِمْ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ .

وهذا دولة «البرنس» ينتظر في القصر . منذ العصر . دع مدير
الاقواف . وتقيب الاشراف . « فلم يعبأ المصلي بهذا الكلام . بل
جهر بالآية من سورة الانعام : « قُلْ اِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ
وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُسْلِمِينَ » . فجلس غلام الشيخ وهو يسبح العزق . واشتد بنا
الضجر والفاق . فقلنا من يضمن لهذه الصلاة انتهاء . ولهذا التصريح
انقضاء . وهمنا بالقيام . فالتفت الشيخ للغلام . وأشبعه من التائب
واللام . ثم حيانا بالطف سلام . وقال بارك الله فيكم وعليكم . وأنا
في الخدمة بين يديكم . فقلنا اعلمنا أنك رجل عدل عَف . فجنناك
القضية في وقف . فقال الغلام أطلبون ريعه . أم تريدون ييمه .
فقلت سبحانه الله وهل تباع الاوقاف . قال نعم ويباع جبل قاف .
ثم تخضع الشيخ وسعل . وبصق وتفل . وتسقط . ثم نخط .
واقرب منا ودنا . ثم قال لنا :

(الحامي) - دَعُوا من هذا الغلام وقُولَا لي ما حقكم في الوقف وما
شرط الواقف وكم يُقدَّرُ ثمن العين لتقدَّرَ «قيمة الاتعاب» بحسبه .
(عيسى بن هشام) - ان لصاحبي هذا وقفاً ما فاته عنه الموائق
خوضع سواء عليه يده وتريد رفع الدعوي لرفع تلك اليد

(الحامى) - سألتك ما قيمة العين

(عيسى بن هشام) - لست أدري على التحقيق ولكنها تبلغ الألوف

(الحامى) - لا يمكن أن يقلّ مقدّم الاتّاب حينئذ عن الثّات

(عيسى بن هشام) - لا تشطّط. أيها الشيخ في قيمة الاتّاب

وارفق بنا فإنا الآن في حالة عسر تقضى عليك بذلك

(الغلام) - وهل ينفع في رفع الدّاوى اعتذار بإعسار. ألم تعلم

أن هذا شغل له « اشتراكات » وللكتبة والمحضرين « تطلمات »

وأنى لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى وكسب القضية

بما يهون معه دفع كل ما يطلبه في قيمة اتّابه. وهل يوجد مثله أبداً

في سعة العلم بالحيل الشرعية ولطف الحيلة في استمالة محامي الخصم

واستجلاب عناية القضاة

(عيسى بن هشام) - هذا والله كل ما يمكننا دفعه الآن من

الدراهم ونكتب بما يبقى صكاً لحين كسب القضية وليس يفوتك

شيء من ذلك مادام ربحها مضموناً لديك على كل حال

(الحامى) - بعد أن استلم الدراهم بعدها - أنا أقبل منك هذا

العدد القليل الآن ابتغاء ما أدخره الله لعباده من الأجر والثواب

في خدمة المسلمين . وعليك بشاهدين للتوكيل

(عيسى بن هشام) - وبأية طريقة يكون التوكيل
 المحامي - يجب عليك ان تستحضر شاهدين يشهدان أمام
 المحكمة بأن فلان بن فلان بن فلان وكل فلان بن فلان بن فلان في
 المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات والقبض والاستلام
 والتسليم وفي المطالبة والدفع والاقرار وفي كل ما يصح فيه التوكيل
 شرعاً وفي أن يوكل عنه في الدعوى غيظه وأن يمزله وأن يفعل ذلك
 مراراً وتكراراً كلما بداله فعله المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة،
 وأنا أنتظر حضوركما غداً مع الشاهدين ومستند الوقف
 (عيسى بن هشام) - ليس لدينا الآن إلا شاهداً واحداً يعرف
 أصل الباشا ونسبه

(غلام المحامي) - هذه أول خطوة في تكاليف القضية ومشافها
 ولعلك تعرف قيمتها ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل
 الباشا ونسبه ويشهد به بين يدي الحق

(عيسى بن هشام) - وليس في يدنا أيضاً مستند للوقف
 (المحامي) - أما من جهة المستند فينبغي استخراج صورة من
 السجل «المصان» (كذا) وهذه خطوة ثانية في متاعب القضية
 قال عيسى بن هشام - وعند ذلك قطع الشيخ المحامي كلامه

معنا واستقبل القبلة بوجهه وقام لضلاة العشاء فقننا للانصراف وسرت مع صاحبي وأنغريق في الافكار أتدبر وأعتبر وأعجب ممرأتيت من سكون الباشا وسكوته وحسن احتماله وصبره بعد أن كان شديد الحدة سريع الغضب . يرى القتل واجبا لأذى هفوة وأقل سبب . فأصبح بفضل وقوعه في هذه الخطوب المتتالية والرزايا المتتالية لئلا العريكة واسع الصدر مؤطاً الكنف كثير الاحتمال حتى انه لم يأنف ولم يتأفف من كل مارأناه في يومنا هذا بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذي يجعل دأبه البحث والتأمل في أخلاق الناس أثناء التعامل معهم وازدادت يقينا بأنه لا شيء أسرع في تهذيب النفوس وتزيتها على التخلق بالاخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوائب وأن أسوأ الناس أخلاقاً وأنكدهم عيشاً هم هؤلاء الأغمار^(١) المنعمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحداث ولم تهذبهم صروف الازمان ولم يزدني الباشا في كلامه أثناء الطريق على أن قال :

(الباشا) - قلت لى ان المحامين الشرعيين فيهم صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة فهل تراهم جميعاً على هذا النمط الذى

(١) الأغمار جمع غمر وهو الجاهل الابله

شاهدناه أم بين الفريقين فرق .

(عيسى بن هشام) - اعلم ان الخيرة في الواقع والحمد لله على كل حال فان فيهم تحت «الطربوش» . من هو أشد فتكاً من ضواري الوحوش . وأعزف طربوشاً منهم أقسم أمامى بالطلاق الاثماً من زوجته . ومن كل زوجة يتزوج بها في حياته على انكار كلام نطق به في مجلس كنت حاضرة لارضاء لأجد أرباب القضايا . وإغضاباً لخلاق البرايا . واستهانة بحكم الشارع واعتماداً على قول الشاعر :

وإن أحلفوني بالطلاق أتيتها على خير ما كنا ولم نفرق
وإن أحلفوني بالمتاق فقد درى عبيد غلابي أنه غير معتق

قال عيسى بن هشام - ومضت علينا الايام ونحن نقصد الشيخ الحامى في كل يوم فلانتمكن من لقائه فان ذهبنا اليه في البيت قيل لنا إنه في المحكمة وإن ذهبنا الى المحكمة قيل لنا إنه في القصر الفلانى أو القصر الفلانى من قصور الامراء والكبراء حتى حفيت الأقدام ومللنا الاصطبار فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثالث الاخير من الليل فنصطاده عند خروجه وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أمانه فتقدمت اليه فقال لى أرجو المساعدة في هذا التأخير فالذنب فيه لكثرة مشاكل الامراء ودعائهم فتقبلنا عذره وتوجهنا معه الى المحكمة

فذهب بنا الى «كاتب الشهادات» فوجدناه جالسا يلمع في ثيابه .
من حمرة الحذاء في رجله وزُرقة الجبة على كتفه وصُفرة الحزام في
خصره وبياض العمامة فوق رأسه :

تعددت ألوانه كأنه قوس قزح

وكان الشيخ المحامي قد تركنا مع الغلام والشاهد الذي اختاره لنا .
فنظر الكاتب الى الشاهد نظرة للتوقف وقال انه شاب صغير السن .
وانه وانه . . . فقال عليه غلام المحامي وألقى في أذنه بعض القول فقام .
ممننا من فوره الى قاضي الجلسة لسماع الشهادات بعد ان قال لنا الغلام :
وهذه الخطوة الثالثة في تكاليف القضية . ثم انتهى الشاهد بحمد الله .
وحسن العناية بنا في أثناء يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف .
يجب بعد هذا ان تقدم عريضة لحضرة القاضي بطلب الكشف من
الدفترخانة عن الوقفية في السجل وأن نوضح فيها عمر الوقفية وتاريخها .
ومن «عملية» من هي (يعني اسم الكاتب الذي كتبها في زمانها) فخرجنا
نبحث على أحمد أغا البيطار لعله يعرف طريقة توصيلنا الى مطلوبنا فذهبنا
عليه وأعلمناه بفرضنا فقال ان عندى ورقة فيها عمر الوقفية كنت
تحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الجهد والزم من المديد لاثبات
حتى في ربيع الوقف . ثم ذهب الى بيته وعاد الينا بالورقة فوجدناها

مقصرة على ذكر النمرة والتاريخ ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذي عمل
 « العملية » فقصدا غلام المحامي وتوجهنا معه الى المحكمة فكتبنا
 العريضة وقدمناها لحضرة القاضي فوضع عليها اشارة لحضرة
 الباشا كتب ليتحرى عن مسألة « الشأن » وطلبوا منا شهوداً يشترط
 فيهم ان يكونوا من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بأنه
 صاحب الوقف وأن سواه وضع يده عليه فأدركتنا الحيرة في الامر
 فتكفل انا الغلام باستحضار أوائك الشهود أيضاً بعد أن قال لنا: وهذه
 الخطوة الرابعة في تكاليف القضية . ولما نظر الباشا كتب في العريضة
 ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب « العملية » قال لنا انه لا يمكن
 الاهتداء في الدفترخانة بدون ذلك وأنه لا بد لنا من انتظار
 السنين والاعوام حتى يمكن العثور على صورة الوقفية في السجل
 بالنمرة والتاريخ وحدهما . فعاودتنا الحيرة فقال انا الغلام : لا تحزننا
 فأنا أساعد على سرعة الانجاز وأتوجه معكما الى الدفترخانة ان
 شاء الله . وهذه هي الخطوة الخامسة في تكاليف القضية . وما
 و زال الخيط بعد لنا الخطوات . ونعد له في كل خطوة درهماً .
 ونحن نسأل الله ان يتقنا مما آصابنا من حكم الدهر . وأن يجعل
 بياقضاء القضية قبل انقضاء العمر

﴿الدفترخانة الشرعية﴾

قال عيسى بن هشام - وعكفنا زماناً نشد في الطلب . والحامي يشد
 منافي الحرب . فلما طال علينا الأمد في ازياده . ويثسنا من لحاقه
 واصطلياده . انتقلنا للبحث عن غلامه . حتى قبضنا على زمامه . فرأينا
 الخبيث يصعب في الامور والاحوال . لنسترضيه بالمعطاء والتوال .
 وقال لنا أقول لكما الحق والحق أقول . إنه ليس من المتصور المقول . أن
 تهتدى في هذه القضية . الى صورة الوقفية . بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها
 دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها . ولا يحول في الخواطر والاهام
 أن يثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام . من غير وحي أو إلهام . إلا
 بعد ذكر السنين وممر الاعوام وان اعتبرنا كما بمض الشك أو الريب . ولم
 نصدّقاً بظهر الغيب . فلهما معي أظنكما على ما يزول معه الابس .
 وتقتنع به النفس . فقيدها . بقيود الترهيب والتأميل . وأعطيناها
 ما يحضرنا من كثير وقليل . فانطلق أمامنا شبٌ ويحجل . حتى دخلنا
 بيت الشجل . فلما جاوزنا الباب . حيث يجلس الكتاب . ألفينا
 خشباً سنده . على خشب مؤطدة . وهياكل تفرش الفرا . فوق
 الاقدار والاقضاء . لا تميز منهم وجه انسان من انسان . لشوة البصر

من ظلمة المكان . فتذكر الباشا عند ذلك ظلام الرسم . وكرر راجعاً
ينتظر نافي ضوء الشمس . ثم مال الغلام الى اذن أحدهم يكلمه . بما لا
أهميه ولا أهمه . فبادر الرجل بالهوض والقيام . وسار بالغلام وأنا
في عقب الغلام . فمخطونا بضم خطوات حتى حيل بيننا وبين ضوء
النهار . وتجللنا من حندس الليل بحجبٍ وأستار^(١) . فوقفت لا
أبصر ولا أهتدي . فأخذ الغلام يدي . وقد عصيت على وجوه المسالك .
في هذه المخاوف والمهلك . وسرت فوق أرض تهش تحت القدم
وتلين . كأنها مفروشة بالهشيم تلبد في الطين . وما زلنا نمشي في أنحاء
تلك المظورة^(٢) . على هذه الصورة . حتى تخيلات أني في قبور
قدماء المصريين . أو في هياكل الاسرار بمعابد الرومانيين . أو في طريق
الامتحان عند أحرار البنائين . فوجب القلب^(٣) . من شدة الرعب .
خشية أجولة نصبت . أو مكيدة رُبت . ووجعت . ثم أحجمت .
وقلت للغلام ليس بيننا ما يوجب الاحتيا . أو يدعو للاغتيال .
وماذا تريد مني في هذا الغيب^(٤) . وليس معي من فضة ولا ذهب .

(١) الخندس الليل الشديد الظلة

(٢) للمظورة الحفرة تحت الارض

(٣) وجب القلب وجيبا وجف وصفق

(٤) الغيب الظامة

ولا من شيء يُستلب أو يُنتهب . ففقهه الفاجر ثم أقسم بالله وثنى
 بالطلاق . أننا نسير في أمان بين غرائر الدفاتر ولغائف الاوراق .
 وقال كُنْ آمناً مطمئناً على نفسك . وسترى الحقيقة بعيني رأسك .
 وما كاد الشقي يتم لى هذه العبارة . حتى عثرت قدسى فى لفافة
 فوقعت على غرارة . واذا بصائح يصيح من تحتها متبرماً متأففاً .
 ويقول لى متغطرساً متعجرفاً : ما هذه المشاوة يا عديم الابصار .
 ونحن لانزال فى أديم النهار . ففقت متثاقلاً متسانداً . وقلت فى
 نفسى : نشدا :

دُجِّي تتشابهُ الأشياءُ فيه فيَجْهَلُ جنسُها حتى يَصيحاً
 ثم تأملت فإذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته . بذيلٍ مئزره
 أو جبّة . فتولّانى الخوف والوجل وقلت من الرجل . فقال الغلام
 كاتبٌ من كتبة « السجلات » . ينبش عن أوراق فى سجل
 « الایلولات » فقلت وكيف يهتدى لذلك . وسط الظلام الحالك . فقال
 أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء . فصاروا كالتخفاش
 ينصرون فى سواد الظلماء :

ولو سار كلُّ الورى هكذا لما حسدَ العمى من يبصرون

ثم انطفئنا من ذات اليمين الى شبه قاعة. يلوح فيها من الضوء مثل جناح يراعة ^(١). واذا هو لماب الشمس يسيل من ثقب ^(٢) في سقف ذلك الجب. وهو يتموج بأنواع الجرائم. تموج الماء بالهشيم ^(٣). نخلت أن يحوز الفلك الدوار. - أريد بها شمس النهار. - خشيت أن تضل في ظلمة هذه المفازة. فاتخذت لها من لهاها عكازة. تتوكأ عليها للاهتداء. وتدب بها في هذا الماء. فسحت على بصري. وأحدقت بنظري فأبصرت وماذا أبصرت. ونظرت وماذا نظرت :

ما إن سمعت ولا أرا في سامعا أبداً بصحراء عليها باب
نعم رأيت فضاء متسعاً تراكم فيه من الأوراق الرقيقة
والدفار البالية. مثل الرثي الشاهقة والأكاب العالية. غير أن
هذه تثير وتجنني. وتلك تمت وتبلى. هذه تكون مخضرة
مخصبة. إن جادها الحيا أينمت بالغض من النبات. وتلك
سوداء نجدبة. إن بللتها الرطوبة اهتزت باليابس من الحشرات :

(١) اليراعة الذبابة

(٢) لماب الشمس شيء قائم ينحدر من السماء اذا قام قائم الظهيرة نراه مثل

نسيج العنكبوت

(٣) الهشيم نبت يابس متكسر

فالأرضُ تبسطُ في خدِّ الثرى ورقاً كما تُنثرُ في حافتيها التبسطُ
والريجُ تبعثُ أنفاساً مُطرَةً مثلَ العبيرِ بماءِ الوردِ مُختلطُ
وهذه بسطتْ فوق الثرى ورقاً لكنه للبلَى والعُثِّ اُمتبسطُ
وريجها تورثُ الاسقامَ ناشقها كآبةٌ من ترابِ القبرِ يستعطُ^(١)
وما لبثتُ أن استبان لى شخص الكاتب المرافق لنا. فى لحه
ذلك السنأ. فاذا هو قصير القامة . كبير العمامة . ذو وجهٍ مقشعٍ
بالاصفرار . وعينٍ مكشحةٍ بالاحمرار . وقد طوى من خلفه
الجبة . ورفعها على ظهره كالجمعة . وفى حزامه دواة من نحاسٍ
أصفر . وبين طيات العمامة أوراق بالتواريخ «والنزع» . فاستعدتُ
يالله من الشيطان الرجيم . وقلت لذلك الغلام اللئيم :

(عيسى بن هشام) - هلم بنا أيها المراءوخ الى الباب لنعود الى
ضياء الحياة فقد يئست من أمرنا . وأنى لهذا الكاتب أن يهتدى
للبحث فى هذا الأبح القامس^(٢) . والليل الدامس^(٣)

(غلام المحامى) - لا تنكرن على مثله الاهتداء فى دياجي
الظلماء ولا يهوأنك تشتت الدفاتر وتراكم الاوراق فهى مرتبة

(١) استعط الدواء أدخله فى أفقه

(٢) القامس البعيد النور (٣) الدامس الشديد الظلمة

في حافظته ترتيباً انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيه وعن جدّه
فلا تخفى عليه مواقعها كما يتوارث رؤساء البوغاز في الاسكندرية
هداية السفن عند دخولها بما علموه عن آبائهم من مواقع الارض
في قاع البحر. ولو كان معنا اسم الكاتب لتسهل البحث ولوصلنا
الى الغرض

(الشيخ الكاتب) - نعم لا تنكر علينا بارك الله فيك اهتدانا
للبحث في هذه الأوراق. والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة
في ذهني منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب فهي مقسمة الى
عدة سجلات منها «سجل الباب العالي» تسجل فيه الاعيان المبيعة
غير الموروثة. ومنها «سجل القسمة العسكرية» تسجل فيه
الاعيان المبيعة الموروثة. ومنها «سجل الايلولات» تسجل فيه
الاعيان المحصورة من ترثة تخصّص أو تباع بالزاد. ومنها
«سجل الاعلامات» تسجل فيه المواد التي تصدر فيها أحكام
من المحاكم الشرعية من أى نوع كان. ومنها «سجل التقارير»
تسجل فيه تقارير النظار وفقاً وغيره. ومنها «سجل الوقفيات»
وتسجل فيه نفس الوقفيات ويدخل فيه التوكيلات والوصايا
والتصادق ..

(عيسى بن هشام) - سبجان الفاتح الوهاب . ومن يهدينى
الى طريق الباب

(الشيخ الكاتب) - .. ومنها « سجل الديوان العالى »
تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم والاعلامات
الصادرة من مجالس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى
الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب .
ومنها « سجل القسمة العريية » تسجل فيه الأعيان الموروثة
المختصة بالترميمين ..

(عيسى بن هشام) - اللهم ارفع عنا الأذى والمقت . وهلم فقد
صناق بنا الوقت

(الشيخ الكاتب) مسترسلاً .. ومنها « سجل اسقاط القرى »
يسجل فيه ما يأخذ الامراء ويعطونه من الاطيان والقرى وليس
يخفى أنه كان فى مدينة مصر محاكم شرعية سياسية وكانت السيطرة
عليها للقاضى من قبلى السلطان وكان لكل واحدة سجل تسجل
فيه جميع الانواع (وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه
الدفترخانة) وكانت مراكزها فى جهات « باب الشرعية » و « قناطر
السباع » و « جامع طولون » و « جامع قيسون » ..

(عيسى بن هشام) - يكفي أيها الشيخ فقد وجب الرحيل .
ولا حاجة بنا الى هذا التطويل والتفصيل

(الشيخ الكاتب) . مُعَدِّدًا - . . . وفي جهات «درب سعادة»
و «باب الخرق» و «الصالحية» و «النجمية» و «أحمد الزاهد»
و «البرشنية» و «مصر القديمة» و «بولاق» و «جامع الصالح»
و «جامع الحاكم» . . .

(عيسى بن هشام) - تبارك مَنْ له الاسماء الحسنی . وَمَنْ
يُمِدُّنِي إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(الشيخ الكاتب) - . . . ثم «محكمة الباب العالي» وهي المحكمة
الكبرى وقاضيا هو المسيطر على الجميع المُوَلَّى من القسطنطينية .
و «محكمة القسمة العسكرية» وقاضيا يعين كل سنة من دار السعادة
كقاضى المحكمة الكبرى ويسمى «القسام» وشغله المواريث
بأنواعها فقط و . . .

(عيسى بن هشام) للغلام - لقد ملَّ سَمِيحِي . وضاق ذرعِي . فخرجُ
بنا وأتقذني من شر هذه الدار . ومن ثروة هذا الشيخ المهدار
(الغلام) - لا تُضْجِرْ ولا تَقْنَطْ وَأَنْظِرْنِي قَلِيلًا حَتَّى أَسْتَنْيرَ بِرَأْيِ
الشيخ لعلنا نجد عنده حلاً للعقدة . وفرجاً للكربة . (ثم مال على

الشيخ منفرداً به فسمته يقول له) :
 (الغلام) - مثلك لا يجوز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف
 على اسم كاتبها وأنت لا تأبى الزبح والكسب لنا جميعاً وأصحاب
 القضية من كبراء الناس أهل السماحة والكرم
 (الشيخ الكاتب) - مهلاً فقد كنت أذكر اسم كاتب الوقفية
 على ذكر السماحة والبذل فإن لكتابتها حكاية مشهورة في الجود
 والمطاء منذ ذلك العصر ولا يزال للخلع التي خلعت على كاتبها بقايا
 الى اليوم عند أهل موذريته وهو المرحوم الشيخ فلان فذكرنا
 وأصحاب القضية فاتفق معهم لوضع هذا الاسم في ورقة النمرة والتاريخ
 وجئنا بها نأفحة تشفع لنا أجمعين والله ينفعنا بنفع المسلمين
 (الغلام لعيسى بن هشام) - قد تيسرت الحال يا ذن الله ووصلنا
 الى معرفة اسم الكاتب الذي تُستخرج به الصورة . والرأى لك في
 هذه الخطوة السادسة

قال عيسى بن هشام - ثم انطلق الغلام أمامي يسحبني وراءه حتى
 خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات الى النور فجهرت^(١) عيني
 وسدّرت^(٢) فلم أبصر في الشمس عند الباب الا بعد التردد مراراً

بينها وبين الظلام . ولما التقيتُ بالباشا في الموضع الذي كان ينتظرني به . سألتني عن طول هذا الغياب فلم أَرِدْ أَنْ أَضِيفَ إِلَى مَصَائِبِهِ مَصِيبَةً أُخْرَى بِوصف ما كنت فيه بل كتبت له إياه وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على أن يباشر وضع اسم الكاتب في الورقة ويعود في اليوم الثاني إلى الشيخ الكاتب ليأتينا بصورة الوقفية بعد أن نقدناه ما نقدناه .

ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام ومضت الشهور ونحن نتردد على الدفترخانة تارة في صحبة الغلام وتارة بدونه إلى أن حل الأجل وأن الأوان فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ففرحنا فرح النواص يدُرَّة التاج تحت تلاطم الأمواج . ونهضنا معه إلى الدفترخانة فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتية إعجاباً بمهارته في الاهتداء عليها مع قصر الوقت ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجدة . فخدمناه على همته العالية وصنعه الجميل فأخرج من تحت إبطه أوراقاً بالية متخرقة متأكلة لا تستوي نهوارة مع اختفائها في أسطور متقطعة وخطوط متوزعة لا يستطيع أن يحلها إلا من كان عريقاً في كشف الرموز وفك التباس . فقلت له إن الاهتداء إلى نقل صورة مفهومة من هذه الأوراق لأعظم مشقة وأدهى

بلدية من الاهتداء على مومنها من تلك الصحراء المظلمة فقال
لى ان كثرة التعمود تيسر المسير وتهون الصعب وقد ورثت عن
المرحوم والذى أيضاً قراءة هذه الخطوط وتلقيق مارت من أواخر
السطور . والعبارة واحدة لا تتغير تقريباً فى كل باب من أبواب
السجلات . ورأيت أنه يستعد ليسترسل فى أبواب الشرح والوصف
وخفت أن تشتد به نوبة الهذروالا كثار فودعناه وانصرفنا وكلفنا
غلام المحامى أن يأتى لنا بالصورة من عنده بعد انتهائهم فطلب منا
ان ندفع « رسمها » وأن تأتى بشاهدين يشهدان علينا باستلامها و وعدنا
بأنه ينوب عنا فى اجتلابهما بعد أن طالبنا بالكفاة الواسعة . على
هذه الخطوة السابعة



﴿ المحكمة الشرعية ﴾

قال عيسى بن هشام - ولما صارت فى يدنا الصورة . بعد تلك
المواقف المذكورة . خطأ غلامنا الثامنة من خطواته . فى بعض
روحاته الى المحكمة وغدواته . فذهب الى كاتب « الطلبات » .
لتحديد إحدى الجلسات . ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع
الرئيس . على أن تكون الجلسة فى يوم الخميس . وأنه حرر « طلباً »

لحضور الخوصوم . في الوقت المعلوم . فأقننا أيا ما نعال النفس بالامل .
حتى حل هذا الأجل . وسمح لنا الطالع بطلمة الشيخ الحامى ولقائه .
بعد طول احتجابه عنا واختفائه . ورضى ان يتوجه معنا الى المحكمة .
ليكشف عنا يمينه كل مظلمة . فسرنا جميعاً نقصد بيت القضاء
الشرعى . والحكم الرضى . والعدل المقضى . بوحى الآله وسنة
النبي . حيث تقام منابر الهدى . وتشاد منائر التقى . وينبج نور
الحقيقة والعدالة . وتكشف ظلمة البدعة والضلالة . ويؤخذ من
الظالم المظلوم . ويُنتصف من الحاكم للمحكوم . ويُسار على الصراط
السوى . في الحكم بين الضعيف والقوى . - حيث تحدد المواقف
والالدام . وتستقيم الاوامر والاحكام . وتغدو فيه الشكلى ربة
الايتام . أعز من الفارس رب الرمح والحسام . ويصبح الأهزل
الشاكى . أقوى من المدجج الشاكى ^(١) . ويتساوى لديه رب الشؤنة
والبعير . رب التاج والسرير . - نعم حيث يكون المقعد للوروث . عن
النبى المبعوث . وحيث يعمل بالسنة وآى الكتاب . فيقتصر للذليل
على العزيز . ويقتدى فيه تارة بسيرة عمر بن الخطاب . وأخرى
بسيرة عمر بن عبد العزيز . وحيث يكون مقر المهابة والجلال .

(١) للمدجج اللابس لسلحه وكأنه تقطى به . والشاكى التام السلاح

ومصدر الوقار والكمال . وموضع الطهارة والامانة . ومنبع العفة والصيانة . وقبلة القنوت والخشوع . ومقام الطاعة والخضوع ولما وصلنا الى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدهجة بالمركبات . تجرها الجياد الصاهلات . وبجانها الراقصات من البغال والحير . عليها سُرجُ الفضة والحريز . نخسبناها مراكب للمظاهير والامراء . في بعض مواكب الزينة والبهاء . وسألنا لِمَنْ هذي الركاب . فقيل لنا إنها لجماعة الكتاب . فقلنا سبحان الملك الوهاب . وَمَنْ يرزق بغير حساب . ونَحَوْنَا نحو الباب . في تلك الرحاب . فوجدنا عليه شيخاً حَنَّتْ ظهره السنون . فَنَخَطَّتْهُ رُسُلُ النون . قد اجتمع عليه العَمَشُ والصَّم . وَلَجَّ به الخَرَفُ والسَّهْم . وعلمنا أنه حارسُ بيت القضاء . من نوازل القضاء . ثم صعدنا في السلم فوجدناه مزدحمًا بحملة أناس . مختلفي الاشكال والاجناس . يتساقطون ويتساقطون . ويتلاطمون . ويبرقون ويرعدون . ويهددون ويتوعدون . وأكثرهم آخذٌ بعضهم بتلايب بعض . يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الارض . ومازلنا نراهم على الصمود في الدَرَج . والعمائم تتساقط فوقنا وتتدحرج . حتى مَنَّ الله علينا بالفرج . ويسر لنا الخروج . في وسط هذا الجمع المتلاصق . والمأزق المتضايق . ووصلنا الى القاعة السفلى . فوجدناه

عندها امرأة حلي . تتقلب على الارض كالثعبان وتستشهد بالأهل والجيران . أن بعلمها أنكر حملها . وحاولنا أن نخطو خطوة الى الأمام . فلم نستطع من شدة الزحام . وكيف بالتقدم في عباب موج ملتطم . ومنحدر سيل مرتطم . من نساء صائحات موكولات . ونائحات ممولات . ونادبات باقيات . وصارخات شاقيات . كأنهن قائمات في مآثم على مدافن الاموات . تفرحت فيه العيون وبُحت الاصوات . وفيهن المسفرة والمنقنة . والمضطجعة والمتربعة . والحاسرة عن الذراع والرأس . وأختها أهليها في وهج الشمس . ومنهن الكاشفة عن نديها . ترضع طفلاً على يديها . وغيرها ترضع طفلين في حذاء . وزوجها يضرب رأسها بالحذاء . وأخرى آخذة بصفيرة ضرّتها . ورضيعها يتلف على ضرّتها . ومن يبنهن من يتقدّمها طليقها . ويتبعها عشيقها . تُشيعُ الاولى باللعن والسباب . وتغزى الثاني بكف مزدانة بالخضاب . ورأينا العقيلة المخدرة مع « الأغا » . لا يستطيع أن يحميها في حومة هذا الوفي . وشاهدنا في الجمع جماعة من فجّار الخلاء وتباع النساء يغازلون كل فانية هيفاء . وينامزون كل فادة غيداء .^(١) ويتعرضون لفض النزاع . بين ذوات اللقناع . وفصل العناد والشقاق . بين الطاعنات بالاحداق .

فتختلط غمزات الطرف . بهمزات الكف . فيزول ما هنالك من
الجدال والخصام . ويصيرون جميعاً الى الحسنى والرقيق من الكلام .
ورأينا في أريانة من غرائب البشاعة . وعجائب الشناعة . رجلاً وامرأة
يتسابقان في ألفاظ الفحش والهجر .^(١) ويتباذان في أقوال البذاءة .
والنكر . وهما يتجاذبان في أيديهما غلاماً . كأنما يحاولان له انقساماً .
ليأخذ كل منهما من أعضائه بنصيب . والغلام يبكي من شدة
الالم والتعذيب . فاستعدنا بالله السميع العليم . من موقف هذا الجحيم .
وسمعنا من أقطع ماسمعناه امرأة تنحب وتقول . وتقاها بماه العين .
مطلول : « لو كان للنساء قضاة من النساء . لما وصلنا الى هذه الحالة
التعساء . فان الرجال يملون لجنس الرجال . ويتناصرون لبعضهم على
ذوات الحبال » . فاستعنا برب المثاني :^(٢) وصعدنا في السلم الثاني .
فاذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت التل . أو خلايا النحل .
وانتهينا منه الى قاعة . ممتلئة بصنوف الباعة : هذا يصيح « الخبز
والخبز » . وذلك ينادي « الدخان والخبز » . وآخر يقول « الزبدة
والعسل » . وبعضهم يردد « الفول والبصل » . وبائع الضأن يفتش

(١) المهجر الفبيح من الكلام

(٢) المثاني آيات القرآن

بِسِكِّينِهِ جَاجِمِ الرُّؤُوسِ . وَالتَّلَاجُ يُصَفِّقُ بِأَكْوَاذِ «الْمَرْقُوسِ» .
 - وَهَنَّاكَ قَهْوَةً يَدْبُ فِيهَا الشُّهُودُ بِالمُشْرَاتِ . كَدِيدِبِ الحُشْرَاتِ .
 - فَيَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْخُصُومِ . لِلشَّهَادَةِ أَوِ التَّزْكِيَةِ بِأَجْرِ مَعْلُومٍ :
 - وَغُلَامَانُ المَحَامِينِ يَرُوحُونَ بَيْنَ الْجُوعِ وَيَغْدُونَ . فَيَمَكُرُونَ بِهِمْ
 - وَيَكِيدُونَ . وَيَتَقَلَّبُونَ بَيْنَ الْخُصُومِ وَيَحْتَالُونَ . فَيُخْدَعُونَ وَيُغْتَالُونَ .
 - وَدَخَلْنَا حَجْرَةً صَغِيرَةً مِنْ حُجُرَاتِ الْكُتَّابِ . فَتَارَ فِي وَجْهِهَا مَاعِلَى
 - أَطْبَاقِ البَاعَةِ مِنْ جَيْشِ الذِّبَابِ . فَرَجَعْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ . وَنَجُونَا مِنْ
 - الْأَوْصَابِ . ثُمَّ انْحَدَرْنَا مَعَ غُلَامِ المَحَامِي إِلَى حَجْرَةٍ كَبِيرَةٍ السَّاحَةِ .
 - فَقَالَ اجْلِسُوا هُنَا لِلِاسْتِرَاحَةِ . فَأَجْلَسْنَا فِي صَدْرِ الْمَكَانِ . بَيْنَ
 - الْكُتْبَةِ وَالغُلَامَانِ . وَلَا بَدَأَ كُلُّ كَاتِبٍ هُنَاكَ مِنْ غُلَامٍ . يَقُومُ
 - مَقَامَهُ فِي تَنْسِيقِ الْأَحْكَامِ . فَسَمِعْتُ الْكَاتِبَ الْجَالِسَ عَنِ الْيَمِينِ .
 - يَقْسِمُ عَلَى أَقْوَالِهِ بِكُلِّ يَمِينٍ . بِأَنَّهُ لَوْ لَا اعْتِرَاضُ مَرْكَبَاتِ الْكُهْرِبَاءِ
 - وَضَبِيقِ الْإِيدَانِ . لَمَّا تَأَخَّرَ حِمَارُهُ عَنْ حِمَارِ فُلَانٍ . وَصَمِعْتُ صَاحِبَهُ
 - نَجَابَتِهِ . يَحْلِفُ بِحَدِّهِ وَأَعَزِّ أَقْرَبِهِ . أَنَّهُ لَوْ لَا حَبْسُهُ لِلْعَنَانِ . اسْبَقَ
 - كُلَّ الْحَمِيرِ فِي يَوْمِ الرِّهَانِ . وَيَقُولُ لَهُ وَهُوَ يَتَأَنَّفُ فِي الْعِبَاءِ : « قَدْ
 - يَلْتَمِزُنَا عَنْ الْأَجْدَادِ وَالْآبَاءِ . أَنَّهُ إِذَا صَحَّتِ الشَّمْرَةُ الْخُضْرَاءُ . لَمْ يَتَعَلَّقْ
 - بِذَيْلِ الحِمَارِ المِهْوَاءِ » . ثُمَّ التَفَتْتُ ذَاتَ الشَّمَالِ فَوَجَدْتُ كَاتِبًا مِنْهُمْ

غض الشباب . عظيم التأنيق في لبس الثياب . فهو يتلأل ويتألق .
في سندس وإستبرق . كأنما خاطوا له فباءً من أزهار بستان مختلفة
الاشكال والالوان . يغم الأتوف بمطره . ويمبق الجو بنشره .
وأمامه رجل في يده صرة ثياب ينشرها ويطويها . فيأخذها «السيد»
منه ويرميها . ويقول له في حديثه . وشدة سورة :

(السيد) - هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبليها . وبئس المفصل

مفصلها

(الخياط) - كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن

الحجيد . أنها أوسع من ثياب السيد بن عبد العزيز وعبد الحميد

(السيد) - كذبت ورب الكعبة فان استدارة السكم ضيقة

والرقبة لا تنطبق على الزى الحاضر

(الخياط) - وماذا أصنع وذلك كل ما في عرض الحرير ولو

كنا على الزى القديم لدخل مع السيد في طي ثيابه . اثنان أو ثلاثة

من أصحابه

(أحد أصحاب القضايا) - صبح الله السيد بالخير والآنعام

(أحد الكتبة الظرفاء) - منكمنا - لا بل بالخليل والآنعام

(صاحب القضية) - أرجو سيدي أن يعطيني «الاعلام»

(السيد) - اذهب حتى يأتي الغلام
(الكاتب الظريف) مورتيا - عليك به في شارع أم الغلام .
تجده جالسا نصا تحت الاعلام

قال عيسى بن هشام - وعافت نفسي هذه النكت الباردة والممان
الساقطة فأعرضت عن الاصغاء . وسرحت طرفي في بقية الانحاء .
فرايت الكتبة كلهم يتفاهون ويتسامرون . هذا يلت في يده
أفيونه . وذاك يكور بين أصابعه معجونه . والفلان يشتغلون
تارة بأوراقهم . وطورا يتباحثون في أذواقهم . وأرباب الحاجات
بين أيديهم يقاسون سوء الرد . ومطل الوعد . وسمعت أحد
الكتبة يخاطب صاحب قضية . بالفاظ بذية . ويقول له : كيف
تمضى الغلام هذا المبلغ الزهيد . أتظنه كان لك من العبيد . أريد
أن يكتب لك ويتب . (وهو لا أجره له في الحكمة ولا مرتب .)
غير ربح ولا مكسب . ان هذا لمن أعجب العجب . وجاء رسول
القاضي يطلب أحد الكتبة الرؤساء . فوجده رافدا كالفساء .
فبعضهم أشار بتبنيه من غفلته . وقال بمضهم لا بل اتركوه في
رقدته . أنسيتم حكم مادته . بأنه لا يفيق من غفوته . قبل ان يسيل
الافيون مع الدم في دورته . ثم اتفق معهم الرسول . على ان يرجع فيقول

انني لم أجد الشيخ مكانه . وعلمت انه نزل الى الدفرخانة . ثم استيقظ الراقد بعد مدة فثأب وتمطى . ثم تذر وتغطى . ثم عاد الى ما كان فيه من السبات . وهو يشد للمعري من أبيات :
 وفضيلة النوم الخروجُ بأهله
 عن عالم هو بالآذَى محبوب
 ثم جاءهُ بائع كتبٍ وأوراق . فصاح به حتى أفاق . وقام بعون الله وحوله . يخاطب البائع بقوله :

(الكاتب) - هل أحضرت ما طلبته من الكتب

(البائع) - نعم جئت بكاتب قديمة . لا تقدر لها قيمة . منها كتاب « حل الرموز . لفتح الكنوز » . ومنها « أصول المراسم . في فك العلام » . ومنها « حسن ارشاد الناس . في استخراج الذهب من النحاس » . ومنها « القول المأثور . في تأثير البخور » . ومنها

(الكاتب) - ألم تعثر لي على كتاب في « الاستحضار »

(البائع) - نعم ممي كتابان أحدهما « قلائد اللؤلؤ والمرجان » . في استحضار الجن . والآخر « خير المواقيت . لرؤية العفاريات »
 (الكاتب) - بارك الله فيك وجزاك خيراً فان عندي نسخة مخروقة من هذا الكتاب الاخير فاصحبني الى البيت انقاها وانصحها

قال عيسى بن هشام - وقام هذا الكاتب مع البائع . وأتت أسخط على هذا الجهل الشائع . والعمل الضائع . وبيننا انا كذلك اذ أشار علينا غلام المحامي بالقيام فقد قرب أو انُ الجلِسة لقضيتنا فخرجنا فوقفنا عند باب الحجرة التي تمعقد فيها الجلِسة فرأينا الزحام خارجها وداخلها على أشد حاله وسممنا الحاجب ينادى تارة بصوت عالٍ وتارة بصوت منخفض فسألت الغلام عن ذلك فقال انه يُخفِض الصوت حتى لا يسمع أرباب الدعاوي النداء فتستقط القضية وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه وفوق ذلك فان للحجَّاب ان يُدخلوا الجلِسة من أرادوا ويحجبوا عنها من أرادوا . ثم نودى علينا فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضروا الغلام لنا فوجدنا الجلِسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء ورؤسهم وهم جلوس كل واحد منهم بمحل عن الآخر . وقد تمسر على ان أفهم كلام الباشا وهو يجاني يخاطبني لشدة الضوضاء وعلا الاصوات . ثم دخل كاتب الجلِسة يرقص في مشيته . وكأنه الطاووس في هيئته . فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره فوجدته قد تناول القلم بأطراف بانه يضعه في الدواة تارة ويضعه في أذنه أخرى ثم يهوي به فتدثيابه ويستغل بهس الأبر التي تشبك بها العمامة ثم ابتدأ وفي سماع القضية وتقدّم الباشا

مع الشهود فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم لكثرة الجلبّة والصياح
وانما رأيت الكاتب يكتب في دفتر الضبط - وكانما يكتب من
عنده - ما أتقله بحرفه وهو :

« استُحضر أمام الجلسة المدعى والمحامي والشهود فتقدم المدعى
وعرّف انه فلان بن فلان بن فلان وسمي شاهدي معرفته وهما
فلان بن فلان بن فلان وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة
الفلائية شياخة فلان بن فلان بن فلان وشهد كل منهما على انفراده
بأنه يعرف المدعى المذكور وأشار اليه بيده وهو فلان بن فلان بن
فلان المذكور ثم قال المدعى المذكور ان لي قبل فلان بن فلان بن
فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعوى والمدعى عليه لم
يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور في هذه الجلسة »
ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر في المستند فوقفنا
ناحية من الحجرة فننظر مع من ينتظر ثم نودى علينا بمديره فقه الوأ
لنا ان المحكمة تعامنا بنصوص المادة ٧٢ من اللائحة وهي تقضى -
على ما أختبرنا به المحامي - بالإعذار الى المدعى عليه وقال لا بد ان
نطلب ذلك من المحكمة لانه لا يـوغ لهما ان تُعذر الأبناء على
طلب المحامي فقدمنا الطلب. فتقرر ابعاد الإعذار والله يكتفيك شر

ما في هذه الدار . من الأفضية والافدار . وكثرة الموم والاكدار

﴿ قصر حفيد الباشا ﴾

قال عيسى بن هشام - ودخلنا - لا أدخل الله عليك طوارق النقم .
ولا أخرجك من طرائق النعم . - في دَوْر الإِذار يتبعه الإِذار .
والإِذار يتلوه الإِذار . ومندوبُ المحكمة يعود إلينا بالحلية .
في كل أوبة . زاعماً أن خدام الخصم لا يقابلونه إلا بالازدراء . كغيرهم
من خولِ أبناء الأُمراء . حتى وصلنا إلى حد الإِذار الأخير .
ورمينا المندوبَ بالإِهمال والتقصير . فرأينا أن نخبر خبره . وتقتفي
أثره . ونحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع . للاستخفاف برسول
الشرع . فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان . يشهدان بأنه أعذر
فلان بن فلان بن فلان . وقد أمسك الواحد منهم يكتف الآخر .
على هيئة تستفز كل هازي وساخر . وكلُّ منهم يخذل الأرض بحذائه .
ثم يعني الأثر بفضل ردائه . وهم ينتقلون في المشي من الدَّمِيل إلى
الرسيم إلى الوخيد .^(١) كأنهم مسرعون إلى جفنة ثريد ؛ ونحن من
خلفهم نخب ونهرول . ونُحْسِلُ ونُحوِّقِل . إلى أن كادوا يغيبون

(١) الدمِيل والرسيم والوخيد ضروب من الجير

عن البصر . وكذا نفقد منهم الأثر . لولا أن عثر أحدهم بقضبان
الكهرباء . فطاحت العمامة وأقلت الحذاء . فانقتل يلتمسها
ويلتمسه . فلم يرعه إلا السائق وجرسه . فالتحرك ولا انتقل .
حتى أدركته العجل . وكاد يداس ويقف على . لولا أن جذبته رفيقه
إليه لاخيل بين الرجل وبين عمامته ونعله . ووقف غبولا برأسه
ولا برجله . وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يثا . حتى صرت
عليهما المركبات الثلاث . فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس
والوجل . فبشرناه بسلامتهما فأغمّ بهما وانتعل . وحمد الله على
هذا اللطف في القضاء . وحمدناه على ما أتبع من التمويق والإبطاء
اذ تمكنا من اللحاق بهم . وقد رنا على استئناف السير في عقيمهم .
وقد انتهى السير بنا إلى قصر في سرة بستان . يزرى في
الحسن بقصور بغداد وعمدان . وقد ترصع البستان بأنواع
الازهار . كأنه محلى بصنوف اليواقيت والجواهر . والقصر في
وسطها كأنه الدرة البيضاء . أو البدر بين نجوم السماء :
كأنه جيد وبستانه من حوله عقد بذيع النظام
وما عساي أقول في وصف روض . قد نسجت يد الارض -
لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها . ونعمته رداء لها تحتال به في

حسن وونقها وبهجتها :

مؤزرة من صنعة الويل والندي

بونني ولا وشي وعصب ولا عصب^(١)

قد أغنى الفواني نسيمه الليل . من المسك الأذفر . وكفاها
ريحه الليل . تطرها بالطيب والعنبر :

بفرس كابر الجوارى وترية كأن ثمرها ماء ورد على مسك
ومنى العرائس أن لو اتخذت من نوار الأزهار . فصوصاً للخواتم
ومن الكام الأشجار . معاهد للنائم . وودها أن لو تازرت من
سندس أرضه بأهبي لزار ومرط^(٢) . وتحت من جوهر نباته
بأزهي شنف وترط

إذا ما الندي وافاه صبحاً تمألت أعالیه من درر نثير وجوهر
إذا قابله الشمس رد ضياءها عليها صقال الأحقوان المنور
وقامت فيه مشرات الافصاز قمام الكواعب الأثراب . ساقيات
بالأباريق والأكواب . ساكبات سور الطل من تلك الاقداح
مائسات من رحيق الندى ومداعبة الريح :

(١) العصب ضرب من البرود

(٢) المرط كساء من خز مؤزرة

شقائق يحملن الندى فكانه دموع التصابي في خدود الخرائد
 فاتحينا في هذا الروض منذ رأيتاه الا اننا في حفلة عرس . جمعت .
 أسباب اللهو وأطراف الانس . قد نصّب الدجن عليها سرادقه
 ومدّ مانف النبات فيها نمارقه ^(١) . وأشرقت في الاغصان الانوار .
 إشراق المصابيح بالانوار . وقامت الاطياف على الأعواد . تتسابق
 في الترنم والانشاد . فهي تغرد بألحان يقطع السامع لها حبل
 النفس . ويأنس اليها مستنفر الوحش المفترس ؛
 رأت زهراً غصافها جت بزمهر ^(٢) مثاير أحشاء لطفن رأوصال
 وللنسيم بين الشجر نغمات بالهفيف والحفيف . من ثقل في
 الضرب أو خفيف . تصفق لها أكف الاوراق . تقوم الأفنان
 للرقص على ساق . مترنحة الأعطاف من خر الندى . مهتزة القدود
 بغز الصبا . تبسم عن أقاح نصيد . يزرى بثنايا النيد . ثم تميل
 يرشيق القوام . فتلتقط ما ينقطعها به التمام . والجدول يجري تحت
 أذيالها ويتعثر . وينساب الماء في ظلالها ويتكسر . كأن حصباء
 اللؤلؤ والمرجان . في فحور الحسان . أروال العقبان . في أجساد القيان .

(١) انمرق الوساد

(٢) المزهر المود

تَرْوَعُ حَصَاهُ الْمَذَارَى قَتَلَسْ جَانِبَ الْعِقْدِ النُّظِيمِ
 سَوَاءً أَلْمُنَا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ طَرِبَا . وَتَضِينَا عَجِيبَا . فَلَنَا مَا شَاءَ اللَّهُ
 لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . مَا أَعْجَزَ الْخَلْقَ عَنْ شُكْرِ تَعْمَاهُ . وَإِذَا يَقُومُ عِنْدَ
 بَابِ الْقَصْرِ . كَانَهُمْ أَفْرَاحُ فِي مَخْلَبِ صَقَرٍ . تَعْلُو وَجُوهَهُمْ قَتَرَةٌ .
 تَرَهُّقُهَا غُبْرَةٌ . وَمِنْ بَيْنِ بَاكٍ وَمُنْتَحِبٍ . وَصَارِخٍ وَمُصْطَضِبٍ .
 خَفَرَسْتُ فِي هَيْئَاتِهِمْ . وَمِنْ يَذْكُرُونَ حَاجَاتِهِمْ . فَأَذْنَعُ جَمِيعًا فِي يَأْسٍ
 وَقُتُوطٍ . وَخِيبةٍ وَجُبُوطٍ . وَإِذَا الصِّيرْفِيُّ يَقُولُ . بِصَوْتِ الْمَقْهُورِ
 الْمَخْذُولِ :

(الصيرفي) - تَعْسَا لِي لَقَدْ خَاضَعَ مَالِي . وَذَهَبَتْ آمَالِي
 (التاجر) - وَيُؤْسَا لِي لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ بِهَذَا الْمَالِ . لَمْ أَتَمَّعْ فِي
 قَلَمِ الْجِبَالِ
 (البائع) - يَا وَيْحَ نَفْسِي اغْتَرَرْتُ بِالْمَقَامِ الْعَالِي . فَخَسِرْتُ
 رِزْقُ عِيَالِي
 (الجوهري) - وَيْلٌ لِمَنْ خَدَعَتْهُ الظُّلُومُ وَاهِرُ . فَضَاعَتْ
 عَلَيْهِ الْجَوَاهِرُ
 (الصيدلاني) - أَقْسَمْتُ لَا يَضِيغُ عِنْدَهُ مِنْ الدَّوَاءِ . وَلَوْ
 تَطَلَّقَ بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ

(الخمار) - تَبَأُّ لَهُ مِنْ عَمْتَالٍ مَالٌ عَلَى ذَنِّي . ثُمَّ اخْتَفَى عَنْ عَيْنِي
(انصاف) - اَنَا لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ حَقِّي . وَلَوْ وَضَعُوا السَّكِينَ .

على حاق

(الخياط) - وَأَنَا لَا أَتْرُكُ هَذَا الْبَابَ . حَتَّى أَمْرُقَ مَا عَلَيْهِ

من الثياب

(الاسكاف) - وَرَأْسُ أَبِيهِ وَجَدَهُ . لَا أَخْذَنْ ثَمَنَ الْأَحْذِيَةِ .

من جلده

(الحلاق) - أَنَا ابْنُ جَلَاءٍ وَطَلَاعِ الثَّنَائِيَا . وَلَمْ لَصْنَعْتِي مِنْ مَنَافِعٍ
وَمَزَايَا . وَلِيَتَنَّى كُنْتُ شَوَّهْتُ خَلْقَتَهُ . وَمَسَخْتُ سَحْنَتَهُ . فَتَفَتُّ
شَارِبَهُ . وَحَلَقْتُ حَاجِبَهُ . تَالَهُ لَا أَخْذَنْ بِنَا صِبْتِي هَذَا الثَّقِيلِ
الْبَارِدِ . وَلَا أُسَدِّنُ عَلَيْهِ الْمَصَادِرَ وَالْمَوَارِدَ . وَلَا أُزِمُّنُهُ صَبَاحَ مَسَاءٍ .
وَلَوْ حَاقَ فِي الْهَوَاءِ

كل هذا والخدم يكتمون وجود صاحب الدار . ويقسمون أنه
لم يبق لديه درهمٌ ولا دينار . وإذا همَّ أحدُ الغُرماء بالدخول منَعُوهُ .
أو دافَعُوهُمُ أَحَدُهُمْ دَفَعُوهُ . وَيَدْنَا نَحْنُ نَتَأَمَّلُ وَنَتَعَجَّبُ . وَتَبْقَى عَلَى
الْجُرِّ وَتَقْلَبُ . وَتَقَابِلُ بَيْنَ سَمَدِ الْمَكَانِ . وَنَحْسِ السَّكَنِ . إِذَا
بِرَجُلٍ أَفْرَنْجِيٍّ قَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ الْحَرَمِ . وَهُوَ يَأْتِيهِ غِيظًا

ويضطرم، ويقول للبواب برطائه، وسوء عبارته : لقد طالبتُهُ فأبان
الافلاسَ والمعجز . فلم يبق الا توقيع الحجز . واليك قائمة البيان
وحذار من التلف والنقصان . وما كاد « مُحضر المختاطة » ينتهى
ويذهب . حتى حضر « مُحضر الاهلية » ايهت من التعب . فلم للبواب
ورقة إنذار . فأخذها وهو يدعو بالثبور والدمار . وبِقَب ذلك
انصرف المحضر . وتبعه جميع مَنْ حضر . لاشتداد حرّ الظهيرة
وأرداها^(١) . وأَفْجَحَ الشمس للوجه بنارها . فانتزنا هذه الفرصة
فتحرك مندوبنا وتقدم . وخاطب البواب وهو يتلثم . فقال له أنا
مندوب المحكمة الشرعية . فقال له لم يكن ينقصنا الا هذه البلية .
ثم دفعه في صدره فردّه اليّنا بظهره . . بعد أن أخرَجنا من الجنان .
وأغلق باب البستان . فأخذ المندوب بيد الشاهدين وهو يتظلم
ويتضرر . ووقف بينهما ينادى في الهواء بالتداء المقرر :

« يافلان بن فلان بن فلان إن مولانا قاضى مصر يأمرك
بأن تحضر الى المحكمة فى يوم الخميس الآتى ، للنظر فى دعوى
اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان بن فلان وان
لم تحضر فى اليوم المذكور يُنصبُ عنك وكيلًا ويسمع الدعوى فى

(١) « وار حر الشمس والتار » .

وجهه ويحرم عليك غيائاً »

ثم ودّعنا المندوب والشاهدين وانصرفوا الى سبيلهم وبقيت
أنا والباشا في دهشة وذهول وحزن وأسف مما رأينا وسمعنا . ثم
استند الباشا الى سور البستان وشرع يقول لي وهو في تأمله وتفكره :
(الباشا) - مازالت بواطن الامور وحقائق الاشياء تتجلى لي على
وجهها منذ غمرني الدهر في هذه المشكلات والخطوب حتى تحققت
اليوم بأن أمور هذه الدنيا إنما تجري كلها على التضليل والبهتان وتدور
على التزوير والبطلان وتنطوى على النش والتدليس . فبالله عليك من
ذا الذي يرى هذا القصر بزنته وبهجته وخدمه وحشمه ولا يتولاه
الحسد لساكنيه والتطلع الى حسن حظهم وسعادة عيشهم ثم يرجع
الى نفسه فيسخط على حظه من الدنيا ويندب نصيبه من الحياة
وسوء قسمته في العالم

(عيسى بن هشام) - لازلت ترى الحق وتقول الصدق بما يتسم
لك من سبل الهداية والحكمة . نعم ان جلّ من نراهم من النعمين
الترفين والأغنياء المرسرين لو كشفت عن باطن أصرهم وحقيقة
أحوالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجدران لو قفت على ما يوجب
الأسف والأسى ويدعو الى الرحمة والشفقة لا ما يدفع الى الحسد

والغبطة ولا يقنت أن الرجل الأجير الذى يستخرج قوت يومه
منغمساً بعرق جبينه هو أسعد منهم حالاً وأنهم بالآ . والغالب أنه
كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً كان باطنه مُقْتَمِماً مظلماً . وأشدُّ
ما يكون من البلاء على أهل هذه الطبقة أنهم يقضون اوقات حياتهم
فى الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع فيكون الواحد منهم
غريقاً فى بحور المصوم والاكدار وتراه يقمر نفسه بين الملاء على
التظاهر بالسرور والانشراح ، وأكثر ما يكون فى الضيق والافلاس
تراه يتعرض للتبذير والاتفاق فهو على الدوام يتقلب بين الضيقين
ضيق العيش وضيق النفس . وان كان عظيم الثروة كثير الغنى فانه
لاغنى ع ازدياد الحاجات ولا مال يكفى مع تجدد الرغبات ،
(الباشا) - قد كانت الحال فى أيامنا على العكس . ان كان لايسرك
من الرجل ظاهر حاله فانه يرضيك باطن أمره وربما كان يجتهد فى
التظاهر بلباس الفقر اذا بلغ حد الغنى ويبدى الشكوى اذا
أسر الرضى .

قال عيسى بن هشام - وقضينا برهة فى مثل هذا الحديث وأنا
متهلل مستبشر بما أراه ينمو ويثمر فى نفس الباشا من التعلق
بالمباحث العقلية والتعمق فى معرفة الاخلاق النفسانية حتى صار من

كَيْدَنِي أَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْ كُلِّ حَادِثَةٍ يَشَاهِدُهَا مَا يَرْتَقِي بِهِ إِلَى عَالَمِ
الْفَضِيلَةِ وَالْحِكْمَةِ وَازْدَدْتُ يَقِينًا أَنَّ الرَّجُلَ الْمُرْتَقِعَ الْقَدْرَ لَا يَزَالُ
غَرًّا بِالْأُمُورِ غَافِلًا عَنْ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ فَإِذَا وَقَعَ فِي أَثَرِكَ
الْخُطُوبِ اسْتَبَارَتْ بَصِيرَتُهُ وَاسْتَضَاءَتْ قَرِيحَتُهُ وَعَلِمَ بِطُلَانِ
مَا كَانَ فِيهِ بِحَقِيقَةٍ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ

ثُمَّ حَانَتْ مِنَّا التَّفَاتَةُ إِلَى مَا وَرَاءَ السُّورِ فَأَيُّ خَدَمِ الْبَيْتِ وَحُشْمِهِ
قَدْ اجْتَمَعُوا حَلْقَةً وَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ وَيُجَادِلُونَ فَسَمِعْنَا الْبُيُوتَ
يَبْتَدِي فَيَقُولُ :

(البواب) - لَيْتَ أُمِّي لَمْ تُلِدْنِي وَلَيْتَ أَبِي لَمْ يَلْمُنِي رَسْمَ الْخَطِّ فَقَدْ كَلَّتْ
يَدِي وَحَفِيَ قَلَمِي مِنْ طَوْلِ التَّوْقِيعِ بِالْإِسْتِلَامِ عَلَى الْإِنذَارَاتِ وَالْمَحَاضِرِ
فَقَلَمًا يَعْضِي يَوْمَ الْآوَلَى فِيهِ مِنَ التَّوْقِيعَاتِ مَا لَيْسَ لِرَبِّسِ قَلَمٍ فِي دِيْوَانٍ .
فَبُئِثَتِ الْمَعِيشَةُ مَعِيشَتِي وَبُئِثَ الْخَطُّ حَظِّي وَلَيْتَنِي كُنْتُ قَادِرًا عَلَى
الْإِنْضِمَامِ إِلَى صَفِّ هَؤُلَاءِ الْمَطَالِبِينَ وَالْغُرَمَاءِ فَأَخْلَصَ بِحُزْنٍ مِنْ أَجْرِ
الشُّهُورِ الْمَتْرَاكَةِ وَمَنْ لِي بِالنَّبَاعِدِ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي انْتَشَرَفِيهِ
جَرَادُ الْحَبْزِ وَأَزْعَجْتُ مَنْ فِيهِ أَصْوَاتُ الْغُرَمَاءِ وَأَزْعَجَنِي تَرْدُّ
الْمَحْضَرِينَ عَلَى صَنْدُوقِ ثِيَابِي

(الكاتب) - لَسْتُ أَدْرِي وَاللَّهِ مَا يَضْنَعُ صَاحِبُ الْبَيْتِ وَمَاذَا

تمتال لحالته وكيف لنا بالمعيشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل : وإن صدق ظني كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه في سوء العواقب . فقد أحسست من كثرة حر كته واضطرابه في هذه الأيام انه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختتم أمره بأقبح الخواتم . ويعلم الله انه لو لا ما أتتبطه في أشغاله من هنا ومن هناك لما تيسر لي القيام بقوت عيالي بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور . وقد دعاني هذا الأمير أمس وأعطاني خاتماً من الياقوت لا ييمه فذهبت به الى الجوهري الذي كنا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيه فلم يدنع لي فيه الا خمسة وعشرين فيمته إياه وعدت للأمير بالدرهم فكأنما فككت الأسير من القيد وأنقذت الفريق من الأبح (الوصيف) — الآن انحل ما كان مشكلاً وانكشف لي ما كان غامضاً فاني رأيت معه أمس ذهباً كثيراً لم أهد الى مودده أعطاني منه عشرة جنيهات وأمرني أن ابتاع من أخيه هذا الكلب الذي تروونه مؤلماً بملاعبته منذ الصباح .

(الفراءش) — وأنا اشتريت له من صهره تلك الينباء بخمسة جنيهات وأخذت له غرفة في « تياترو الاوبره » بثلاثة وزجاجة عطر بأثنين

(الكاتب) - فلى هذا لم يبق معه الا خمسة جنيهات ولا بد أن
أبذّر في الحال اطالبته بانجاز الوعد الذي وعدته لصاحب الجريدة
المعلومة حتى يسكت عنه ويكفّ عن التعرض له

(السائق) - وأنا أذهب اليه أيضا لأخذ منه ثمن الريش
والاسفنج الذي وعدني به مادام معه من الدراهم بقية

(الخصي) - انكم لفي نعمة وغبطة بما تنالونه من وراء هذا البيع
وهذا الشراء من الربح ولكن غيركم من الخدم في الحرم قد اقتنعوا
من العيش يسير الاكل والشرب من غير أجر وصبر ناعلى هذه

الحال وفاء بالعهد لأهل البيت. وباليث هذه النعمة تدوم فقد سمعتم
اليوم وعيد حضرة البك الجزار كما سمعتم أمس بانذار البك الخباز
(السقاء) - ما أظن أن لنا حيلة نلجأ اليها في آخر الامر الا أن

نطلب منه احالة أرفاقنا على ربع الوقف الذي سلم وحده من الحجز
(البواب) - لقد خاب ظنك وضاع أملك فان هذا الوقف الذي
كنّا نرأسه عليه قد دخل في دور القضايا والدواوى وجاء اليوم

مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الاخير ومن يعلم ماذا يكون
من أمره

وسمنا الجرس يدق من جانب الحرم فتشتت الجمع نحو المطبخ

لحلول وقت الغداء فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا
 قال عيسى بن هشام - وحل اليوم الموعد لجلستنا في المحكمة
 الشرعية فتوجهنا اليها ولم يحضر للمدعي عليه كمادة ولما فتحت الجلسة
 تقدمنا اليها وشهدا ما هما شهدا المعروف ثم اطلع الاعضاء على الاعذارات
 الثلاثة فوجدوها جامعة للشروط المقررة فأمر وأبان أن ينصب للمدعي
 عليه وكيل يكون موثقاً بأمانته معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين
 فاخترنا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعي عليه ثم أخذ
 عايميناً ينظر في ضرورة الوقفية التي استخرجناها من الدفترخانه ليعدد
 الاعيان فلم يجد فيها جميع ما عددناه له بل وجد منها جزءاً قليلاً لا
 يقوم بالتعب في اقامة القضية وخشي أن المحكمة لا تحكم لنا بنين
 العيين في «الصورة» من العقار فتضيع علينا بقية الحقوق فطلب من
 الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك
 الاعيان الموقوفة فوافقهُ الوكيل المنصوب للغائب فتأجلت القضية
 الى ما بعد الفسحة التضائية من العام
 وخرجنا من الجلسة مع الحامي وقد فتح له ولغلامه باب احتيال
 جديد. وما سأله عن المظان التي تنبئنا عن بقية اعيان الوتف تلكاً
 في الجواب ثم أحالنا على الغلام وتركنا معه وانصرف . فقال لنا

للإسلام لا مظنة عندنا غير ديوان الاوقاف لانه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الاعيان وطلب منا أن نتفق معه على أجر معلوم للسمي وراء هذا الغرض . فوافقناه على هذا المطلب الجديد . والله يفعل بنا ما يريد

﴿ الطب والاطباء ﴾

قال عيسى بن هشام - ولما حال أمرنا من الحكمة الى الاوقاف . وأيقن الباشا بما هنالك من قلة الانصاف . وأنه لا بد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء . ونكرر الدعاء والنداء . ونكثر من الغدو والرواح . في كل مساء وصباح . فنبلي في هذا الديوان جدّة الزمن . ونقف عليه وقوف العاشق على الدّمن . لما هو مستفيض من اختلال أعماقه . واعتلال عماله . وفساد إدارته . وسوء نظارته . - نزل به من الهم والنغم . ما أورثه الضني والسّقم . وحل به من الحزن والكمد . ما أخلّ بنظام الجسد . ففداه زيلًا نحيلا . ووقع مرهضًا عليلًا . فأشرت عليه بالطبيب . قال يخطئ ولا يصيب . وماذا يجدي العلاج وما يفيد . وللاّجال توقيت وتحديد . فأقنعتُه بأن الاعتقاد بتحديد الأجل . لا يمنع من مداواة العليل . وسبحان من أرشدنا

الى الدواء . عند حلول الداء . لالتماس الشفاء . فقبل لشارتي بعد طول الالباء . فجننت له بأحد الاطباء . من ذوى الشهرة بالبراعة . فى ممارسة الصناعة . فجالس بجانبه يحس نبضه ويقرع صدره . ثم استلم قلبه وولاه ظهره . وأخذ يرقم أصناف العلاج . بيد دائمة الاختلاج . ثم قال ، دونكم هذا الدواء . جرة فى الصباح وأخرى فى المساء . ولا تأخذوه الا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن . لا يغش فى التركيب ولا يغلى فى الثمن . ثم وقف عند المراة يسوى مفرق شعره . ويصقل ما استطال من ظفره . ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب . بنظر مستراب . كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجاب . من آنسة فى الخدر أو كتاب . ولما عوزته ما تفقده . طلب أن يغسل يده . وقال انى أرى حالة المريض شديدة . تقضى بعماذته أياماً عديدة . حتى ينتهى المرض من شدته . ويتلطف من حدته ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود . ودرجة الحرارة لا تنفث فى صعود . والمريض يهذى فى شدة حماه . وأناً تغرع وارحماء . حتى كدت أياأس من الشفاء . وأسلم لحكم القضاء . ولكن زارنى أحد الاصدقاء . ممن يولعون بالطب والاطباء . فقال لى وهو يبصر حالته : ، ن الطبيب الذى يعالج عمتك . فقلت هو الشهير فلان . قال علمت

السبب الآن. وأنا أنصحك أن لا تعتمد في الطب. الا على أطباء الغرب
أولئك قوم قد برعوا في معرفة الامراض . وتشخيص الاعراض .
وأحاطوا بكل جليل وحثير . من البسائط والعقاقير . فلا أدواء لا
تستعصى في أيديهم . وليس بين الوطنيين من يماثلهم أويدا انهم . وأنا
أتيك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلماً . وأشهر صيتاً وإسماً . وقام فماد
بأجنبي بهذا الارض بخطواته . ويكثر من إشاراته ولقناته . فتقدم
نحو المريض فجلس . ثم قطب وعبس . ووضع ظرف منديله على
أنفه . وقال لنا في صكفه وعنفه ان هواء الغرفة فاسدٌ قتال . وداء المريض
داء عضال . ولا رجاء الا باتباع اشارته . في تواتر زيارته . ثم هزأ بما
رآه من دواء الطبيب لأول . بعد أن كتب علاجه بوصف مطول .
وقال لا يحسن تركيب هذه الاجزاء . الا صاحب «صيدلية الشفاء» .
وما زال هذا الطبيب أيضاً يذهب ويحضر . والعلاج يتجدد ويتكرر .
والمريض يتألم ويتضجر . والمرض باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر . حتى جاء في
خاطري أن أجمع منهم جماعة للاستشارة والداولة . فنخلص من هذه
المرأغة والمطاوله . فلما اجتمعوا وقعوا في الحجاج واللجاج . ولم
يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير العلاج . وأقام كل واحد منهم
منفرداً برأيه . لا يهتدى إلا بهديه . وسمعت يدينهم من يقول لرقيقه .

لا ينبغي ان نوافق فلان في تحقيقه. كما أنه لم يوافقنا على رأينا في الاستشارة الماضية . وانكر علينا جميع أدويةنا الشافية

ثم خلفوني ونزلوا على الخلاف. وان كانوا اتفقوا في تناول الاجرة عند الانصراف . وكنت شاهدت بينهم طبيباً يظهر نفوره من طريقتهم . ويجري معهم على غير حالتهم . فأرسلت في أثره من دعاء . وكشفته بأنني اخترته على سواء . فقال لي ان علة المريض بسيطة فيما أراه . لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه . ولعلها ناشئة عن انفعالات نفسانية . من هموم فجائية . فقلت له نعم أصبت في النظر . ثم أخبرته بمجمل الخبر . فقال الآن تبين ان معالجة الاطباء . كانت بغير اعتناء . ولا يلزم لمعالجه الا الامتناع عن هذه المركبات . والاكتفاء ببعض البسائط من النبات . مع جودة الغذاء . وتبديل الهواء . فأيقنا حينئذ بمهارته . وسلمنا لإشارته . فلم يمض الا بضعة أيام حتى انتقلنا من دور السقم والاعتلال . الى دور النقاهة والابلال . وجلس الباشا ذات يوم الى الطبيب يشكره على حذقه وبراعته . ومحاورنا في الحديث على حسب مآذيه :

(الباشا) - كيف اهتديت أيتها الطبيب الى ما لم يهتد اليه سواك

من الاطباء فأدركت سبب علتي وأحسنّت كشخيص مرضي
وأصبحت في اختيار العلاج فكان الشفاء . لاشك عندي أنك نادرة
عصرك وناطقة زمانك

(الطبيب) — لافضل لي يستحق كل هذا المدح والثناء
والسبب في خطأ الاطباء أن العدد الأعظم منهم يسيرون في ممارسة
صنائعهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قوررتها المادة فيهم فهم
لا يتخطونها ولا يتعدونها فترى كل واحد منهم يحصر في ذهنه عدة
أمراض معلومة وعالٍ معروفة فيطبق عليها كل ما يراه من
الأعراض التي تظهر له في عامة المرضى . والأعراض تختلف
وتشتبه — فيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المعين لذلك المرض
المعين بقطع النظر عن الفحص والتأمل في حال المريض أو البحث
والتدقيق في معرفة الاسباب المادية والادوية التي يرجع منشأ
المرض اليها ولا يكاف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من .
الاحوال فيعيش في أسر العادة وقيد الطريقة لا يعبأ بالبحث في
اختلاف الامزجة وتباين الفرائز وتفاوت المعاش وتنابير القوى
في البنى فلذلك يكثر منهم الخطأ ويقل الصواب
(عيسى بن هشام) — كأنك تريد أنهم يكونون على مثل

حال أهل الصناعات الآتية الذين يحل فيهم مجرى المادة محل إعمال
الفكرة فتنتقل أيديهم على وجه واحد وتنصرف أفكارهم عن
التصرف أو التفنن في وجوه شتى

(الطبيب) - نعم لقد أصبت في التشبيه . وغير ذلك فإن
بين هؤلاء الأطباء مَنْ لا يرى في صناعته إلا آلة لاجتلاب الرزق
واصطياد الربح واستمزاز الدرهم والدينار حتى يصلوا إلى اكتناز
الأموال ويصبحوا في مصاف أهل الفنى والثراء لا يبالى أحدهم أى
باب طرق ولا أى مَبِيل قُصد للتوصل إلى هذا الغرض المطلوب
فكل الوسائط لديه مقبولة وكل الطرق عنده مسلوكة فهو يدخل
على المريض طامعاً في ماله لا طامعاً في شفاؤه فيجتال له أنواع الحيل
لتطول مدته في المرض فيتسع نصيبه في الأجرة فيعطيه من أصناف
الأدوية ما لا ينفع ولا يضر استغفر الله بل ما يضر ولا ينفع ليبقى
المريض في حاجة دائمة إلى تجديد العيادة والزيارة وفي كل مرة يصف
له نوعاً حديثاً وصنعاً جديداً من المركبات التى يعظم ثمنها بمقدار
ما يقل نفقها وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر
العيادات يرصده له الصيدلى في دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك
الائتمان الفادحة لتلك الأدوية المتكررة . فيضرب الطبيب في

صناعاته بِقَدَحَيْنِ . وَيَصِيبُ فِي الْكَسْبِ بِسَهْمَيْنِ . بَعْدَ أَنْ يَمْلَأَ
بُحُوفَ الْعَيْلِ مِنْ كُلِّ دَوَاءٍ ضَارٍّ ، وَيُخْلِى كَيْسَهُ مِنْ كُلِّ فِضَّةٍ وَنُضَارٍ
وَمِنْ أَوْلَئِكَ الْأَطْبَاءُ مَنْ يَجْمَلُ هَمَّهُ بِهَرَفٍ إِلَى الْإِبْدَاعِ وَالتَّفَنُّنِ .
فِي وَجْهِهِ التَّزْيِينُ وَالتَّزْيِينُ . وَيَسْلُكُ سَبِيلَ التَّصَنُّعِ وَالتَّكَلُّفِ . فِي
أَبْوَابِ التَّظَرُّفِ وَالتَّنَاطُفِ : ثُمَّ يَتَفَتَّنُ مَا اسْتَطَاعَ فِي حَسَنِ الْمَحَاضِرَةِ .
وَيَتَعَمَّدُ رَقَّةَ الْجَدِيثِ وَالسَّامِرَةِ . وَيَتَقَلَّبُ فِي أُسَالِيبِ الْمُؤَانِسَةِ
وَالْمُجَامَلَةِ . وَأَفَانِينَ الْمَغَامَرَةِ وَالْمَغَاذِلَةِ . لِيَقِيمَ لَهُ بَيْنَ النِّسَاءِ بِضَاعَةً
رَانِجَةً ، وَسَوْقًا رَاجِحَةً . فَيَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ مَحَلَّ الْجَالِسِ الْمَحْبُوبِ
وَالْأَيْدِيسِ الْمَطْلُوبِ . وَيَنْزِلُ مِنْ رَبَاتِ الْخُدُورِ بِمَنْزِلَةِ الْمَحَبِّ الْمُبَكَّرَمِ
وَيَكُونُ بَيْنَ مَقْصُورَاتِ الْقُصُورِ أَكْرَمَ زَائِرٍ فِي أَرْحَبِ مَنْزِلٍ .
وَالنِّسَاءُ لَا يَمْنَعُنَّ الْعَلَاتِ . عَلَى الْعَلَاتِ . وَلَا تَمُوزُهُنَّ الْعَالِ . فِي
اخْتِرَاعِ الْعَمَلِ . لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَتْ دَعْوَى الْمَرَضِ . تَذْنِي مِنْ نَيْلِ الْفَرَضِ .
فَيَكُونُ لِلطَّيِّبِ يَدْنُهُنَّ زِيَارَاتٍ وَعِيَادَاتٍ . وَدُرُوحَاتٍ وَغَدَوَاتٍ .
وَالطَّيِّبُ كَمَا يَعْلَمُ النَّاسُ مُؤْتَمِنُ الْجَانِبِ . يُؤْتَمِنُ فَوْقَ الْإِهْلِ وَالْأَقَارِبِ .
تَتَفْتَحُ أَمَامَهُ الْأَبْوَابُ . وَيُسَكِّشُ مِنْ دُونِهِ الْحُجَابُ . فَتَرَى لَهُ
زُرَّةَ بَيْنِ كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ . تُسَكِّبُ لَهُ بِوَأْفَرِ الْأَجْرِ وَسَوْءِ الْجَزَائِفِ .
بِوَأْفَرِ الْأَجْرِ فِي دَفْتَرِ حِسَابِهِ . وَبِسَوْءِ الْجَزَائِمِ يَوْمَ عَرْضِهِ وَحِسَابِهِ

ومنهم من يتطاع الى ما فرق ذلك فيقطع في ثروة البيت باكتها
 حوفي حيازة الاموال بأجمعها فيديم التردد ويؤالى العشرة ويحكم الصلة
 . ويلحم الخلطة حتى اذا تأربت عمدة الحبل تم الاتفاق بينه وبين ربة
 البيت وصاحبة المتاع على الأهل بها لا التفات هناك الى تفاوت
 الاقدار ولا عناية بوجوه الكفاءة فتصبح له حليلة . بعد ان كانت
 خلية . وينتهي ما كان من أمر الداء والملاج . بما تم من أمر
 العقد والزواج

(عيسى بن هشام) - الآن تبين لي ما كان علي غامضاً واتضح ما
 كان مبهماً من أمر الطيبين للذين كانوا يماجان الباشا في كثرة الزيارة
 . وقلة نفع الدواء وشدة التدقيق في تعيين الصيدلية وطول استراق
 النظر لما وراء الحجاب

(الطبيب) - أجل . هذا هو حال بعض الأطباء مع الأعلأ
 . وأشبه الأعلأ . فاما حالهم مع الاصحاء وذوى السلامة من بعض
 الخلق فهو أعجب وأغرب . وما يغرب عنك أن كثيرآ من المولعين
 بسوء التقليد للغريين والمتهاكين على حب التظاهر بمظهر الرفه
 والترف ينفذون في الاحتياط لا بدانهم ويبالغون في التوقي لاجسامهم
 فينمو فيهم وسواس المرض والسقم فتراهم يتوجسون من كل أكلة

شرا . ويشوقون من كل شربة ضرا . ويخيلون ان في كل لقمة
 تحمة . وفي كل جرعة غصة . فلا يتناولون قدحا من الماء . أو
 يستنشقون نفسا من الهواء : الا وفي اعتقادهم انه لا يخلو من كل
 هامة سامة . أو جرثومة ضارة . ولا يزالون على هذه الحال حتى
 يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكّل والمشرب ويُمعدوا ما
 ما استطاعوا من طرق الحمية من غير علة ولا داء فيبدلوا الماء
 الزلال بالماء المعدني ويهجروا الاغذية المناسبة لتركيب الجسم
 وقوام البدن الى الاطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج
 أبدانهم فيضطرب نظام التركيب وتضعف البنية ويصبح كل واحد
 منهم جازما بأن به داء دفيناً وما به من داء وعلة كامنّة وما به من علة
 فيشكوا أمره الى الطبيب فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهم
 وخياله في اختلاق علة له واختراع مرض دون ان يفحص أمره أو
 يلوخبره فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفرع ويوالي عليه
 الطبيب ما يوالي من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة
 والمركبات الحادة فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء
 أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء . ويتقيد المسكين
 بمعيشة لا تناسب غريزة البنية ولا فطرة المولد ولا طبيعة الاقليم ولا

توافق الآ من جدت عروق آبائه تحت جليده لوندريه لا من ذابت
مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة . فلا يلبث ان يأتي على ما بقي في
الجسم من قوة وما في البدن من صحة ويمش ان عاش في يد الطيب
حيا كيت . ويكون بين الاموات والاحياء . لا من هؤلاء ولا
من هؤلاء . الى ان يلحد في لحده . شهيد طيبه وقتيل يده . وهناك
يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بسواد المداد . ما كتب على
قبر عظيم من قدماء القواد : « لم تُمتنى قوة الاعداء . وانما أهلكنى
قوة الاطباء »

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى الماده فأصبحنا لا نرى في جمهور
من زاهم من المترفين المقلدين الا شاكيًا من ألم أو متألمًا من مرض
فراجت سوق الطب وعظم عدد الاطباء وغدت حوانيت الصيدلة
في الاسواق اكثر عددًا من حوانيت الخبازين والقصابين . وصار
من متاع البيت وجهاز العروس صناديق الدواء وآنية العلاج وقلَّ
ان تجد اليوم بيتًا خاليًا من مريض ولا مجلسًا ليس فيه من سقيم
(عيسى بن هشام) - كأنك تحاول أيها الطيب الآسى أن تقنعنا
بقوة البرهان وجليّ البيان ان لا فائدة من الطب ولا منفعة في الاطباء
(الاطباء) - حاشا لشك أن يشته عليه القصد وأن يذهب بقولي

خلاف مذهبه وما قصدت بكلامى هذا كله الآن أظهر عيب بعض
 الاطباء فى ممارسة صناعتهم دون التعرض لصناعة الطب فى ذاتها .
 على انه يمكننى ان أضيف الى ما قلته ما قد قيل من قبل وهو أن العلم
 علمان علم تستنير به البصائر وتهتدى به العقول فهو جميل الاثر .
 محمود الورد والصدر . وعلم تصدأ منه الافهام . وتضل به الاحلام .
 فهو وبى المرعى . سبي العقبى . وكذلك الطب طبان طب يصحح
 الاجسام . ويشفى الأسقام . فهو عظيم النفع جليل القدر . وطب
 يورث الامراض ويولد الادواء فهو شديد الوطء عظيم الضرر .
 ومدار الامر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار
 والتفريق بين الطيب والخبيث . ولا تتوهم أنى أيضا انى أتناول
 بكلامى جماعة الاطباء قاطبة فان فيهم الصالح كما أن فى فيهم الطالح
 ولكننى أعنى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة
 الصناعة مع الجهل بها أو يتعمدون الحيل وينصبون الاشراك حتى
 يمتل جسم الصحيح ويزم من مرض المريض ليكون لهم من وراء
 ذلك ما يسد بعض شرهم فى الفنى واليسار . وما أولى سائر
 الناس بأن يثبتوا يدينهم عادة أهل الصين فى معاملة مثل هؤلاء
 الاطباء . وذلك أنهم يجرون على أطباهم المطاء ماداموا أصحاء فإذا

نزل بأحدهم المرض انقطع المطاء عن الطبيب حتى يعود المريض الى
سلامته فيكون من مصلحة الاطباء على الدوام ان تطول مدة السلامة
وتقصر مدة العلة على خلاف الحال بيننا

وما ينبغي ان ينصرف شيء مما قلته الى بقية أهل الصناعة من
ذوى الحدق والامانة الذين يوفون للصناعة حقها ويؤدون الواجب
عليهم فيها حق أدائهم والذين يراعون في ممارستها ما يكون من تفاوت
الاحوال في الدمل والامراض وما تقضي به أحكام البلاد والامادات
واختلاف الامزجة والطبائع والذين يعملون لانفسهم من حسن
تبصرتهم وكثرة تجربتهم عدة حاضرة لمقاومة الامراض وصحة
تشخيص الأدوية واطف تناسب العلاج وحسن الارشاد لرفع
الوسواس ودفع الخيال وما يجري هذا الجرى من استعمال ما يليق
بأهل الاقليم الحار مما لا يليق الا بأهل الاقليم البارد واجتناب
مالا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجردة لطبائع
أهل البلاد الغربية . ولقد طالما سمعت عن أشياخي في الصناعة أنه
يجب على الطبيب في مصر ان يختار ما يكون من الادوية وغيرها
التي قوة حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفة ولا يلحق
أبدانهم منها مضرة وأن لا يتقدم على كل الادوية المسطرة في

كتب أهل الغرب فإن أكثرها عملت لأبدان قوية البنية.
 عظيمة الاخلاط على خلاف المعمود في أهل مصرفيتين على الطبيب
 حينئذ أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للدرضى ويختار أليتها
 وينقص من مقدار تركيبها ويبدل كثيرا منها بما يقوم مقامه
 ويكون ألي من منه وأن لا يهمل الاعتماد على الأدوية الطبيعية وهي
 البسائط واللبن والحمية والفصد والاستحمام والرياضة والهواء وأن
 يكون على الجثة مولعا بلذة الصناعة في ذاتها لا يمد لها اليده سواها
 من سائر اللذات ممثلة النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين
 الصناعات والفنون فتعظم عنده نفسه ويشرف في عينه قدره فيترفع
 عن سفالة الطمع ورحطة الشره يزهد في ذيل الغنى من طريق التحايل
 على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليلة. وكيف تزدهيه لذات العالم
 أجمع من مال وجاه أو زخرف ومتاع في جانب لذة الاتقان في الصنعة
 والاحسان في العمل. وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب
 العامل وهو القيم على قوام الأبدان والكفيل بصحة الاجسام
 والرقيب على اعتدال الامزجة والمشرف على سلامة الجوارح. لا بل
 أية صناعة في الوجود تفضل صناعته وهي أمس الصناعات بخلة
 الصانع الفاخر وتكوين المبدع القادر وإذا كان قد باع عجب الصناعة

بأحد النحاتين المصوريين في الزمن السابق لما أزدخاء جمال الاثنان
 والاحكام في صورة إنسان تحتمل من المرمر أن استخفة الطرب
 واستفزه لذة الصنعة فعبى عليه فأنحى على التمثال بمنحاته يثيره على
 ينطق اللسان بعد أن أحكمت فيه خلافة الانسان ويكلف الجماد وقد
 أتقنت فيه الصنعة أن يخرج من الجمود الى الحركة حتى أطار عنه
 بعض أجزائه وبقي التمثال قائماً الى اليوم يفصح بما فيه من التلف
 عن نهاية السكمال في جمال الاتقان ومقدار لذة الاحسان في عمل
 الانسان - فما بالك بلذة الطبيب ومقدار طربه في صناعته اذا هو
 شاهد أجسام الاحياء أمامه وقد استخلصها من شوائب الامراض
 واستنقذها من آفات العاهات وردّها الى سواء التكوين وأعاد
 نظام الخلقة الى أصله وانتساق التركيب الى شكله . فهل يجوز في
 العقل لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الاطباء أن يرغب عن تلك
 الدرجة الرفيعة الى الدرجة الوضيعة فينزل بصناعته الى مصاف
 أهل التجارة والبيع لا يفقه فيها من معنى سوى اصطلياد الدرهم ولا
 يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الاموال لاجرم
 أن الطبيب المدرك يفضل لذة صناعته في ذاتها على كل لذة ويساو
 عندها أعظم مزية في العالم وأعلى رتبة . وفصل الخطاب في هذا

الباب . ان يكون مبلغ همته . وجميع لذته . أن يرى المريض بعد شفائه . بوجهٍ لامعٍ كالدينار . لأن يراه في طول شفاؤه . بنظر طامعٍ في درهمٍ أو دينارٍ

قال عيسى بن هشام - فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في مقالته . وحسن نظره في صناعته . وسألت الله جماعة الأطباء . ان يمتدوا مثل هذا الاهتداء . ثم انى ودعته بعد أن عين لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء . وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء . الى ان يتدرج من النقاهة الى تمام الشفاء

✽ الطاعون ✽

(قال عيسى بن هشام) - فطاوعنا القدر . وعز منا السفر . التماساً لبراء الداء . بتبديل الهواء . ونزلنا من ضواحي الاسكندرية قصرًا ذا روضة غناء : في بقعة فيحاء . لا تسمع فيها إلا هديل الورداء . إيقاعاً على هدير الماء . فاذا بلل الموجُ جناحَ الذسيم . فرفرف على ذلك الروض البسيم . نثرَ الماءَ دُرًّا على تيجان الزهر . ورفرفه دموعاً في أحداق البهر .^(١) هناك يتمنى العاشق لو استمار

هذى الدموع لمحاجرته . فيستلين بها قلب شاجيه وهاجرته . وتودّ
 الذانية لو نظمت من ذلك الدرّ عقداً لنجرها . أو نطاقاً لخصرها ؛
 إنّ هذا المكان شئٌ عجيبٌ تضحكُ الارضُ من بكاء السماء
 ذهبٌ حيث ما ذهبنا ودرٌ حيث دُرنا وفضّةٌ في الفضاء
 أو قلّ إنه المجرّة قامت فيه زواهرُ الزهر . مقام الكواكب الزهر .
 وعناقيد الكروم . مقام ثريا النجوم . وأنوارُ الأنوار . مقام الشمس
 والاقار . فأقنا في ذلك الظل الوريث . مدة من أيام الخريف .
 ومكثنا نقطف القطوف الدانية . بين تلك الاعين الجارية ؛ في
 عيشة راضية . لا يُسمع فيها الاغية . آخذين بمستن النخيزة .^(١) ومُجتنّ
 الغريزة . في ما يوافق صحة البدن من طعام شهّي . وغذاء مَرِيّ .
 ورياضةٍ للأعضاء . دون ثوب أو شقاء . وتطهيرٍ للنفس من أدران
 الكدر . بلطف البحث وحسن النظر . وتجريدٍ للبصر من عوامل
 الهواجس . وغوائل الوسواس . بالتبصر في حقائق الوجود .
 والتمن في صنعة الخالق المعبود . وأفضت بصاحبي طيبُ هذه
 الإقامة . الى المقصود من تمام العافية والسلامة . لولأن راعنا شيطانٌ
 من الانس يخبر الطاعون . فقلنا إنا لله وإنا اليه راجعون . وسبحان

الله والحمد لله ما زلنا نملل النفس . بزوال النجس والنكس . وما زالت
تُناوِنا النوائب والأحزان . وثراوحننا النوازل في كل نزل ومكان .
وانبرى الباشا يسألني عن هذا الطاعون وأخباره . وما يتوقعه من
هول أفعاله وآثاره . فأجبتُه بأنه لا يلبث أن يصبح أثر أمد عين . وما
أصاب إلى اليوم الا عدد أصابع اليدين . وقريباً يفرُّ من أمامنا هذا
العدو المناجز . وزدّد في أثره قول الراجز :

قد رَفَعَ اللهُ رِمَاحَ الْجَنِّ . وأذهب التعذيبَ والتَّجَنِّيَ
(الباشا) - كيف تدعى ذلك وتزعمه وما عهدت منك إخفاء
للحقائق ولا تمويهاً للوقائع . وللطاعون في مصر أفاعيل تذوب لها
المتاق والاحداق وتنفطر منها القلوب والاكباد وهو عندنا من
أمراض مصر الوضعية التي تحدث عند اختلاف الفصول . والمصريون
يتوقعونه لكل ربيع حتى أطلقوا عليه كلمة « الفصل » فيقولون جاء
« الفصل » عند ظهور الطاعون فترتاع النفوس وتخلع القلوب وتخور
القوى وتذهل العقول ثم يصول صرلته ويفتك فتكته فلا يقف
سيله عند حاجز ولا يمنع اندفاعه مانع ولا تنفيض قرارته حتى يخرب
القصور . ويمر القبور . فتصبح الاطفال يتامى . والذماء أيامى .
ويعمى الخلق بين ناكل ومشكول وحامل ومحمول : هذا يبكي

أباه . وذلك يندب أخاه . وهذه تولول على أهلها . وتلك تنوح على
 بعلمها وقد سمعتُ عنه في زمانى من أحد المعمرين يقول في وصفه
 عند وقوعه في سنة ١٢٠٥

« ابتدأ الطاعون في شهر رجب سنة ١٢٠٥ ودخل الناس منه
 وهم عظيم واشتد بطشه وقوى بأسه في رجب وشعبان ومات به
 من لا يحصى من الاطفال والشبان والجرار والعميد والماليك
 والاجناد والكشاف والامراء ومات من الصناجق أمراء
 الالوف اثنا عشر صنجا منهم اسماعيل بك السكبير . وقد أُنْثِي
 عسكر القليوبجية والارنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة
 وكانوا الكثرة الموتى يحفرون حفراً باليزة بالقرب من مسجد أبى
 هريرة ويلقونهم فيها . وكان يخرج من بيت الامير في الجنازة
 الواحدة الخمسة والستة والعشرة وازدحم الناس على الحوانيت
 يلتمسون ما يجهزون به موتاهم ويطلبون من يحملون نعوش فلا
 يجدونهم ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك . ولم يبق
 للناس شغل الا الموت واسبابه فلا تجد الامريضا أو ميتا أو طائفاً
 أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً
 بتجهيز ميت أو با كيا على نفسه موهوماً . ولا تنقطع صلاة الجنازة

من المساجد والمصليات ولا تقام الصلاة الا على أربعة أو خمسة
ونذر من يصاب ولا يموت وقل ظهور الطعن على الجسم فيكون
الانسان جالسا فيرتعش من البرد فيتدثر فلا ينطق الا غلطا أو
يموت في غده ان لم يموت في نهاره . واستمر فتكّه الى أوائل
رمضان فمات الأغا والوالى في أثناء ذلك فولوا خلافتهم فماتنا بعد
ثلاثة ايام فولوا خلافتهم فماتنا أيضا . واتفق أن الميراث انتقل ثلاث
مرات في سبعة أيام . وأغلق بالمفتاح بيت أمير كان فيه مائة
وعشرون نفسا فماتوا جميعا »

(عيسى بن هشام) - انى لا ظنك تصف لى موافقا شاهدته

من مواقف الآخرة وأحوال النيامة

(الباشا) - وما كان الامر لى يتصرف فى الطاعون بعد ذلك على

فتكه بل كان يزيد عليه من البلاء مادسة الافرنج للولاة من
وجوب لزجاج الناس بأمر تشق على نفوسهم يزعمون انها تدفع
الطاعون فيفصلون بين الناس بعضهم عن بعض ويفرقون بين
الأب وابنه والأخ وأخيه والمرء وزوجه ثم يهدمون الدور ويحرقون
الثياب وينشرون البخور كأنهم لجهلهم يظنون ان هذه الاعمال
التي تؤذى النفوس وتعطل مصالح العباد أثبتت شمل الجن

وتكسر أسنة رماحهم فيزداد الناس ويلاّ على ويل وحزن أعلى حزن
وخراباً فوق خراب وقد شاهدت بعيني ما تشب له النواصي في
سنة ١٢٦٠ وقصّ على أخى مارآه منه في سنة ١٢٢٨ وهو في خدمة
المرحوم محمد علي باشا الكبير . قال

« أمر جنتم كان محمد علي بعمل « كورنيله » بالجيزة في اليوم
العاشر من ربيع الثاني وعزم على الإقامة بها إذ اشتد عليه الهم من
الطاعون لوقوع القليل من الاصابات بمصر . ومات به الطبيب
الفرنسوي وبعض من نصارى الاروام ويعتقدون صحة الكورنيله
وأنها تمنع الطاعون . وقاضى الشريعة الذى هو قاضى العسكرية يحقق
قولهم ويسير على مذهبهم وكان أفندينا لشدة شغفه بالحياة وحرصه
على الدنيا يصدق هذا الزعم وبنصرته فى نفوس حاشيته واهل دائرته
واتفق ان مات بالطاعون شخص بالحكمة من أتباع القاضى فأمر
بحرق ثيابه وغسل المكان الذى فيه وتبخيره بالبخرة المتنوعة
وكذلك الأواني التى كانت يمسها وأمر أصحاب الشرطة انهم
يأمرون الناس وأصحاب الاسواق بالكف من الرش والتنظيف
ونشر الثياب فى كل وقت . واذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها
بالسكاكين ودخنوها بالبخور قبل تسليمها اليهم . ولما عزم الباشا

على كورنتيله الجيزة أمر في ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن
من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوماً واختار الإقامة فليمكث
بالبلدة والا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد وأعطوا
مهلة أربع ساعات فأتى جميع سكان الجيزة وخرج من خرج وأقام منهم
من أقام وكان ذلك في وقت الحصاد وللناس مزارع ومراق مع
مجاورهم من أهل القرى ولا يخفى احتياج الناس لبيته وأهله
وعياله وأسباب رزقه فيحرمونه من ذلك كله حتى لقد سدوا
خروج السور والابواب ومنعوا مراكب المعادى من السير وأقام
الباشا بيوت الازبكية لا يجتمع بأحد من الناس الا يوم الجمعة ثم
قصده الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد الى قصره وأوقف
مركبين الأولى ببر الجيزة والاخرى في مقابلتها ببر مصر القديمة
فاذا أرسل السكتخدا أو المعلم غالى مراسلة ناو لها المرسل للمقيّد
بذلك في طرف مزارق بعد تبخير الورقة بالشيخ واللبان
والكبريت فيتناولها منه الآخر بمزارق آخر على بعد منهما ويعود
راجعا فاذا قرب من البر تناولها المنتظر له أيضا بمزارق وغمسها
في الخل وبخرها بالبخور المذكور ثم يوصلها الى حضرة المشار اليه
بكيفية أخرى واقام الباشا على ذلك أياما وسافر الى الفيوم ثم عاد

وأرسل مماليكه ومن يخفى عليه من الموت الى أسيوط .
 (عيسى بن هشام) - اعلم ان ما كان يعترض عليه عامة الناس
 في الازمان الغابرة - ولا يزال يذنبنا الى اليوم بقية منهم - من الأخذ
 بأسباب التوقي والاحتياط لدفع غائلة الطاعون لجهلهم بحقيقته
 وأسباب انتشاره هو الذى يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التى
 قصصت على طرفاً منها وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون
 هذه الوقاية ويسخرون منها

(الباشا) - قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك
 الوحزة التى تأتى بالأجل وأى ارتباط بين هذا البخور وحمى
 الطاعون اللهم الا ان يراد به تلطيف أمزجة الجن

(عيسى بن هشام) - لا يفوتنك ان كثيراً من الحقائق كانت
 مكنونة فى خفاء الجهل عند عامة الناس لاختصاص بعض الافراد
 بالعلم ولبعد تناوله على بقية الطبقات فلما انتشر العلم وأضاء برهانه
 كشف للناس ما كان مكنونا عنهم وأظهر من العلل والاسباب ما
 كانت تغف دونه الافكار حيرى . فان كان الناس فى زمانكم يمتقدون
 ان الطاعون من وخزات الجن برماحها وأن لا شىء يقوى على رد
 تلك الرماح الخفية عن العيون فان البحث أوصلهم اليوم الى اليقين

بأن للطاعون جنوداً لا تدركها الميون المجردة وأن لها خزاناً خفياً
دونه وخزاناً سنة وعَوَّالاً إلى المُرَّان^(١) ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعوا
آلة تجسّم الأشياء الدقيقة وتعظمها وتبرزها مِثْلَ نَيَّةٍ للعَيْن فوق قواها
على حقيقة تلك الجنود واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدروا
بها لدفع أذاها ورفع غائلتها

(الباشا) - وماذا تجدى الوقاية والحذر . من القضاء والقدر

(عيسى بن هشام) - حَفَظْتُ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ إِنَّ الْوَقَايَةَ
مِنَ السَّنَةِ الشَّرِيفَةِ وَأَحْكَامِ الدِّينِ الْمُبِينِ فَقَدْ ظَاهَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
فِي الْحَرْبِ بَيْنَ دَرْعَيْنِ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ
مِنْ قُوَّةٍ» . وَلِطُرُقِ الْوَقَايَةِ الَّتِي رَمَّ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ لِدَفْعِ هَذَا الْعَدُوِّ الْخَفِيِّ
الَّذِي يَسْمُونَهُ «الْمَكْرُوبِ» وَهُوَ دُوبَّةٌ دَقِيقَةٌ مِنْ عَالَمِ النَّارِ يَنْطَبِقُ
عَلَيْهَا أَحَدُ أَوْصَافِ الْجِنِّ فِي سُرْعَةِ التَّوَلُّدِ وَكَثْرَةِ التَّعَدُّدِ فِي أَيْسَرِ
بَرَهَةٍ مِنَ الزَّمَنِ . وَهُمْ يَتَخَذُونَ الْبُخُورَ فِي الْوَقَايَةِ لِيَنْحَلَّ تَرَكِيبُهُ
وَيَحْرِقُونَ الثِّيَابَ وَالْأَمْتَةَ حَتَّى لَا تَلْتَقِلَ بِهَا عَدُوَاهُ

(الباشا) - لقد كشفتَ لى معنى دقيقاً فى رماح الجن المسمومة
ما كنت إخال أن أحداً يدركه فى عصرنا الماضى وهل لك فى أن

(١) المران شجر يتغذى منه الرماح

تطاعني على تلك الآلة العجيبة المجسّمة للأشياء الدقيقة لا زداد
تبصرةً وهدىً بالنظر في عجائب المخلوقات

قال عيسى بن هشام - فذهبت الى معمل كياوى وأزيتته نقطة
من الماء تحت «المكر سكوب» فلما رآها كأنها غدير ورأى ألوف
الآلوف من الهوام ساجدة فيها سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق
والتمجيد لمظمة الصانع وتلاقوله عزّ من قائل : «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ
رَبِّكَ إِلَّا هُوَ» فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع ولم يفعل ما فعله
ذلك الهندي مع العالم الألماني حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها
من الحيوانات لينة بئس ما أناء الشرب مشحون بما يجرّم أهل الهند
قتله وأكله من الحيوانات فسخر الهندي منه وكسر النظارة
إصراراً على الباطل ومناداً للحق . ولما أيقن الباشا بصدق ما قلته
وما رآه وأنّ العلم هزم جنود الطاعون وحطّم رماحه ولولاه لمات
به اليوم . ثبات الآلوف مكان العشرات سألتني يقول :

(الباشا) . ومن اخترع لهذه الآلة التي تدل بغير واسطة
على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين .
وفي أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لتردد الثناء عليه ونذكر
باسمه بالحمد

(عيسى بن هشام) - أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر مشايخنا لا علم لهم بها وأنهم لا يزالون كالمهذبهم في منزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة وما نشطوا رؤيتهم أحد منهم وم إلى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلون التعرض لنيران البنادق في معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ولا يعرفون منها إلا ما تنخر كتبهم من الأرضة وما سبيح في حلقات دروسهم من القمل والنمل وما دار في أمثلتهم من «أكلوني البراغيث»

(الباشا) - ومع هذا كله فلا مقام لنا اليوم في هذه البلدة التي أصيبت بالداء وقد وجب علينا الفرار من قدر الله إلى قدر الله فعذ بنا إلى مصر إن شاء الله آمين

قال عيسى بن هشام - فأجبتة إلى سؤله وقفلنا إلى القاهرة . بعد أن ودعنا تلك المناظر الباهرة

❦ الوفاء ❦

(قال عيسى بن هشام) - وأقننا في مصر مدة وقفاً إلى الباشا من عائلته وسقمه . وتمت له العافية والسلامة في جسمه . فأخذت أهنته ذات

يوم بالشفاء والإبر بلال . من المرض والاعتلال . وأذكر له أن صحة
الأبدان . هي ملك السعادة للإنسان . وأنتك أوجعت نعيم العالم
للمريض . من مال واسع وجاه عريض . لانصرفت نفسه عنها
انصراف الضرب عن الماء . والأرمد عن الضياء . والمعمود^(١) عن
شهى الغذاء . وأن خاتم الياقوت فى الإصبع التى أصيبت بدمل .
لا يساوى عند صاحبه حبة من خردل . وأن ما اجتمع فى سرير
الملك من العزة والبأس . ليهون عند مفقور الظهر أو
مصدوع الرأس :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرِيضٍ يَحْدُ مَرَّاهِ الْمَاءُ الزُّلَالَا
وكنث كلما زدت من هذه الموعظة والحكمة . أراه قد زاد فى
الإعراض عن شكر تلك النعمة . فتحققت أن المرء إنما يذكر
النعم فى البؤس ولا يذكر البؤس فى النعم . وينسى المرض فى الصحة
ولا يذكر الصحة إلا وهو سقيم . وقال من يحمد النعماء فى لبسها .
ويدرك سعادة الحياة إلا فى نحسها . فهذا معنى من معانى الآية
الشريفة « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَائِمًا
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ » .

(١) المعمود الذى بمعدته وجع من مرض

فسأله عما دهاه . وأذهله عن شكر الله . فأجابني يقول . وهو في حال الخبل والذهول :

(الباشا) - فيمَ الهناء بكشف البلاء والضرر . وما انتقات من خطرٍ إلا إلى خطر :

فإن أسلم فما أبقَى ولكن سلمتُ من الحمام إلى الحمام
ألم تسمع معي بخبر انتشار الوباء في مصر بعد أن خلفنا الطاعون في
الاسكندرية . فما هذه الرزايا المتساقطة وما هذه البلايا المتلاحقة
أو كما انتهينا من بلاء دخلنا في بلاء وانصرفنا من شقاء إلى شقاء
(عيسى بن هشام) . أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس —
يناب عليك الفزع والوسواس . وإن كنت جربت في هذه الحياة
شدة الألم . وذقت في القبر راحة العدم . وأن ما كنت تمناه على
دهرك . من الرجوع إلى قبرك . عند اشتداد الكروب . من وقع
الخطوب . لم يكن لشجاعة في النفس . تستهين بسكني الرمس .
بل كان لضحكك عن احتمال الآلام . من نوازل الأيام . وأراك
لا تزال مع صحة الدين . وقوة اليقين . تهرب الموت وتخشاه .
وتتوّدك الأهوال من ذكره . وهذا داء في الناس قديم . عزّ
شفاؤه على كل مرشد وحكيم :

وخوف الردي آوى الى الكهف أهله وَعَلَّمْ نُوحًا وَابْنَهُ عَمَلِ السُّفْنِ
وما استعذبتُهُ رُوحُ مُوسَى وَآدَمٍ وَقَدُوْ عَدَاٍ مِنْ بَعْدِهِ جَتَّى عَدْنِ
ولكنني لا أزيدك في الموعظة ولا أخفف عنك من ويلات الهواجس
والوساوس بأحسن من أن أقرأ عليك مقالة نافعة اطلعت عليها
اليوم في بيان احوال الناس وتقسيم طبقاتهم في احوال هذا الوباء
فان اردت تلوثها عليك ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت

(الباشا) - هاتِ اسمعني لازلتَ للحق راويا . وللمدي داعيا
(عيسى بن هشام) قارئاً - دأبنا النوازل العظيمة والخطوب
الجسيمة بحك الطباع ومسبار الاخلاق فهي لشدها وهولها
تكشف عن الناس ما يخفونه عن الناس وتهتك سجوف الجنويه
والتزويق عن حقائق الصفات فلا تتمالك النفوس ان تبقى على
التظاهر بما ليس فيها ولا التناول بما هو مفعود لديها بل تتجلى
للائظر بما اشتملت عليه ضمايرها واحتوته سرايرها من قوة أو
ضعف ومن فضيلة أو نقیصة ومن علم اوجـهـل . وهنا يتمكن
الباحث في الاخلاق من النظر فيها نظرة التثبت والتحقق
وهي مجردة أمامه من كل غشاء عارية من كل غطاء

« وليس في باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع

القلوب أعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء . فذلك لا يرى بأساً من الكلام بشيء مما يجده المستقرىء لأحوال الناس من طبقات المصريين وهم بين أيدي هذه النازلة العظمي والحنة الكبرى

« طبقة العامة اناس جبلوا في مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء وتفويض الامر لأقدار السماء وهم لا يعلمون من أمر الوباء ما جراثيم الداء ولا علة المرض والشفاء ولا سبب الهلاك والنجاء وليس في قدرة قادر من البشر ان يزحزحهم من اعتقادهم أو يحو لهم عن يقينهم ولا في استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأنصح الخطباء ان يضع في رؤوسهم ان الوقاية تمنع من المقدور وأن الحذر يُنجي من المكتوب وأن طب الاطباء يوجب في الاجل المحدود وأن صنوف الدواء تنفع في رد القضاء المحتوم . وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية واسباب الحيلة امور آتضر ولا تنفع فلا تزيد في عمرهم ساعة ولا تكف عنهم غرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الارواح . فهم بمعزل عن الخوف والهلع وفي امان من الذعر والفرع وفي ضمان من الوسواس والهواجس وإن كانوا مقيمين في غفلة عما يجب عليهم

لأنفسهم من المحافظة على صحة الابدان وتعمد الاجسام بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء والوقوع في مغالب الوباء لبعدهم عن غمهم قوله عليه الصلاة والسلام « اعقلها وتوكل » لكنهم لا يزالون على كل حال في صحة من الارواح وان اعوزتهم صحة الابدان

« وطبقة الخاصة ونفى بهم اهل الدين واليقين وهم الذين يعتمدون ايضا على التسليم لاحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال والايمان بأنه ان ينالهم الا ما قدره الله لهم ولا تفنأ تجري ألسنتهم في مثل هذه الاهوال بتلاوذايات اليناس من كتاب الله : « وكل أجل كتاب » : « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » : « قل إن الموت الذي تفرّون منه مفان به لا يفككم » . تعالى الله أحكم القائلين وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمر واقع لا مردّ منه وأن الانسان عرضة له في كل رقة ولحظة وأن طعمه واحد سواء كان بمرض الوباء أو بهراوة السماء أو زلازل الارض أو كان بنصّة شراب أو عثرة قدم أو آسنة حشيرة وأنّ نفْس المرء خطاه الى أجله فليبه أن ينتظر ساعته في كل حركة وسكون وعند كل قيام وقعود :

وما نفسٌ إلا يُعادُ مولداً ويُدنى المنايا للنفوس فتقربُ
وم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحى حى للفناء . وأنه مقيم من
دنياه أبداً في أرض وباء وإن لم يكن ثم وباء :

ماخص مصرأ وباء وحدها بل كائن في كل مصر وبأ
وأن من فر من المقدور فمكلى المقدور نزل . ومن هرب من
القضاء فالى القضاء رحل :

مهلاً أم وبأً قررت وهل ترى فى الدهر إلا متزلاً مؤبواً
وأن من حانت منيته . لم تنفمه تقيته . ومن حل أجله . لم
يحمه وجكته :

ومن هاب أسباب المنايا ينذته ولورام أسباب السماء يسلم
إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانع يمنعهم عن الأخذ بأسباب التقية
والحذر ولا فى العمل بمقتضى القوانين المندوب اليها فى حفظ صحة
الأبدان وسابقرده أهل صناعة الطب من سبل التوقى والتحرص
إتقاء لما نهوا عنه من الإلقاء بالأيدى الى التهلكة واحتذاء لما ترسمه
ظروف الاحوال وتقضى به احكام الازمان ولا يحدون الطاعة
لاشارة الاطباء فى مثل هذه للنوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض
لديهم شرعاً وإن لم يكن من ورائها فائدة فليس فى عقباها مضرة .

قترأهم لذلك في أجلّ مقام من شجاعة القلب وقوة النفس وثبات
الجنان بفضل الدين واليقين وعلى أحسن حال من سلامة الجسم
وطهارة البدن بفضل العلم وحسن القيام بما يرشد اليه من وسائل
الوقاية . لاسلطة للوساوس والهواجس عليهم ولا محل للرهب
والرهب فيهم آمنين مطمئنين يتمتع كل واحد منهم بالروح السليمة
في الجسم السليم

وهناك طبقة ثالثة حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا
من هؤلاء لم يرسخ الايمان في قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من
نفوسهم ولم يتأدبوا بأداب الدين ولم يرتاحوا لحسن اليقين بل اقتصرت
بضاعتهم على ما تلقوه في المدارس من العلوم الآلية والفنون الصناعية
دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية وخلت صدورهم من
آيات الله والحكمة قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون
بالشرائع والازدراء بالإيمان ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة
لتقويم النفوس وتطهير الطباع ومعرفة الحقائق ورياضة القلوب على
التجديد والثبات عند وقوع المكروه ونزول الملمات فتجدهم قد ظهروا
للناس في هذه النازلة الوبائية وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر
خلق الله نفوساً وأجبنهم قلوباً وأكثرهم هوساً ووسواساً وأشدّهم

قلقا واضطرابا وأعظمهم خوفا ورعبا واكبرهم بلاءا وكربا يشتمل لهم الموت في أعينهم على أفطع الصور وأشنع المناظر فيحاولون الفرار منه وهو ممسك بنواصيهم ويهابون دُنُوَهُ وهو آخذ بتلابيبهم . حلّ الخوف مفاصلهم واستلّ الرعب نخاعهم فهم يرون في كل عود نمشا لهم ويحسبون كل صيحة عليهم أولئك لا إيمان لهم يُثبت أقدامهم ولا علم لديهم يرجع أحلامهم بل هم على مثل حال المغشى عليه من الموت أو المسوس من الشيطان يتوهمون طعم الموت ومذاق الوباء في تنفس الهواء وتناول الغذاء وشرب الماء وملامسة الأيدي وغاطبة الناس فاذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الحدياء تحمّل أحد المصايين بالوباء حمد دمه وسال عرقه وخمدت أنفاسه وأثوت أعصابه وأمسك من بجانبه يستنجده ويستغيث ليحميه من شر العدوى ويدفع عنه نزول البلوى . وما أشبههم في حالهم هذه من الخور والهمع والفرع والجزع إلا بمنزل أناس قضى عليهم بالاعدام لو قُتِلَ منهم وقوف بين يدي الجلاد والسياف إذا قدّم أحدهم للسيف والنطح مات الذي يليه من الخوف نيل القتل . ومنهم من اعتكف على الحرير والبلّة ونهاره عساها تحمّله كيف اطمأنت به الحال . ومنهم من يبالغ ويتعالى في تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة بموضع

الاطباء لقتل الجرائم فهو يشربها ويستعطيها ويدهن بها جسده
ويغمس فيها ثيابه ويبلل بها فراشه ويفسل بها آنية طعامه وشرابه
وكما سمع بزيادة المدد في المصابين زاد في مقدار ما يستعمله منها
يوماً بعد يوم حتى أصبحت أجسامهم مسخومة وأبدانهم مهزولة
وشفاهم متقلصة وعيونهم غائرة ووجوههم منهبرة وأناملهم مصفة
ينطبق عليهم قوله جلّ وعلا : « يَا أَيُّهَا الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا
هُوَ بِمَيِّتٍ » إذا رأيتهم حسبتهم في حال المصابين بالتملّ لولا ان هؤلاء
يفضلّونهم بالخلاص من ألم الداء براحة العدم والفناء . ولما كان الخوف
والوسواس من أكبر وجوه العذاب في الحياة ومن أعظم الاسباب
في رأى الاطباء لجلب الداء كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم وهم اصحاب
الارواح السقيمة في الاجسام السقيمة لهم النكد في هذه الدنيا
ولهم الخزي في الآخرة »

— فأين تضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات
(الباشا) — ما أرى لي موضعاً بعد إذ حشرتني وأرشدتني الا في
طبقة أهل الخاصة الذين يسمون للقضاء والقدر ويعملون بالحيلة
والحذر لكنتي مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس في هذا
اللوباء وأرغب في التخلص من النظر إليهم وهم في مثل أهوال القيامة

من الفزع والهلع وليس من الصواب أن نجتمع بين أكرادنا وهمومنا
وبين التأثير لأكراد الناس وهمومهم

قال عيسى بن هشام - وخشيت على الباشا إن أنا تركته في هذه
الحال غريق أفكاره . وأسير همومه وأكراده . أن يلتوي^١
الاتكاس . ويعتري^٢ الارتكاس .^(١) والنعسة بعد البيلة . شر أطوار
العله . فبادرت إلى طاعته . وامتنال اشارته . فاخترت له من
ضواحي المدينة مكاناً قصياً . ومسكناً مريضاً

﴿ العزلة في العلم والادب ﴾

قال عيسى بن هشام - واعتزلت بالباشا مدة من الدهر .
نستملح العزلة ونستعذب عليها الصبر . ونعيش فيها عيش
الحكماء . من حسن الرضاء بحسن الاكتفاء . ونستريح
راحة البعد عن هذا العالم وأذاه . وإغماض الجفون على قذاه .
مؤتمنين كل الاثناس . بالوحشة من الناس . بعد الذي شهدنا
من أعمالهم ورأياننا . وسمعنا من أقوالهم ووعيدنا . وقاسينا من
عشرتهم ما قاسينا :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئبِ إذ عَوَى

وصوتُ إنسانٍ فكدتُ أطيّرُ

إِنْ سَأَلْتَهُمْ حَافِئُكَ . وَإِنْ وَاذَعْتَهُمْ نَاصِبُكَ . وَإِنْ صَادَقْتَهُمْ حَادِئُكَ .

وَإِنْ وَاثَقْتَهُمْ كَادُكَ . وَإِذَا خَالَطْتَهُمْ لَا تَأْمِنِ الْاِعْتِدَاءَ . وَإِذَا مَازَجْتَهُمْ لَا تَعْدِمِ الْاِقْرَاءَ . وَإِذَا طَالَبْتَهُمْ بِحَقِّ فَانِكَ لَا تَسْمَعْ الصَّمَّ الدَّعَاءَ :

فَلَوْ خَبَرْتَهُمُ الْجُوزَاءُ خَبْرِي لَمَّا دَلَمْتُ خِيفَةَ أَنْ تُكَادَا

وَلَوْ أَنَّكَ لَمْ تَخَالَطْهُمْ إِلَّا فِي مَجَالِسِ أَنْسِهِمْ وَصَفْوَعٍ . وَمَعَاهِدِ

لَعِبِهِمْ وَلَهْوِهِمْ . لَمْ تَجْنِ مِنْهَا إِلَّا كُلَّ مَا يُبْذَرُ وَيَنْفَرُ . وَيَنْقُصُ وَيَكْدَرُ .

عَدَخْلَهَا إِذَا دَخَلَتْهَا مُسْتَرْوِحًا مُسْتَبْشِرًا . وَتَخْرُجُ عَنْهَا مُسْتَقْبِحًا

مُسْتَفْكَرًا . فَعِيشَتُهُمْ فِي كُلِّ الْحَالَتَيْنِ قَرَارَةٌ مُعَائِبَ . وَمَجْتَمَعُ نَقَائِصِ

وَمُنَالِبِ . وَمُنَابِتِ اكْدَارِ . وَيُنَايِيعِ اضْرَارِ . وَلَا رَاحَةَ فِي الدُّنْيَا

إِلَّا لِمَنْ تَنَسَّكَ وَتَزَهَّدَ . وَلَا سَلَامَةَ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا لِمَنْ اعْتَزَلَ وَتَوَحَّدَ .

وَأَبْعَدُ النَّاسِ مِنْ مَعَاشِرَةِ الْبِرَايَا . أَقْرَبُهُمْ إِلَى كَرَمِ السَّجَايَا :

يُعْدِي عَنِ النَّاسِ بُرًى مَنْ سَقَّاهُمْ . وَقَرَّبُهُمْ لِلْحِجَبِيِّ وَالذِّبْنِ أَدْوَاءُ

كَالْيَتِّ أَفْرَدَ لَا يُعْطَا يَدْرَكَهُ . وَلَا سِنَادٌ وَلَا فِي الْاَلْفِظِ إِقْوَاءُ^(١)

وَعَكَفْتُ مَعَ الْبَاشَا فِي عَزَلَتِنَا أَذْهَبَ بِهِ كُلُّ مَذْهَبٍ . وَأَنْتَقِلَ بِهِ مِنْ

(١) الْاِبْطَاءُ وَالسِّنَادُ وَالْاِقْوَاءُ مِنْ مَيُوبِ الْقَافِيَةِ

مطلب الى مطلب . في مطالعة الاسفار والكتب . من تاريخ وأدب .
ومن حكم متينة قوية . وشئ علوم حديثة وقديمة . أهديه من كل
طرف بطرفة . وأتحفه من كل باب بتحفة . وأجنب معه ما يدعو الى
الضجر والملل . ويُدني من الكد والكلال . فتارة أخوض معه عباب
البحار . وطوراً أجتاز به سراب القفار . فرى من يحرق في البحر
مراكبه . ليحمل على اقتحام المنايا كتابه . ونسمع الشاعر في الفقر
يحدو بناقته . ويشبب بمشوقته . ثم لا يقعد به ذل الغرام . عن التفاخر
بمزر الكرام . ولا ينسيه ذكر الهوى . مواقف الخلف والردى .
فيخلط بالفزول الفخر . ويخاطب صاحبه من جوف الفقر :

إِنَّا مُجِيؤُكَ يَا سَلَمَى خَفِينَا	وإِنْ سَقَيْتِ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْقِينَا
وإِنْ دَعَوْتَ إِلَى جُلَى وَمَكْرَمَةٍ	يَوْمَا سَرَاةِ كِرَامِ النَّاسِ فَادْعِينَا
إِنْ تَبَدَّدَ غَايَةُ يَوْمَا لِمَكْرَمَةٍ	تَلَقَّ السَّوَابِقَ مِنَّا وَالْمُصَلِّينَا ^(١)
وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا	إِلَّا أَفْتَلِينَا ^(٢) غَلَامَ سَيِّدَا فِينَا
إِنَّا نُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا	وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِينَا
بِيَضٍ مُفَارِقُنَا تَعْلَى مَرَاجِلُنَا	نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَبْدِينَا
لِي أَمِنْ مَعَشَرَ أَفْنَى أَوْ أَمْلَهُمْ	قِيلَ الْكُمَاةُ إِلَّا أَيْنَ الْحَمَامُونَا



إذا الكُماةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَصِيبَهُمْ حَدُّ الطُّبَّاتِ وصلناها بأيدينا
ونرى الناقةَ تطرب تحتها الى مواطنها . وتشتاق الى معاطنها .
فتحن حنينه . وتئن أئينه . وكلما رآها تشكو مثل شكواه . وتُصْغِي
بأذنها الى نجواه . وتُردِّد برُغائها صداه ^(١) . وتُسَمِّدُه بترجيئها
في هواه . تأوّه وتمهّد . وترنم فأنشد :

لقد زارني طيف الخيالِ فهاجني فهل زار هذي الأربلَ ظيفُ خيالِ
لعل كراها قد أراها جذابها ذواب طلح بالعقيق وصلالِ
ومسرحها في ظلِّ أحوى كأنها اذا أظهرت فيه ذوات حجالِ
تلكون زبوراً في الحنين مُنزلاً عليهن فيه الصبرُ غيرُ حلالِ
وأنشدن من شعر المطايا قصيدةً وأودعنها في الشوق كلَّ مقالِ

ثم تنتقل الى مشاهدة المعامع المشهورة . والوقائع المذكورة .
فترى السماء تجري أنهاراً في الوديان . والمهج تسيل انحداراً من
من مسایل الأبدان . والموت واقفاً يحصد الرؤوس . ويحني نفائس
النفوس . والفارس يمشي في الصفوف مشية الخيلاء . ويطن
برمحه كل طعنة نجلاء . ثم ينشد في وصف أثرها . وبعد غورها :
طعنت أن عبد القيس طعنة نائرٍ لها فذلول الشماع أضاءها

ملكْتُ بها كَفِيَّ فَأَنهَرْتُ قُتْقَمًا^(١) يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهُ
يهون على أن تُرَدَّ جراحُها عيون الأواسي إذ حُدَّتْ بِلَاءُهَا
أو يقول فيها :

أضربُ الضربةَ الفَرِيغَ^(٢) كَفِيَّ البَا^(٣) زَلِ^(٤) أَحْيَالَهُ الْمُرَارُ مَرِيرًا^(٥)
بِرَسُوبٍ^(٦) يَهْوِي إِلَى ثُبْرَةٍ^(٧) الْمَا^(٨) وَلَوْ أَنَّهُ أَصَابَ مُبِيرًا^(٩)
هَدَرُهَا يُسَكِّتُ الْبَلِيغَ وَلَوْ زَا دَعَى الْمُصْعَبِ^(١٠) الْأَغْرَ هَدِيرًا^(١١)
كَالْقَلْبِيبِ^(١٢) الْمَنْزُوعِ فِي الْقَلْبِ لَا تُدْ بَطْ أَلَا الدَّمُ الْفَرِيضُ^(١٣) الزَّرِيرَا^(١٤)
أَسْهَرْتُهُ وَأَهْلُهُ وَهِيَ كَالْمَنَةِ^(١٥) مَوْرٍ نَوْمًا تَحْسُ مِنْهَا شَخِيرَا^(١٦)
أو يقول في وصفها أيضًا :

غَارَتْ وَفَارَتْ وَأَلْقَى مَنْ يَمَارِسُهَا فِيهَا الْعَائِمُ أَبَدًا لَمْ يَمُتْ
وَتَذْكُورُ شِعْلَةُ الْحَرْبِ فَلَا تَنْطَفِئُ نَارُهَا . وَلَا يَجْمَدُ أَوَارُهَا .
الْأَوْ قَدْ غَادَرَتْ الذِّنَاءُ أَيَامِي . وَالْأَطْفَالُ يَتَامَى . وَالْأَمْوَالُ نَهَبَا
مَنْهَبَا . وَالْأَعْلَاقُ سَكَبًا مَسْلُوبَا . وَالْمَدَائِنُ خَالِيَةٌ خَاوِيَةٌ . وَالْقُصُورُ
بَائِدَةٌ بِالْيَةِ . وَالْحَرْبُ يَنْخِذِلُ فِيهَا الْقَوَى ثَلَاوُهُ سَبَبٌ . وَيَنْتَصِرُ

(١) الفريغ الراسع (٢) البازل البعير في السنة التاسعة (٣) المرار شجر يظلم
مشافر الإبل وللبر الشدة (٤) الرسوب الجوف يثيب في القرية (٥) الثبيرة مقر
للمامن الأرض (٦) المصعب الفعل الصمب (الفريض الطري) (٨) الزبير الطين

الضعيف من حيث لا يحتسب. فكم دالت بها الدول ودارت الدوائر
حوائل المروءة وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود. وبساط
الحجد الممدود. وبعد ذلك التناهي في العظموت. والتمادي في الجبروت.
وبعد أن لم يكن يدور في الوهم سقوطها. ويخطر في الخيال هبوطها.
كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر. اذا نزل القضاء وحكم القدر.
وكل ملك مهما امتد ظله زائل. وعند التناهي يقصر المتناول
ثم أدخل به في. طالعنا الى حلقة حكيم واعظ يسلب الالباب
بقوة بيانه. ويحلب العقول بضوء برهانه. ويسترق النفوس بطلاقة
لمسانه. ويقول في حقارة الغنى وهوانه:

«أيها الناس والله لئن نياكم هذه أهون عندي من مرق»^(١)

كلب في يد مجذوم،

«والخير بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا

كالخير بين أن يكون مالكا أو مملوكا

من سره أن لا يرى ما يسوؤه فلا يتخذ شيئا يخاف له نقدا

«والحياة الطيبة هي حياة الغني والغني هو القنوع لانه اذا

كان الغني عدم الحاجة الى الناس فأغنى الناس أفلهم حاجة الى

الناس ولذلك كان الله تعالى أغنى الاغنياء
غنى النفس ما يكفيك من سدّ خلة

فان زاد شيئاً عاد ذلك الغنى فقراً

ويقول في محاسن الاخلاق : « الجود حارس الأعراس
والحلم فداءً ^(١) السفية . والنفوس زكاة الظفر . والاستشارة عين
الهداية . وأشرف الغنى ترك المني . وكل من عقل أسير عند هوى
أمير . ومن التوفيق حفظ التجربة . ومن لأن عودته كشفت
أغصانه . ومن لانت كلمته وجبت محبته »

ويقول في مساوىء السفات : « الكاذب في نهاية البعد
من الفضل والرأى أسوأ حالاً من الكاذب لانه يكذب فعلاً
وذلك يكذب قولاً والفعل آكد من القول . فأما المعجب
بنفسه فأسوأ حالاً منهما لانهما يريان نقص أنفسهما ويريدان
إخفاءه . والمعجب بنفسه قد عمي عن عيوب نفسه فبإرها
محاسن ويُبديها . وانى لأعجب للبخیل يستعجل الفقير الذى
منه هرب ويقوته الذى إياه طلب فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء
ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء . وأعجب للمتكبر الذى

كان بالألمس نطفة وفي الغد جيفة . وأعجب لمن يغفل صبره
ويشكو إلى الناس دهره فإن كان عدواً سره وإن كان صديقاً
أساءه وليس مسرة العدو ولا مساة الصديق بمحمودة .

ولا تشك إلى خلق فتشمتة شكوى الجريح إلى العقبان والرخم
« والمعجز عجزان أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر
والثاني الجد في طلبه وقد فات

ويقول في ذكر الحياة والموت : « إنما المرؤ في الدنيا غرض
تتنصل فيه المنايا ونهب تبادره المصائب ومع كل جرعة شرق
وفي كل أكلة غصص ولا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى
ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله فنحن أعوان
المنون وأنفسنا نُصَبَّ الحُتُوفِ فَمِنْ أَنْ نَرْجُو الْبَقَاءَ وَهَذَا اللَّيْلُ
وَالنَّهَارُ لَمْ يَرَفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرْفًا إِلَّا أَسْرَعَ الْكُرَةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيْنَا
وتفريق ما جَمَعَا . وهجبت لمن نسي الموت وهو يرى من يموت »
ويقول في وصف العلماء : « الخير من العلماء من يرى الجاهل
بمنزلة الطفل الذي هو بالرحمة أحق منه بالغلظة ويعذره بنقصه في
ما فرط منه ولا يعذر نفسه في التأخر عن هدايته
ثم يختم وعظه بقوله :

الدِّينُ إِنْصَافُكَ الْاِقْوَامَ كُلَّهُمْ وَأَيُّ دِينٍ لَا بِي الْحَقَّ إِنَّ وَجَبَ
وَالْمَرْءُ يُعْيِيهِ قَوْلُ النَّفْسِ مَصْحَبَةً لِلْخَيْرِ وَهُوَ يَقُولُ الْمَسْكِرُ الْجَبِيَّ (١)
اللهم اكفني بوائق الثقات ومكائد الاصدقاء »

ثم أنهى بصاحبي الى مجلس محاضرات بين الادباء ومفاهات
بين الندماء . فنقرأ من لطيف بوادرهم . ورقيق نوادرهم . ما ينير
ظلمة الفهوم . ويجلو صدأ الهوم :

لَفْظُ كَانَ مَعَانِي السَّكْرِ تَسْكُنُهُ فَمَنْ تَحْفَظْ شَيْئًا مِنْهُ لَمْ يُفْقِرْ
جَزَلٌ يُشْجِعُ مَنْ وَافَى لَهُ أَذُنًا فَهُوَ الدَّوَاءُ لِدَاءِ الْجَبَنِ وَالْقَلْقِ
إِذَا تَرَنَّمْ شَادِ الْجَبَانِ بِهِ لَا قِيَّ الْمُنَايَا بِلاخَوْفٍ وَلَا فَرَقِ
وَإِنْ تَمَثَّلَ صَادٍ لِلصَّخُورِ بِهِ جَادَتْ عَلَيْهِ بِعَذَابٍ غَيْرِ ذِي رَنَقِ
وهكذا قضيت مع الباشا زمنا ليس بقصير أستخرج له تفاسير
الأعلاق . من بطون الأوراق . وأقتطف معه زهر الأدب العاطر .
من حداثق الكتب والدفاتر . الى أن قال لي ذات يوم . بين
قدم ولوم :

(الباشا) - إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الأيام التي أضعتها
من سالف عمري في ما لا يُجدي ولا يفيد . من مشاغل الدهر وملاهي

العيش وباليتمى كنت قصرت هي منذ صباى على مثل هذه المعيشة مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآداب مغتبطاً سعيداً لا حاسداً ولا محسوداً أتتقل من مطالعة الكتب الى مذاكرة العلماء ومن مذاكرة العلماء الى مسامرة الفضلاء ومن مسامرة الفضلاء الى مطارحة الأدباء . ويعلم الله أن أحنى ليزيد شدة وأن ندى ليظم حدة كلما تذكرت ما كانوا يحدثوننى به فى أيام دولتى عن مجالس العلم والادب فما كنت آبه لها ولا أنتبه اليها وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل والرّدن^(١) والحمد لله الذى أرشدنى الى الهدى آخر الدهر فعلمت مقدار هذه النعمة التى حبيبت الى الحياة ثانية وهوت على احتمال متاعبها وما إخالك تبخل على بعد الآن وقد علمت نفع ذلك لى بعبادة السير معى فى هذا الطريق الحميد . وما أرى من بأس فى أن ترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس فى مجالس الادب ومجامع الفضل وأندية العلم لتتذاكر معهم ما فطالعه وأأخذ عنهم ما يحفظونه . وقد زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الأوبئة والطواعين والحمد لله رب العالمين

(عيسى بن هشام) - لا تطمعن أيها الأمير - دفع الله عنك -
 المسكاره - في مثل هذه المجالس فقد طرته الأيام ورمستها الليالي
 ولم يبق اتيرم من يأنس اليها وينافس فيها
 (الباشا) - كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من
 كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون وتعدد الطالبين
 وسهولة الحصول على الكتب ووفرة المطابع وإطلاق الافكار من
 القيود . وأين هذا مما كنا عليه في الزمن الاول من تعسر الوصول
 الى الكتب وتعدد استنساخها لضئ أربابها كأنها لديهم خفايا
 السكروز حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها
 شيئا هم أول من يفاخر باقتنائها ويعتبرونها ضربا من ضروب الزينة
 والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها من يروم الانتفاع
 بها ان لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ابتياعها فلا
 بدع اليوم أن يكون في يد كل مصرى كتاب يطالعه وأن يكون
 كل واحد منهم قد أصبح في العلوم والفنون أليف محاضرة وحليف
 مذاكرة تزدهى به مجالس الفضل وتزهو أندية الأدب وكيف
 لا يكون ذلك وقد ذقت من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنساني
 حلاوة كل لذة في العالم

(عيسى بن هشام) - نعم شاعت العلوم في هذا العصر . وترقت الفنون وكثرت المطابع وسهل على الناس اقتناء الكتب . ومطالعها والسكن قل بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها فكد سوقها وبارت تجارتها وأغفلها من ينتفع بها للاشتغال بسواها من الامور الباطلة والاشياء التافهة ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل . والناس اليوم في حركة لا شرقية ولا غربية قد اشتغل بعضهم ببعض واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم فتمطت بينهم مجالس العلم واندرست مجامع الادب واقتصروا على مطالعة اخبارهم في الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب . وأنى يكون لهم الاستقرار في المجالس وهم لا يستقرون في مكان ولا يهدأون من حركة ولا ينفكون عن غدو ودواح ولا ينتهون عن قلة وسفر واكثر ما يكون جلوسهم في المركبات مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهور العام مترحلين في بلاد الاجانب متنقلين في ديار الغربة للزينة والتفكه . وقصاري العلم عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتاً منه في المدرسة وأطرافاً وهو بالسن التي لم يصل فيها بعد الى تمام الحلق وكمل الادراك في حفظها ويؤديها كالبيضاء فان اسعده الحظ

في آخر الدراسة ونجح عند الامتحان تأبط صك الشهادة ونقض يده
من تلك العلوم وطرحها عنه طرح الثوب الخلق ونبت هانبا القدام
على أهله مأسن من ماء^(١) وما جف من زاد انتقاما لنفسه مما آتاه من
مشقة وقاساه من تعب في درسها وحفظها من خير أن يفقه لها مزية في
خاتها أو يذوق لها حلاوة في طعمها فإذا هو بالغ إربته ودخل في خدمة
الحكومة أصبح كالعامل من المال لا العالم من العلماء وقل فيهم بعد
ذلك من يسبوا إلى العلم وأهله أو يحن إلى الادب وكتبه ولئن مال
بعضهم للمطالعة فأنهم لا يتجاوز حد الكتب المتعلقة بأصول وظيفته
ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة وثقل على الناس
مطالعتها لما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك في
الاشغال المتجددة فلا يقوى احدهم على مطالعة صحيفة من كتاب الا
وقد باله المرق ودمه الكلال والمال ونزل به الضجر والسأم
وانك ترى مثل هذا بيننا في حديثهم فهم لا ينصتون إلى قصة متصلة
ولا يتبحرون في الكلام قضية مرتبة ولا يعجبهم منه الا ما كان
مقطعا متورا أو مقتضبا مجذوما

(الباشا) - ما اكاد أخليك أيها الصديق من غلو في وصف هذه

(١) اسن الماء تغير ولم يشرب

الحال . وهل خلاؤهم يخلو زمان في البداوة كان أو في الحضارة من مجالس للعلم ومجامع للفضل وأسواق الأدب وما كان زماننا الذي كنت فيه ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والامراء ممن لا نصيب لهم من العلم والأدب لا ينفلون بحسبهم من وجود شاعر عبيد أو فاضل أديب أو نديم أديب أو محدث ظريف تنفكه به النفوس وتستريح له القلوب هذا والكتب بين الناس قليلة التداول والعلم بعيد التداول فما بالك اليوم على هذه الحال التي تصف والصحف منشورة والكتب مطبوعة وأسماء العلوم مذكورة

(عيسى بن هشام) - قد استغنى كبراً وناوياً واليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والأدب وقصروا همهم فيها على التفاخر بالمقتنيات للزخرفة والأدوات المصنعة من عمل الغربيين فترى الكبير أو العظيم يقلب في يده العصا المضيفة بالكهرباء مثلاً أو الساعة التي ترن بمدد الثواني وهو يمتدح أنها أجل قيمة في العين وأجل أثراً في النفس من جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ومن جميع الكتب التي تصفوساعات الحياة بمطالعتها . ولا تتوهم أني أجزم لك بخلو هذا الزمان عن مجالس للعلم ومحافل للأدب وما كان كلامي إلا على الوجه الأعم . وقد آن أن أجيبك إلى ما طلبت فأزور بك بعض المجالس

والحافل لينقطع ريبك، وليطمئن قلبك

﴿ علماء الدين ﴾

قال عيسى بن هشام - فتخبرت من مُتَقَدِّيات اليوم . ومجتمعات القوم . ما يتوهم بوفاء العهد . وإنجاز الوعد . ليقف الباشا بنفسه على ما يجري فيها . من ظواهرها وخوافيها . ورأيت أن أبدأ منها بزيارة السادة الأعلام . من علماء الإسلام . مصاييح الدين . ونباريس^(١) اليقين . ونجوم الإرشاد . ورجوم الإحلال . ونُصَرَاء الحق . وحُلَفَاء الصدق . وهُدَاة كل ضالٍّ ومارق . ودُعَاة الخلق الى معرفة الخالق . تيمناً بشرف مكانهم . وتبركاً بنور إيمانهم . فقصدنا مجلساً لهم جمع كل أغرٍّ منهم محجل . وكلٍّ معظمٍ فيهم مبجل . فوجدناهم قد تبوؤوا المقاعد . بين المقالم والحابر . وتوسدوا الوسائد . بين المساعط والمجامر . فسلمنا وجلسنا . وتكلمنا واستأنسنا . ثم أطرقتنا نستجمع قُوى الإدراك والعقل . لثلاثة قط ما ينتشر عن أفواههم من درر العلم والفضل . وإذا بهم يخوضون منذ البداية الى النهاية . في حديث غريب الرواية . لطيف الحكاية . فسمعنا أحدهم يقول لصاحبه فيما ييسطه ويقرره .

ويعيده ويكرره :

(احد المشايخ) - لقد وهمت يا مولانا في زعمك ان امتلاك
الاطيان والجسور . خير من اقتناء الابنية والدور . فقد جرت بت كلاك
الموردتين واستقيمت من المصدرتين فوجدت دخل البناء أعظم ربما
وأقل خطراً وأثبت حالاً في تعاقب الصعود والهبوط خصوصاً اذا
كان الصقع جيداً والموقع عامراً وكان الساكن فيه من جماعة الافرنجة
الذين هم أقل من المسلمين عيالاً وأخف على البناء وطأة وأهون
على الدار ثقلاً فلا يدقون ولا يطحنون ولا يعجبون ولا يخبزون
ولا يفسلون ولا يستحمون ولا يقبلون عندهم اقارب او ضيوفاً
ولا عيلاً ون البيوت خدماً وغلماناً وهذا ينتفي ما ذهبت الى تقريره
آنفاً من أن البناء سريع المطب . يتطلب لدواء النفقة

(شيخ ثان) - ولكنك أيها الاستاذ حفظت شيئاً وغابت عنك
أشياء وتسرعت بالحكم على المسألة والقطعم في القضية فأين أنت
من بقية الطواري والنوازل في البناء وأين أنت من الحريق والزلازل
الاهم الا ان يكون هناك خروج عن رأى الجماعة ودخول في
مذهب الذين يقولون بتحليل التأمين على البناء عند شركات الافرنجة
وادخار العوض فيها لسد الخسارة عند وقوع الخطب

(جميع المشايخ) - نعوذ بالله من شر البدع ونبرأ اليه من
تحليل المحارم

(شيخ ثالث) - وأبن أنت في الاطيان أيضاً من النداءة والدودة
ومن الشرقي والغرق

(الشيخ الثاني) - من المسلم أن يصيب الاطيان بعض ما ذكرتنا
إياه ولكنها لا تزال عيها باقية ويرجى فيها أن تعوض سنة خسارة
أختها أما البناء فإنه يزول من أساسه بنسبة من تلك النكبات التي
تأتيك بفتة وتنزل عليك فجأة وتذهب بالجدار هباء ولا سبيل الى
الارتفاع بأرضه الا بانشاء البناء وتجديده

(الشيخ الأول) - لستم دينكم ولي دين . فليست أتحول من
فكري ولا انزل عن رأيي في فضل البناء على الاطيان وقد عرفت
على بيع المنزل الذي بحارة النصارى لأشترى بثمنه بعض الاطيان
المجاورة لاطياني بناحيتنا لتخلص لي اطيان الناحية كلها

(شيخ رابع) - أيعزب عنكم بارك الله فيكم ان ربح التجارة
خير من هذا وذلك وهو الربح المستتر عن النظر المحتجب عن اصابة
العين المحفوف بالبركة والنمو على الدوام . ومن منكم بلغ من الندوة
باطيانه أو أبنيتيه ما بلغه . مثل الشيخ فلان رحمة الله على الجميع من

التجارة والبيع

(الشيخ الثاني) - نعم ان التجارة لكما ذكرت لولا ما فيها من المشاغل والمتاعب ولولا ما تحدثه من التلبيح عن العلم والدرس (الشيخ الثالث) - لقد كان شيخنا المرحوم الذي نحن بصده يمد من اكابر التجار وأعظم اهل البيع والشراء فلم تلمه تجارته عن التقدم في مراتب العلم والتعلق بالمناصب العالية ولم تشغله عن افادة الطلبة بدروسه وتقاريره وبشروحه وحواشيه : وهو لا تلاميذه ممن تزدان بهم اليوم حلقات الدروس وتفتخر بهم مجالس العلم يشهدون على ما أقول

(الشيخ الرابع) - متأسفاً متحسراً :

واذا السعادة لحظتك عيونها ثم فالمخاوف كلهن أمان
(شيخ خامس) - لكننا الا ضمن عندى والا وثق في هذا الشأن أن يضع المرء ماله من فضة ونضار عند من يثق به ويعتمد عليه من خيرة التجار فيشتغل له في التجارة ويضاعف له الربح والكسب فيما يتيه من ذلك رزقه عفواً صفواً بدون اشتغال فكر أو تعب جسم أو إضاعة وقت
(شيخ سادس) - لقد فاتني ان أخبركم بما سمعته من فلان باشا وهو ان الربح كل الربح أصبح اليوم في مشتري اسهم الشركات وأنه

قصر سعيه في نحو الثروة عليه . ولكن ماقولكم دام فضلكم في
هذه الاسهم أيجل التعامل بها أم يحرم
(الجميع) - وهذه أيضاً بدعة البدع

(الشيخ سابع) - نعم وإن كانت المسألة «خلافية» . وليس عندي
أوثق ولا أضمن من ادّخار ذهبي في صندوق تحت يدي وأمام عيني
يصبح لي سالماً وأيّد عليه آمناً . وعلى ذكر فلان باشا هل عندكم
من خبر عن تزويج ابنته من فلان بك

(الشيخ السادس) - نعم بلغني ان الخطبة تمت بينهما

(الشيخ السابع) - ومتى يكون العقد

(الشيخ السادس) - لا تطعمن أيها الاستاذ في الدعوة لعقد الزواج
وتناول الهدية ولا يطعمن فيها أحد منا بعد أن علمتم أن جماعة
الكبراء والعلماء قد حكروا عقد العقود على اثنين من أرباب المناصب
الدالية بيننا حباً في السمعة والنفخ فنفهم يتباهون يوم العقد مثلاً
بوجود الشيخ محمد كما يتباهون ليلة الزفاف بوجود الشيخ يوسف
(الشيخ الخامس) - الشيء بالشيء يُدرك فهل بالغتكم الدعوة الى

عرس فلان

(الجميع) - نشهد أن الدعوة بالغتنا جميعاً

(الشيخ السابع) - نعم ولقد أجلتُ سفرى الى الريف حتى
أجيبها معكم

(الجميع) - أحسنتَ وأصبتَ فإن المجاملة تقضى بذلك
(الشيخ الثالث) - والله لولا أن سمادة فلان شادعاني الى العشاء
معه في هذه الليلة الموعودة وأن في نفسى قضاء حاجة عنده لكنت
معكم أيضاً ولكنى اخاف ضياع الفرصة فقد روى لى سائق مر كبتى
ان عنده حصاناً عتيقاً هو في غنى عنه وأنه مشابه لحصانى في الطول
والشعرة ولى أمل أن أبتاعه من سعادته بعد العشاء بماطف من
القيمة وخف من الثمن

(الشيخ الخامس) - ولكن عسى الله ان يكون مجلسه خالياً في
هذه المرة من وجود مثل ذلك السفينه الذي كدّر علينا مجلسنا حين
كنتُ معك بسوء المجادلة فانه خيبه الله كان يحتاج علينا في تحليل
التحلى بمصوفات الذهب بأن فلاناً من الدماء يحمل ساعة من ذهب
غير ملتفت الى اختلاف المذاهب في هذا الباب ولو كان الشيخ الذى
سمّاه ممن يهتدى بنور العلم لَمَّا جعل لمثل هذا السفينه سبيلاً في
الاحتجاج علينا

(الشيخ الرابع) - قلُ ما شئتَ في هذه الايام التى اجترأ فيها أرباب

الطرايدش على أرباب العلمين بمباحثهم ومجادلتهم ومناقشتهم.
ومزاحمتهم لهم في علومهم وأين نحن من تلك الأيام الماضية وما كان
عليه العلم والعلماء من العز ورفعة القدر ووقوف الناس عند حدهم
والتراسيم الصمت وحسن الاذعان والتسليم في مجالس العلماء مع
التوقير والتعظيم والايجلال والاكرام لكل من اتسم بسمة العلم
حتى كأنه قد كتب على صدر كل واحد منهم نص الحديدين الشرينين:
« العلماء ورثة الانبياء » و« علماء أمي كآ نبياء بني إسرائيل ». وكيف
لا يكون الخطب جليلاً والمصاب عظيماً أم كيف لا تنهل العين بالدم
دون الدمع وهو لاء المتشدقون لم يكتفوا بالاقدام على مجادلة العلماء
بل أقدموا على تجهيلهم في العلم وسعوا في إدخال بعض العلوم المحدثه
المبتدعة في حلقات دروس العلم الطاهرة ليجعلوا كبار علماء الدين
الذين لا يكثرثون بهذه العلوم الباطلة كالتلامذة لهم. فانظروا الى
أين وصلت بهم الجرافة والوقاحة على أن علومهم هذه ليست بنافعة
في الواقع ونفس الامر وما هي والعياذ بالله الا مدوجة للزيف
وَزَلَّة عن الصراط يستدرجهم الشيطانُ بها من حيث لا يشعرون
وأنت تعلمون أن في معرفة قواعد الحساب الأربع مثلاً ما يغني عن
التبحر والتمعق كما يفعلون في علم الحساب ليتدرجوا بالطالب الى علومهم

« الفلسفة المدققة وتؤيد مشوهة على الزندقة والاحاد وقانا الله كيد الخائنين
ومكر الماكرين .

(الشيخ الثالث) - وعندك من هذه العلوم أيضا علم التاريخ فانه
عبارة عن الاشتغال بالاقاصيص والاشاطير ولا بد أن يجر صاحبها
الى الخوض في سيرة الصحابة رضى الله عنهم وما وقع بينهم من الحروب
- مما نهى الشرع عنه - بنص الحديث : « اذا أفضيتهم الى ذكر أصحابي
فأمسكوا » ، ويكفى من هذا العلم كله أن يحيط المرء بما جاء في « السيرة
الحلبية » وحدها .

(الشيخ الثانى) - خبرونى ناشدتم الله ما هذا العلم من علومهم
الذى يسوونه « الجغرافيا »

(الشيخ الثالث) - هذا هو الذى يقال له عندنا علم تخطيط البلدان
« ولو كان قاصرا عندى على ذلك لما كان ضارا ولا نافعا ولكن ضرره
عظيم ومنهته وخيمة بما اهتزج فيه من نسبة الدؤران للارض
والسكون للشمس وتعليل حوادث السماء بتلك العلل المبتدعة التى
يكذبها البيان ولا يقوم عليها البرهان مثل زعمهم أن مطر السماء
- من جوف البحر وأن السحاب أبخرة متكاثفة وأن الرعد والبرق
- عن احتكاك السحب بضغط الهواء مما ينافى العلم المعروفة المعقولة

بيننا وينافض ما رواه كعب الاحبار . من أن السحاب من ورق الجنة
وأن الرعد صوت مَلَك يسوق السحاب وأن البرق لَمَعَانُ حربَةٌ
ييده . وأين هم حَسْبُهُمُ اللهُ مما رَوَى عن ثبات الارض وأنها محمولة
على قرن ثور والثورُ محمول على صخرة والصخرة على ظهر حوتٍ
ساجٍ في الماء وأن أول ما يأكل أهل الجنة من كبِد ذلك الحوت
على أننا لو طالعنا كتبهم التي يرون أنهم فاقوا بها الأوائل والأواخر
بزعمهم ووصلوا بها في علم تخطيط البلدان الى ما لم يصل اليه سواهم
بدعواهم لوجدناها عاجزة في الاحاطة والافادة عما بلغت « خريدة
العجائب » وحدها الامام ابن الوردي فإتينا لم نسمع أنه ذُكر في
كتبهم من عجائب المخلوقات مثل ما ذكر منها في الخريدة كِبَلَاد
« واق الواق » التي يثمر ثمرها بالكواعب الأتراب معلقة من
شعورها في ذوائب الاغصان وكلما أشرقت عليها الشمس صاحت :
واق واق . سبحان الملك الخلاق . ومن مثل ما ذكر في « بدائع
الزهور ووقائع الدهور » عن الشيخ حامد أنه بلغ في رحلته منبع
النيل بعد أن عبرَ اليه البحر الاسود على ظهر دابة تعبد الشمس
فاذا أشرقت الشمس على أحد شاطئيه أنتت الى ذلك الشاطئ ولا
تزال دائرة مع الشمس حتى تصل الى الشاطئ الآخر . وقد رأى

الشيخ حامد النيل يحرى في ذلك البحر كالخيط الأبيض في الثوب
الاسود ووجده يخرج من قبة من ياقوتة حمراء وراء جبل قاف
وأن ماءه هناك أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من العسل وهذه القبة
يخرج منها أيضاً ثلاثة أنهر وهي سيجون وجيجون والفرات .
فهل وصل القوم الى معرفة مثل هذه الحقائق في بدائع المخلوقات الى
اليوم وهل عندهم من أثر لذلك في كتبهم الحديثة وعلمهم المبتدعة
(الشيخ الرابع) - تالله إنا لنرى زمن أصبح القابض فيه على دينه
كالقابض على الحجر في جانب هذه البدع الافرنجية ومن يضال
الله فما له من هاد

(الشيخ الاول) - اذكروا الى بالله عليكم ماذا حصل طلاب
هذه العلوم الجديدة منها وماذا أفادوه وهل سمعتم يوماً أن أحداً
نفع الناس فوضع لهم متناً أو شرحاً على متن أو حاشية على شرح
أو تقريراً على حاشية أو اختصر مطولاً أو طولاً مختصراً
(الشيخ الثاني) - ما أعجزهم عن مثل ذلك وأقصرهم وجل ما
في طائفتهم أنهم يكتبون المقالات في تميرنا بأضاعة العمر في هذه
الاعمال النافعة ويسعون جهدهم في إبطال ما ندرسه منها . وهل سمعتم
لعمري أيكم يدين قام أو يقين دسح أو شرع نفذ الا بهذه الشروح

والخواشي ولكنهم لما عصرت أفهامهم وضاعت قرائنهم عن استيعابها وحفظها حسدونا عليها فأرادوا أن يحطّوا من هذه المزية الكبرى حتى لا نمتاز عليهم بفضل ولله در القائل :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فاكل أعداء له وخصوم
(الشيخ الثالث) - صدقت صدقت وما أحكم قول الآخر :
وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

(الشيخ السادس) - اطووا عنا هذا الحديث ولا تشذّوا
أوقانكم بالكلام في أولئك الثرثارين المتفقيهن فلهن كتبهم
ومدارسهم ولنا علومنا ودروسنا والله يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة
(الشيخ الخامس) - كان يجوز لنا السكوت بن منكرهم لو لم
يتعرضوا لنا ويُمرّضوا بنا في ما يسمونه بالجرائد فيملأوها بالتقادنا
والقدح فينا ويتطفّلوا على موائد اللغة الشريفة ويفخروا بأنهم
برعوا في فصاحة الوعظ والارشاد ونعوا في جسيم العلوم وسبقونا
إليها . وإنما الجرائد أيضاً بدعة من البدع وفتنة من الفتن ولو
شئنا لكتبنا وأملينا

(الشيخ الرابع) - ومع ذلك ففي كثير ممن طلب علينا العلم
وسوّت له نفسه الكتابة في الجرائد من قد فأنهم في طريقهم

وبذلّهم في ميدان فصاحتهم وهذا الشيخ فلان ذلك النابغة الازهرى
قدّم الى بالأس مس مقالة مطبوعة في الجريدة من أبلغ ما كتب
الكاتبون وأفصح ما نثر الناثرون وليس لأحد من أهل التحرير
أن يتماق بنبارها أو يجري في أثرها . والجريدة في محفظي فان
أردتم أن أتلوها عليكم فعلت لتعلموا ان ليس لأولئك المختارين
من فضل علينا ولا مزية دوننا

(الجميع) أسمعنا أسمعنا

(الشيخ الرابع) - يقرأ :

. «عوامل الفتح الالهي» طرأة التأثير بحكم باعت اعتدال راع
في رعيته ومرعي مع راعيه ولما كانت القوانين الطبيعية تدعو الى
حفظ مزاج الجامعة من طواريء الكوارث الدهرية التي اذا دعاها
داعي التفرق والانقسام تلبّيه حيث هي النتيجة من مقدمات
الاعتساف الذي هو مهد التخالف وبساط عدم التألف وكان الانسان
بحكم نشأته ميالا الى أقرب العوامل تأثيراً فقد وجب أن كل أمة
لابد لها من أمرين

د فالأمة هي منزل الكمال . ومحتسداً الجمال . ومربع الامارة .
ومطمح الاشارة . ومقصود العبارة . ومورد المحافظة . ومسند

المحاضرة . وسجل المناظرة . وكال الناقص . ومرتبب الشاخص .
وهي الرباط الأقوم . والحفاظ الانظم . فيها كل خير . ولها كل
نفع وعليها كل ضير . ذات الحق . وحليقة الصدق
« واني ليدعشني وقفاً ويذهلني صدعاً أصل جامع وأثرافع ما .
نطقت به ألسن الحكمة من سواف العقلاء المفكرين وذوى الدراية .
المتوغلين وهو : « ان مبادئ ثلاثى الأتم تخاذل عقلاتها ، أجل
أجل إن هذا الامر أدعي الى امح السوانح الفكرية والمساوقة فى
مضمارها حتى يتبين طريق التلافي لاضرار الثلاثى وذلك أن تخاذل
العقلاء يفضى الى انقسام الوجهة وبانقسام وجهتهم تنقسم امة البساطة .
فيسود الايثار وتحف مرا كن العمران بالاخطار ويتنفس فيها
مصدور الكدار . بزفرا ت هي مبدأ كل دمار . وتتولد الضغائن بين
الحميم والخليل . والوكيل والاصيل . فيمسى الحال . بنخبة المآل . إن لم
تتوفر شرائط الاعتدال . ثم والعقلاء فى كل أمة هم اركان مجدها
وأعمدة قوامها وسراج سبجها ومفتاح أقفالها ومعيار أقدارها .
ومصفاة أدرانها وشكاة أفرامها فالانحداد بينهم اقرب منه فيما بين .
غيرهم على بصيرة من صيرورة التساهل فيه الى حد التخاذل الذى .
هو أس المبادئ العقيمة . والمواجيد للسقيمة . والموامل الكليمة .

والضرورات الالمية والبسطاء تباع فيما يسنونه لهم من قوانين
الترف والاذلال والخرف إن كانوا متخاذلين وقوانين الحكمة
والمدنية إن كانوا متعاقدين متحدين وللناس قلوب يفعلون بها سوانح
الفكر . في سُبُحات الذكر . وشطاط النظر . ونوال الوطر . ولهم
آذان يسمعون بها منادى الحق . في نأدى الخلق . بنشر الرق .
الذى هو لوح الاعتبار . ونظرة النظر . وصفوة الأخبار .
ومرتب السباق . ومصطبر الأشواق . وبرنامج الماكرات .
وممثل الاحقاب للاعقاب وحافظ ما مضى لما هوأت

دبنى وطنى من الاسف والاستغراب ان الاجانب اصبحت
وامست تدعى انها متأسية بمنيع السلف من مراعاة الشريعة في جميع
الاطوار وان يدتنا وبين التأسى بها بونا بعيداً وامداً مديداً . نعم هذا
الادماء وان كان ليس يواقى الا انه اجدى ثمرة وامراً يجب علينا
ان نتنجى عنه وان كان ليس مقصوداً للأجنبي وحققاً له ان يدعى
لأننا معاصر الوطنيين لو لم تتصف بهذا الوصف حقيقة لما تفرقت
كلماتنا وضعفت قوانا وساءت حالتنا وأصبحنا في حالة يرثيها الراءون
فلا حول ولا قوة الا بالله . اين المتمسكون بالشريعة اين الغائرون
تأين الوطنيون المحبون لبلادهم الذين تربوا من خيرها وجعلوها

مرثما ومحطاً لرجال الاجنبيين . اى فرق بيننا والحالة هذه وبين
العجم اذ لم تتأثر من هذه الاحوال والدواعى التى تصادفنا كل حين
وأى داع يدعونا للانتقاد على الاجنبيين فى أعمالهم التى يحدونها
لفرض سياسى من الاغراض

و كلاً . ثم كلاً . إنما مذتنا ينأ عن الجرى على النمط الشرعى
أملت بنا الشوائب اللاأواء من كل صوب وفج وصرنا كمن بسط
كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله أو كرجل أعشى أتى به فى
الفلوات فأماته الأسود . فهذه حالتنا الاثيرة التى بها تقاعدنا
وتقدم الاجنبى

ذائى . بهذا الصدد أقول إن الاتحاد هو حفظ الامة من أيدي الغير
عند ما يريد المعاس بها والدخول فى أحوالها الشخصية التى لا تعلق
له بها بأى حال من الاحوال والىكم البيان - المسألان اللتان مضتاً
ورُفِتَ بسببهما أستاذنا للفضال حين ما قام يساعد صاحب
السماحة لخدمة الوطن الحققة فاتحداً ولو لا ذلك لعل ما حل بأهل
الاندلس وزاد الطنبور نعمة فببجان مديبر الاحوال ، انتهى
والله أعلم

(الشيخ الاول) - ما شاء الله لا قوة الا بالله لقد أحسن

وأجاد . وأدبني عيون الحساد

(الشيخ الثاني) - صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان من البيان لسحرا »

(الشيخ الثالث) - نعم ان هذا هو السحر الحلال والعذب الزلال

(الشيخ السابع) - تبارك الله ما أبلغ وأفصح . وأبين وأوضح

(الشيخ الخامس) - بارك الله فيه . فلقد شر الذر من فيه

(الشيخ الرابع) - ألم أقل لكم إنا لو أردنا لكتبنا ولو عمدنا

الى الكشف عما تكنه الصدور من أنوار العلوم لأخر سنا كل

ناطق وأزرينا بكل كاتب ونائر ولكن ليس من الحكمة أن نبذل

الجوهر لمن لا يعرف قيمته ولا الوعظ لمن لا يراعي حرمة

قال عيسى بن هشام - وما وصلنا من المجلس الى هذا الحد . حتى

قام الباشا يزعم كالأسد الورْد . " وجذبني بيده للقيام . من غير

إذن او سلام فخرجت معه وهو يؤا الى الحُشرات . ويتابع الزفّرات .

وينشد معي في اهل هذا المجلس الأول . قول الأول :

ما فيهم بُرٌّ ولا ناسكٌ إلا الى نفعٍ له يجذبُ

أفضلُ من أفضلهم صخرةٌ لا تظلمُ الناسَ ولا تكذبُ

﴿الاعيان والتجار﴾

قال عيسى بن هشام— واستنهضتُ الباشاَ أوزور بدِ مجلساً من تلك
المجالس المَعْدودة : والاندية المَعْقودة . مجلس الوجهاء والتجار .
بعد مجلس العلماء والأخبار . فشهدتُ منه أوزوراً وأقباضاً .
ووجدت فيه انحرافاً وإعراضاً . ثم التفتُ الى يعاتبني عتاباً شديداً .
ويوسعني غداً وتقنيداً . ويقول لي ما عهدت منك منذ صاحبتك
الاخيرَ لي تريده . والنفعَ تبدؤه وتعيده . وما زلت اشكر لك
تلك اليد البيضاء . في العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء .
دفعاً لما كنت تحذر وتخشى . من شر الخاتمة وسوء العقبى . بنزاحم
الاحزان . وتراكم الاشجان . وما تعقبه من السقم والاعتلال .
يسوء النكسة بعد النقة والابلال^(١) . فما بالك تستنهضني الى مثل
هذه المجامع والمجالس . بعد الذي رأينا في مجلس أصحاب القلانص^(٢)
والطيلانص^(٣) . ذوى العلم والتقى . وأهل الرشد والنهى . مما تنذوب

(١) الابلال الشقاء .

(٢) القلنص نوع من ملابس الرأس

(٣) جمع طيلسان وهو ق لباس مشايخ العلماء

له العميون الجوامد . وتتفجر عنده صُمُّ الجلامد . ويفضبه له
أهلُ الاسلام من الشرق الى المغرب . ولا يَرْضَى به صاحبُ
العرش في السماء ولا صاحبُ المقام يثرب . وقد شاهدتني يكاد
يضيبنى التلف . من شدة الحزن والاسف . فقلت اشهد الله ما
أُنيي لك الا الخير والتوفيق . في كل مذهب وطريق . وقد رأيت
التجارب أو سمعتك كرمًا وحلما . وصروف الدهر اكسبتك معرفة
وعلمًا . بعد قلة الاختبار . وكثرة الاغترار . وسوء الابتدار . في
الابراد والاصدار . وما كان فيك من خشونة الممس وشموخ
الأنف وضيق العطن وصكف الرأي . وما أحب لك بعد ذلك أن
توى في أمور الناس الا شهيداً يُسلى عن الكرب . ولا بكاء يفرج
عن القلب . فلا يكن نظرك الى أعمالهم في غدوم ورواحهم . وفي
أفراحهم وأتراحهم . ونعيمهم وبؤسهم . ورجائهم ويأسهم . مثل
نظر الحكيم «هيراقليط» . بل مثل نظر الحكيم «ديموقريط» .
كان الاول يشاهد أمور الناس فيبكي ويحسر . وكان الثاني يراها
فيضحك ويسخر . فاذا أنشد أحدهما في نصرة مذهبه :
الناس من دنياهم في ماتم فالسحبُ تبكي والراعدُ تندبُ
أنشد الثاني في تأييد مشربه :

هذى الحياة رواية لمشقة ص . فالليل ستر والنهار الملب
ومن صواب الرأى أن لاتذهب نفسك عليهم حصرات . ولا
تذرف عينك من أجلم العبرات . وهلم معى أمتك بزيارة مجلس
يؤنس من وحشتك . ويكشف من غمك . فألس مطاوعا
في القياد . ووافقي هلى ما تبين له من الرشد والسداد . فيمت
به دارا عالية الجدران . واسعة الأركان . شائقة البنيان .
لأحد التجار الاعيان . فزاحمنا عند الباب سائس يسحب فرسا
مصحبا مطيما . ويحمل على كتفه طفلا رضيعا . يقول وقد أظهر الغيظ
بواطنة الكامنة : لست أدري والله أسائس أنا أم حاضنة . « ومن
ورائه آخر يحمل صفحة متدقة بالخال . . يقول وقد تلوث بامها
وتبلل : غلام أتعب فى هذه الدار وأشقى . ولألم يدوم هذا الشقاء
ويبقى . ولست أدري والله أسائق أنا أم سقا . « ولما ولجنا الباب
إذا بالبواب . يقول وفى يده صرة ثياب : لا مرد للمقدور والمقضى . «
ولا رجاء فى الميث الرخى . والله ما أدري أبواب أنا أم خصى .
ولما جاؤنا دهلز المكان . الى باب الإيوان . وجدنا عنده غلاما
فتى السن . ينهدوين . وبين يديه دخان وورق . وبجانبه كتاب
مطبق . وهو يقول : عجبا والله للوالد يشغل ابنة بسجارات

يُحْشَوْهَا. فَيُأَيِّدُ بِهَا عَنْ دُرُوسٍ لَهُ يَتْلُوهَا. لَا غُرُوزَ إِنْ فَاضَتْ الْعِيُونُ
بِسُوءِ أَكْبَاهِهَا. وَاحْتَرَقَتْ الْقُلُوبُ بِلُؤَاهِبِهَا. فَمَا أُدْرِى وَاللَّهِ أَفْرَاشُ
الدَّارِ أَنَا أَمْ ابْنُ صَاحِبِهَا. هـ فَمَا أَحْسَنَ بِنَا حَتَّى انْتَفَضَ قَائِمًا. وَتَقَدَّمَ
مُسْلِمًا. ثُمَّ ذَهَبَ أَمَامَنَا. لِيَذْكُرَ قَدُومَنَا. وَإِذَا بِالْوَالِدِ مُقْبِلًا عَلَيْنَا
يَتَكَفَّى فِي مَشِيَّتِهِ. وَيَتَعَثَّرُ فِي جُبَّتِهِ. فَسَهَّلَ بِنَا وَرَحَّبَ. وَبَالِغَ فِي
النَّحِيَةِ وَأَسْهَبَ. وَدَخَلَ بِنَا عَلَى أَهْلِ مَجْلِسٍ مُخْتَلَفِي الْأَزْيَاءِ وَالْهَيْئَاتِ.
مُتَبَايِنِي الْأَشْكَالِ وَالسَّمَاتِ. فَمِنْ صَاحِبِ عِمَامَةٍ يَتَعَهَّدُ يَدَهُ رَصْفَهَا.
وَأَخْرَجَ يَحْدَدُ لَقْفَهَا. وَيُحَبِّكُ بِالْأَبْرِ طَرْفَهَا. وَمِنْ صَاحِبِ طَرْبُوشٍ
قَدْ أَمَلَهُ عَلَى جَبِينِهِ. فَإِذَا تَحَرَّكَ أَسْنَدُهُ يَمِينُهُ. فَتَرَى يَدَهُ أَبْدًا لَا
تَسْكُنُ وَلَا تَسْتَقِرُّ. كَأَنَّمَا هُوَ فِي تَأْدِيَةِ سَلَامٍ مُسْتَمِرٍّ. وَوَجَدْنَا مِنْهُمْ
جَمِيعًا قَدْ كَثُرَ بَيْنَهُمُ اللَّغْوُ وَاللَّغَطُ. وَسَمِعْنَا مِنْهُمْ يَتَحَاوَرُونَ عَلَى هَذَا
النَّحْوِ وَالنَّمَطِ :

(أَحَدُهُمْ) - نَعَمْ لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ إِذَا يَسَّرَ اللَّهُ وَتَمَّ الْإِتِّفَاقُ
مَعَ الْخَوَاجَةِ فَلَانِ فَإِنَّ إِقَامَةَ عِمَارَةٍ أُخْرَى يُجَانِبُ تِلْكَ الْعِمَارَةَ مِمَّا
يَأْتِي بِأَرْبَاحٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَأْتِيَ بِهَا الْأَشْغَالُ التِّجَارِيَّةُ وَأَنَا أَنْصَحُكَ
يَا أَبَا هَاشِمٍ أَنْ تَتْرَكَ التِّجَارَةَ جَانِبًا فَقَدْ أَصْبَحْتَ الْآنَ وَلَا نَفْعَ
يُرجى مِنْهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِي الْأَشْتَغَالِ مَعْنَا بِالْأَبْنِيَةِ فَهِيَ

أنجح وأربح

(الثاني) - ومن أين لي زادك الله من النعمة والبركة ما يساعدنني على هذا التوسع والحال على ما تعلم ضعيفة والحمد لله على نعمة السر فهي الغنى الكامل

(الاول) - لا تقل هذا أيها السيد . وأما بنعمة ربك فحدث . ودعواك ضعف الحال إن هي إلا تواضع منك والله يزيدك فضلاً على فضل

(الثاني) - أستغفر الله يا سماعة البك هذا حسن ظن منك والا فالحقيقة غير ما ظننت وقد قلت لك إن السر هو الغنى الكامل وعلى كل حال فالبركة في التجارة فمنها كان رزق الآباء والاجداد وربحٌ مستور أبرك من ربح مشهور

(ثالث) - تالله إنكم لفي ضلالكم القديم وهل بقي في التجارة التي زاحمكم عليها الا جانب ربح يُذكر أو رزق يُطلب فاتركوا هذا الخول وعاليكم بأشغال الأقطان في البورصة فهي الربح المضاعف والرزق الحاضر يأتيك رغداً بلا كد ولا تعب وكم رأينا من فقير ولجّ البورصة فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً وهذا صاحبنا الخواجه فلان اليهودي وفيكم من ادرك والدته تبيع الخبز بالحارة

قد مارس تلك الاشغال فأصبح أكثر الناس مالاً وأرفعهم حالاً
ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والاعمام رحمة الله عليهم
(رابع) - ولكن فأتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذي تعنيه
لم يصل الى ذلك الا بأشغال السمسرة وفيها من الحطة ما لا يخفى
عليكم . وهل تريدون ان ينزل احدٌ منا بنفسه الى هذه الاشغال
بعد ان عشنا مثل هذا العسر

(الثالث) - حاشا لله أيها السيد وليس هذا من قصدي
وانما أردت ان أبين لكم ان هذا اليهودي دخل البورصة سمساراً
لا يمتلك مالاً فأصبح من كبار الاغنياء فما بالك بمن يدخلها
وهو صاحب ثروة . لا شك انه يخرج منها بعد مدة قصيرة
قارون زمانه

(خامس) - ما وراء الربح الكثير الا الخسران الكبير وقد
شاهدنا بأعيننا ما أتتجه اشغال البورصة من تخريب البيوت
العامة وتبديد الغنى الواسع وانحطاط العباد الرفيع وأرى ان
الاقدام على هذه المهالك من الجنون المحض «فالله خير حانظاً»
(سادس) - أما أنا ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين
فقد كفاني تأديباً ما تكبدته من الخسائر في تلك المضاربات على

الاقطان ولو لا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجرت
من الخراب

(الثالث) - لا حول ولا قوة الا بالله فانك لاتَهْدِي من.
أُحِبَّتْ « كيف تخشون الخسارة في أشغال الأقطان وتتوقعونها.
والربح فيها مضمون مع بعض الانتباه لجري الاخبار وحسن
التخمين في الاحصاء وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم ومع
القليل من الممارسة والجرأة في العمل

(سابع) - كيف تدّمي ذلك حفظك الله وهذا فلان المشهور
قد انقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معدّاته فما زال يهوى في بحر
البورصة حتى وصل في الخسارة الى القرار ولما كان لا يزال ظاهراً
في أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجَمّ

(ثامن) - سبحان الله الا تعجبون معي من اتساع الشهرة
بيننا بالثّنى والثروة ثم لا نلبث ان تنكشف الحال عن القفلة
والضعف فكم سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تُقدَّر بالآلاف الألف
ثم يظهر الخفى ويتضح الباطن فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك
الشهرة الكاذبة

(الخامس) - نعم صدقت ألم تروا الى المرحوم فلان كيف

كان يفاخرني في كل مجلس عند ما اخذت الرتبة بأنها كثر مني حالاً وأعظم ثروة وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبته سامية ^{بأنها} ألمّا توفاه الله انكشفت الحال ولم يرث عنه اولادُهُ ما يكفي لبقاء بيته ^{بأنها} حفتوحاً وبقاء اسمه مذكوراً . وقس على ذلك امثاله من هذا النقييل فسبحان الفنى الدائم

(الراج) - دَعُونَا بالله من ذكر الاولاد والموارث فاني كلما تذكرت اخلاق ابنائنا في هذا الزمن ورأيت ما وصات اليه ثروة خلاق وما انتهى اليه حال اولاده من الفقر والضمك بعد ان بددوا تلك الاموال الطائلة واصبح ذكر ايهم بينهم نسياً منسياً فلا يزودون له قبراً ولا يطلبون له رحمة - هان على ان انفق ما في حوزتي في حياتي وان اتمتع بأموالي في مدة عمري

(الخامس) - مِمَّا ذُكِرَ ان تفعل ذلك بأبنائنا وما فائدتنا في هذه الدنيا اذا لم نجتمع الاموال ونُدْخِر الثروة لأعقابنا ونترك لهم ما يضيئهم عن سؤال اللئيم بعدنا . ولا تجعل الذنب كله على الاولاد في تبديد الوارث بل للذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون اموالهم مملأاً بعد موتهم ويففلون عن تقييدها فيوقف فينتفع الآولاد بالريع وتبقي العين قائمة والبيت ممتوحاً

والاسم المذكوراً ولا يحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية مع وجودها الى

(السادس) - لامؤاخذه ياسعادة البك في مقاطعة الحديث ألم تسمع بما حصل في وقف فلان وفلان وغيرهما وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون حتى آل النظار والاستحقاق فيها لليهود واندثرت البيوت وعفت الآثار وذهبت أسماء اصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم

(السابع) - نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط ان يكون بمثل الشروط التي وقف بها المرحوم فلان فانه خُصص جانباً من الربيع لذريته واشترط أن يُحفظ الباقي ويدخروا كما تكون منه نُقد عظيم يُشترى به عقار ثم يوقف ويضاف الى الوقف الاصلى ليكون في نمو متواصل على توالي الايام وصرّوف الحدّثان وبذلك يصير البيت في درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه في أيام حياته فأنعم بها من طريقة وأحسن بها من وسيلة

(الثالث) - ليس ذلك من الحزم في شيء ولكنه التبع الى البخل والشح ومحبة الادّخار بعد مفارقة الحياة ولقد حرّم المرحوم نفسه من التمتع بماله في حياته وحرّم أولاده منه بعد موته بائتمام هذه

الطريقة القريبة في شروط الوقف

(الاول) - أطلب منك العفو والسمح وعدم المؤاخذه فمن يقول ان المرحوم كان شحيحاً معتزاً قد والله عاشرته الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتر عليها . وما كانت مائدته لتخلو من الضأن او اللحم أو الدجاج وحق جدك وانما كان الرجل حازماً لا ينفق ماله الا في الوجوه النافعة

(الثاني) - لاعتماد عندى في هذا الباب على الوقف أو الملك وخير ما يذخر الوالد لابنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم في المدارس وان لا يموتهم في حياته الانفاق والتبذير بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار (الاول) - وهل جاءتنا المصائب في أولادنا الا من هذه المدارس وتعليمها وهل زادهم ذلك التهذيب الا ما شئت من الفظاظ والوقاحة والكبرياء والمكابرة ولقد أدهشنى فلان بالامس وأضحكنى في شكواه مر الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم في المدارس والمجالس إذ قال لى في حديثه : ما زال هذا الولد يزيد في تعذبي وتكديري منذ خروجه من المدرسة فأصبح لا يكلم أهله الا بالرطانة ولا يُعرب عن غرضه الا بالتعنيف والتأنيب ولا يرضى عن شئ في البيت . فاذا

جاؤا له بالماء قال فيه المكروب . واذا أتوه بالخبز والجبن قال علي
بالمكر سكوب . ثم ترى الشقي يقسم الأَطعمة أقساماً فيقول البيض
واللبن غذاء كامل والخضر غذاء ناقص لا ينفع ولا يعمى وأن الأرز
وما شابهه من « المواد النشائية » لا فائدة منها سوى أنها تحترق
كالوقيد في الجسم وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد
وتتورم به الاعضاء وأن الفواكه لا بد أن تؤكل من ساعتها إذا
تشققت خصوصاً البطيخ لأنه أسرعها نبولاً لتولد الحيوانات السامة
وهلم جراً حتى حبر الخبيث أهل البيت في طعامه وشرابه فوق
ما حيرني في اختلاف ملابسه وتعدد أزيائه وكلما عارضته في شيء
شمخ بأنفه استكباراً ولوى عنقه استحقاراً وسخر بي لجهلي وغر
علي بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذي يكتسبه أبنائنا من علوم
المدارس يتعلمون على آباءهم ويعتبرونهم بحملهم بعد أن كان الولد كالابنت
البكر في الزمن الماضي لا يرفع طرفه في وجه والده حياءً
ووجلاً وكان لا يجرؤ على مكانته إلا محيياً عن سؤال من صغره
إلى كبره

(الثاني) - ولكن فأتك ان تعلم أبنائنا في المدارس يفيدنا فائدة
عظيمة يغتفر لها كل ذنب وهي دخولهم في سلك الموظفين في

الحكومة وارتقاؤم المراتب والمناصب وباليات آباءنا كانوا التفتوا في أيامهم الى تعليمنا في المدارس فكنا استغنيين عن ممارسة التجارة وذل البيع والشراء وكساد السوق وترويج السلعة بالاقسام والايمان فما العيش الاعيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم في آخر كل شهر نقداً عيناً وذهباً خالصاً دفعةً واحدةً سالمةً لا يديهم بلا مطل ولا تسويق في مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم يقضون الجزء الأعظم منها في المسامرات والمفاكهات ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوتير والتعظيم وما في قدرتهم من مساعدة الاصحاب ونكاية الأعداء . ورأس المال في ذلك كله الاحاطة ببيعة كتب في المدرسة . فاخبرني حينئذٍ أي ربح في التجارة وأي شأن لها يوازي هذا الربح وهذا الشأن في خدمة الحكومة وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة

(الرابع) - كل هذا معلوم ومسلم به ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم فقد خرج اكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال في نفقاتها ومن صادفته العناية منهم ونال الشهادة مثل ابني فانه لم يزل يتردد على ابواب الحكومة في تطالب الخدمة والوظائف مشحونة

ونظار الحكومة على ما تمهدهم من ضعف المهمة

(السادس) - عسى الله أن يبدل الأحوال وتسقط هذه

الوزارة ويمنّ علينا برجوع أولئك النظار الذين يهتمون بمصالح
أهل البلد وأبناء الوطن فترى حينئذ كيف يكون تقدّم أبنائنا
في المناصب

(الخامس) - حقاً اذا ذهب هؤلاء النظار وماذا صاحبك الى

الوزارة فقد أقبل علينا السعد وانجأت الكروب وصفت الاوقات
وانا أرجو أن لا تنمى ابني عند السعى لا نجا لك فقد كان معهم في
مدرسة واحدة وهو دائماً يطالع الجرائد ويتربح الحوادث التي
يكون من ورائها سقوط هذه الوزارة

(الثامن) - أراكم تخبطون في أمر أولادكم على غير هدى -

والأصوب عندي أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم
معرفة واطلاعاً لا لأجل التوظيف في الحكومة والخروج عن
طبقاتهم . وأما من جهة حفظ الموارث في أيديهم بعد مما تنافأ حسن
الطرق أن لا تقير عليهم في النفقة أثناء حياتنا وأن لا نتركهم
بمزل عن أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على
حمتهم تحت أعيننا ليعملوا على العمل ويدركوا لذة المكسب

في أنفسهم فتدبري لهم ملكة الحرص على المنافع وينتفعوا بلومهم في
توسع تجارتهم والتفنن في أبواب المراجعة ، وقد جربت ذلك في
أولادي وأنا أرجو فيهم الخلف الصالح ان شاء الله

(السادس) - هل جاءت جريدة اليوم

(صاحب البيت) منادياً لابنه - إئتنا بالجريدة واقرأها علينا

(يحضر الغلام وفي يده الجريدة ناشرها لها)

(الاول) - اقرأ لنا من الاول -

(الغلام) قارئاً - «الحرب»

(السادس) - هل وقعت الحرب

(الغلام) - ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) - اقرأها من آخرها

(الخامس) - اتركها من أولها الى آخرها واقرأ في «الحليات»

«خلا فائدة لنا في وقوع الحرب أو اجتنابها

(الغلام) قارئاً - «تأليف الشركات»

(الرايع) للسادس - لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة

الوطنية التي كنا تكلمنا في تأليفها منا لمشترى الأطنان المعلومة

من الحكومة

(الخامس) - ان شاء الله يكون لنا نصيب معهم في هذه الشركة

(الثالث) - مَنْ أعضاؤها وَمَنْ الرئيس

(السادس) - أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

(الثالث) - معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان في شركة

وهل نسينا ما وقع منه

(الثاني) - وأنا لا أقبل الدخول في شركة بعد تلك الشركة

المشهورة بخيبة المسمي ما لم اكن أنا الواسطة في مقابلة الحكام والمداولة معهم

(السابع) - وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا اذا كانت أسهمي

في التأسيس أكثر من فلان

(الاول) - وأنا لا أقبل ان يكون فلان رئيساً علي في

شركة أبداً

قال عيسى بن هشام - واشتدَّ بينهم الجِدال والخصم فمَلَّت

العيونُ وهبست الوجوهُ وتحركت الضغائن وثارت الاحقاد .

ورأيانا كل واحد منهم يضمه لآخيه من الشر والأذى . مالا يضمه

القرن لقرنه في ساحة الوفي . فالصرفنا عنهم وتركناهم يوج

بعضهم في بعض . كأنهم في موقف الحشر ويوم المرض

الحكام والرؤساء

قال عيسى بن هشام - وسرنا الى زيارة مجلس من أبواب الحكم والولاية . وذوى السياسة والدراية . ممن يديهم حل الامور وعقد دها . ويمسكهم شقاء الامة وسعد دها . الناشئين في مهد المعارف والعلوم . والنابعين في اشقات المنطوق والمفهوم . والموصوفين بدقة النظر وبمد البصيرة . والواقفين على أخلاق الخلق وطادات الامم . الذين تنكشف أضواء آرائهم فياهب الخطوب الداجية . وتنقاد للطف سياستهم أزقة القلوب الآلية . فوصلنا الى دار يزهر رياضها . ويهر إيماضها . قد ضربت عليها المحاسن أطنا بها . وخلعت عليها الزخارف جلبابها . فسار بنا الخدم الى حجرة في جانب الساحة . أعدت للانتظار والاستراحة . واذ برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان . فرأسه كروة الكري صولجان . فلما أحس بقدومنا ودخولنا عليه . انقبه بنج الناس بأصبعه عن عينيه . فسلمنا فسلم . وهو يتعاقب ويتلعم . فتخيلناه من ظاهر جلته . وبداذة هيئته . أنه صانع من الصناعات . أو تبع من الاتباع . ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للسلام . أنه ذو رحم

في البيت وذو مقام . ثم التفت إلينا مخاطبنا ويقول . بعد أن ذهب
الخدام مستأذناً في الدخول : « قَبِّحَ اللهُ الخدم . فهم نعمة من النعم .
شرهم حاضر . وخيرهم نادر والعناء بهم ليس له آخر . فكم أغضبوا
- إلهنا . وآذوا كريمةنا . وكم كسروا الصحيح . وخلطوا الصريح .
وكم ارتكبوا جرماً وإثماً . وجاؤا إفكاً وظلماً وكم فتحوا الأغلاق .
واختلسوا الأعلاق . وكم أحدثوا الشقاق . وأذهبوا الوفاق . وكم
فرّقوا بين المرء واهله . وحالوا بين الفرع وأصله . ولعنة الله عليهم
في الدارين . فقد ذقت منهم الآثرين . وكادت تصل بنا أفعالهم
الشنيعية . إلى ما لا يُحمد من الجفاء والقطيعة . وإبني حرسه الله ينظر
ويغضى . ويتحمل منهم ما لا يُرضى وهم يتجنون علينا وينتصرون .
وإذا أمرتهم بأمر لا يأمرون . ويشهد الله اني كلما رأيت مال ابني
في أيديهم يتبعثروني بقدد . وثقتهم تتضاعف وتتجدد . ذاب الفؤاد
فسال من العيون . شُوباً بما للشؤون^(١) وأما وكيل البيت وه الأدارك
ما الوكيل . خسبنا الله ونعم الوكيل . فتى لا تحطى في النفاق بحيلة .
ولا تطيش في الميت حيلته . دأبه المبكر والخداع . وديدنه الشقاق
والنزاع . يُرضى طفلاً . ليسخط كهلاً . ويتعلق للجارية في الحرم .

وللوصيف من بين الخدم

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر . ويتأفف ويتحسر . فلم يُنقذنا من هذه الشكوى التي أضَمَّ الاذان . الا رجوع الغلام بجواب الاستئذان . فانتبهنا من شقشة لسانه . وحمدنا الله على كرمه واحسانه . ثم اقتفينا اثر الغلام الى حجرة بادية الرّواء . مضيفة بالكهرباء . مفروشة بأثمن فراش . وأبدع ريش . على اختلاف في الاجناس والانواع . وتباين في الاشكال والاضلاع . فالتحفة الشرقية . تقابلها الطرفة الغربية . وآنية الذهب . يضارعها آنية الخشب . فوجدنا المجلس حافلاً بأهل الولاية والقضاء . من الرؤساء والوكلاء . فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر . ونجني من ادبهم ما يحلو من الثمر . وذونك بعض ما اقتطفنا وجنيئنا . وسمعنا ووعينا :

(أحدهم) - نعم حبّذا نصره حزب الجيش على بقية الاحزاب في فرنسا فان في ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا

(ثانيهم) - ما أبعد ما ترمى وما أسرع ما تحكم فهلاً حياتنا لله ابوك كيف ترتيبك لهذه القضية واستقراؤك لهذه

النتيجة . وما نحن وخذلان الاحزاب الفرنسية ونصرة حزب الجيش عليها !

(الاول) - أراك لست بعويص الرأي في السياسة ولا بيعيد الغور في استخراج النتائج ألا تعلم لازلت مسدداً ان في انتصار حزب الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ورجوعاً بفرنسا الى الملكية والامبراطورية أو القنصلية فتأيننا بمثل أو تلك الملوك والقواد الذين دؤخوا الشرق والغرب وقهروا الممالك وأخضعوا الدول وأصبحت لهم الكلمة العليا على اهل البسيطة فلا يمانهم في أغراضهم ممانع ولا يمارضهم في مطالبهم معارض . وإني لأعلم علم اليقين ممن عاشرت من كبار الفرنسيين وصاحبت أنه لولا هذه الجمهورية لما وصلنا نحن الى هذه الحال وما نحتمله فيها من الهوان والصغار واستئثار أو تلك القابضين على زمام حكومتنا بالامر والهي دوننا مع المرتبات الجسيمة والاساطة الواسعة ولما أفلقت أمامنا أبواب الترقى وانقطعت بنا اسباب التقدم فلو عادت فرنسا الى مجدها السابق وعزها القديم لرحزحتهم بأشارة وأزاحتهم عنا بكلمة ولا أصبحنا نتصرف في حكومتنا بأيدينا

(الثالث) - دعنا بالله من هذه الخيالات واتركنا من هذا القو

ومثلك لا يحق له الشكوي من هذه الحال فانك متين العلاقة
بالمستشار وما يدرك وبين الوصول الى المنصب الذي تتطلع اليه الا
قيد شبر وأنت مع ذلك في غنى عن خدمة الحكومة بما لك من الغنى
واليسر ولكن ماذا تقول في من هو في حاجة دائمة الى البقاء في أسر
الحكومة وذل الخدمة مع سخط الناظر وغضب المستشار وشعور
الرؤوسين بذلك فلا توفير عندهم ولا احترام ولا أدب فيهم ولا حياة
ولولا الاحتياج الى المرتب والاضطرار الى الرزق لما أقت في
الخدمة يوماً واحداً

(رابعهم) - وأنا والله لا انتظر الا ان يتم لي نصف معاش فأهجر
خدمة الحكومة وأنجو بنفسى من أسرار الرق وذل العبودية ثم أعتمد
بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة فهى أهنأ عيشاً وأعظم ربحاً وأبعد
بصاحبها عن مواقف الذل والهوان

(خامسهم) - ما أسخف الرأى وأضغف الفكر . ومن ينكر أن
خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأنًا من بقية
الحرف والصناعات . وكل اسباب المعاش لا تخلو في هذه الدنيا من
المتاعب والا كدار ولكن خدمة الحكومة أهونها حالا وأقلها
عناء ولا يفضل عليها الاشتغال بالتجارة الا من كان قليل البصر في

الامور ويكفيك برهاناً علي ما أقول انك تستخدم التاجر وتسخره
 مادام درهمك في يدك ولكن التاجر في حاجة ابدًا الى أصغر
 موظف في الحكومة وإن كان من أغني الاغنياء ولو ترام اذيفتخرون
 بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحية القاضي ومخاطبة المدير
 لعلت ان خدمة الحكومة بلغت في أعينهم وأعين بقية الطبقات
 مبلغًا عظيمًا من الشرف والرفعة بحيث لو خيرت أحدكم بين الخروج
 من ماله وعقاره وتجارته وإطيانه وبين الدخول في صف الموظفين
 بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه والأرقم
 من جلده ولحك بأن السعادة كل السعادة فيما تعدّه انت شقاء
 وبلاء وتمتبه ذلاً وهواناً

(سادسهم) - علي رسلك أيها القاضي لا تعكس القضية ولا
 تقلب الحقيقة ولا تحمل ما تراه في أخلاق أهل التجارة والصناعة
 والزراعة من الاستهانة بحرقهم والاستعظام لأهل الحكومة علي
 ان حرقهم خسيصة في ذاتها بل ذلك حادث فيهم من جهلهم
 وضعف إدراكهم والافلو تحلّي احدهم عن طبقته ودخل في طبقتنا
 يوماً لا أدرك في الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال في العمل
 والحرية في الرأي ولعلّ ان الموظف قد باع للحكومة حريته

ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه مقابل مقدار من المال يَعدّ لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر وبربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا في يوم واحد وهو أمير نفسه وسيد أهله ويا ليت آباءنا كانوا انتبهوا إلى تعليم الصنعة وتعميدنا على التجارة ولكن يتس ما صنعوا وبئس ما خافونا له ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت إليه حال الخدمة في الحكومة اليوم ولم يفتروا بما كان للحكام في الأزمان السالفة من الصول والطول والقوة والحول واكتساب المال من الجاه - ولو علموا أنه سيأتي زمان على هذه الحكومة التي كانوا في أيديها كالأيام في يد الوصي يكون أرباب المناصب فيه كالأطفال في حجر المرضع - لمضوا الأنامل ندماً ولا رسلوا بدل الدمع دماً على ما فرطوا في أمرنا وأهملوا في شأننا

(الخامس) - انك لتتكلم بكلام المعجائز اللاتي يقنعن من دهرهن بالخسيس من الملبس والطعم . وأين أنت هداك الله من طلب المعالي وابتناء المفاخر وتشديد المجد وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضرر . وأين أنت من قول الشاعر الحكيم :

ولو أن ما أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كفا في ولم أطلب قليل من المال
ولسكننا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَمَّلٍ وقد يدرك المجد المؤمل أمثال

والى الله المشتكى من زمن صغرته فيه النفوس وضغفت الهمم وماتت العزائم ورضى الناس فيه بالتحول والسكون وبالعيش الدون (السادس) - اني لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنك الصواب الى هذا الحد ترى ان فى خدمة الحكومة سودداً وعلاءاً ومجداً ومناء وما هي الا الذل والشقاء والبلاء فى أثر البلاء . وأنا أفصل لك الحال تفصيلاً لتعلم أن بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة مع القدرة على التنحي عنها عجزٌ وضعف وجعلٌ براحة الحياة وأى جهل فأقول :

تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة الى اربعة اقسام . القسم الاول الرغبة فيها للمال أعني لسدّ العوز وكفاف العيش . وصاحب هذا القسم يكون فى حال المضطر الذى حكم عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق فهو فى رق العبد وذل الأجير لا مناص له من الصبر على المضض حتى يجد له مخلصاً منه ومنصرفاً عنه وهو مثلى بعبط حال كل صانع وتاجر وزارع ويتنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة الى صف اهل الصناعات الحرة

والقسم الثانى الرغبة فيها للجاه أعنى عزة المنصب وتقوذا الكلمة ومضاء الحكيم . وهو ميدان بعيد الشأؤ واسنغ الاطراف ليس

لشروطه نهاية . ولا لحدوده غاية . ولا بدء فيه للجواد من كبوة
وللسيف من نبوة . وطالما كان اعتلاء المناصب . وارتقاء المراتب
داعية للرزايا والمصائب . ومجلبة للبلايا والنوائب :
والشرث يجلبه العلاء وكم شكاً نبأ على ما شكاه قنبر^(١)
ولو سلمنا ان صاحب المنصب سلم من المعاطب ونجامن الخطوب
فهو لا يزال طول حياته في هم ونصب كلما ارتقى في المنصب درجة
وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يعتلها ولا
يفتأ مستظلاً لما فوقه طامعاً فيه مستصغراً لما في يده راغباً عنه فهو
في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها غير راض عن
نفسه ولا عن الناس ولا الناس عنه راضون . وهذا هو منتهى
الشفاء والبلاء . ولتقي الكمد والكدر :

ذلك الخائب الشقي وإن كان يرى أنه من السعداء
يحسب الحظ كله في يديه وهو منه على مدى الجوزاء
وأخلق بمن كان همه أبداً التطلع الى غير ما في يده ان يكون أحسن
البرية حالاً وأمضهم عيشاً ولذلك زهد الراسخون في العلم من الفلاسفة
والحكماء في اعتلاء المناصب ورغبوا عن اغتراب غاربها وحذرُوا

(١) قنبر هو مولى علي بن ابي طالب رضى الله عنه

المقلاء من السعى وراءها وشغل النفس بها . هذا كله إذا كان
 المنصب عظيم الجاه نافذ الأمر وكان الوصول إليه من طريق
 الفضيلة والشرف والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق .
 فأما والطريق إلى المناصب كما راه اليوم قاصر على التوسل والتوسط
 وإهراق ماء الحياء والمنصب على ما تعلم وضع الكامة ساقط القدر
 خسيس المنزلة لأمر فيه ولا نهى ولا حل ولا عقد فالفرار منه
 أجدر بطالب الجاه وأحرى . والتباعد عنه أشرف بذى الفضل
 وأسنى . والنزول عنه نعم المنصب العالى . لطلاب العالى
 والقسم الثالث الرغبة فى المنصب لشغل النفس دون سواء دفعا
 للسأم والمال وتضييعا لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال
 بمجالات الناس والتلهى بها عن تهذيب النفس . ولا يدخل فى هذا
 القسم إلا من كان فارغ الفؤاد خاوى الصدر خاليا من كل أدب
 وفضل مشغول الضمير بالوساوس والهواجس فأكره شئ لديه
 نفسه وأقل حمل عليه حياته ولا بد له من مشاغل متجددة ومسائل
 متعددة تشغله عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده اذا هو خلا بها
 لحظة كأنها خيبة من خلايا الزير أو وكر من وكور الأفاعى
 وهيات أن يبلغ المسكين غرضه يوما لأن من ضاقت عليه نفسه

كان العالم عليه أضيّق ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخليفة عليه أثقل
والقسم الرابع الرغبة في خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونعم
الأمة . وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضا لأنه لا يتفق لنا الجمع بين
المحافظة على البقاء في المنصب وبين الاستقلال في الرأي الذي تقتضيه
مصلحة الوطن لما بينهما اليوم من التخالف والتناقض . ومن أراد
أن يخدم وطنه فليتخلص من قيود الحكومة ويخدمه وهو مطلق
اليدين واسم التصرف

ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة
العزل خصوصا في بلد يذسبون فيه الى صاحب المنصب كل فضيلة
وينزعونها عنه اذا سقط منه فالرجال عندنا بالمناصب لا المناصب
بالرجال على عكس ما قد قيل :

إنَّ الأميرَ هو الذي يُضحي أميراً يومَ عزله
إنَّ زال سلطانُ الولايةِ لم يزُل سلطانُ فضيلةِ

فن ذا الذي يقبل الدخول في خدمة الحكومة وهو يجد عنها
حيصاً إلا من أضله الله على علم . ولذلك فاني عاهدت نفسي
أن أتخير لأولادي في تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً وتكون
معهم أيماناً حلوا وساروا لا يسلبهم منهم قلب السياسة وتغير الحوادث

ولا يؤثر فيهم غضبُ زيدٍ أو رضى عمرو
(سابعهم) - لله أنت مألى ييانك وأجلي برهانك وأنا معك
في هذا الحكم وعلى هذا المزمع

(الثاني) - اتركوا هذه الخطب المكذرة والافكار المحزنة
وخذوا بنا في حديث غير هذا يفرج عنا ويروح ولا تجمعوا
علينا بين ذل النهار وهم الليل . وهل لك يا فلان أن تقوم معي
للمسابقة والرياضة بالمسكيت

(الاول) - الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع اليه
(ثامنهم) - أو قوموا بنا الى عرس فلان فقد بانى ان فيه
« بوفيه » لم يُسمع بمثله حسنا بوضعا
(الاول) - أنا معك

(الثامن) - لكن على شرط أن تقيم معى هناك نستمع الغناء
(الاول) - لست معك في هذا بل نخرج من البوفيه الى الازبكية
السماع للموسيقى الانجائزية أو الاوبرا التليانية

(الرابع) - انا لا أتوجه معكما لاننى ذاهب الى « السكوب »
(السابع) - انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء
(الخامس) - على الجرائد الفرنسية منها ففى أصبح من العربية

أخباراً وأغزر مادة

(الثالث) - اقرؤوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى

أو بعضهما مع بعض

(الثاني) قارئاً - «آسيا في أوروبا وأمريكا في أفريقيا»

(الرابع) - ماذا جرى لصوابك يا عزيزي أقلب الصحيفة

الأولى فما لنا ولهذه المقالات الافتتاحية وما لنا ولهذه الافكار
الصبيانية

(الثاني) قارئاً في الصحيفة الثانية - «الاسكندرية لمكانبنا»:

«الأمة برجالها والمناصب بأربابها والعارف هي التي تخرج لنا
رجال المستقبل ومن أين لنا بالرجال اذا كانت المعارف تبخل بالمال
فالمستقبل حينئذ مظلم والوطن آسف ولا نهضة للأمة اذ لم تنهض
المواطن لانشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية وبخلاف ذلك
غان ...

(الرابع) - حسبك أيها القارئ، حسبك أما قلنا لك لا تقرأ

هذه المقالات المملومة

(السابع) - اترك «الاسكندرية» الى غيرها

(القارئ) - «الزقازيق لمكانبنا»: «يثني العموم بلسان واحد

علي حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالسكنس والرش . . .
(الثامن) - أنعم به وأكرم وأكثر الله من أمثاله في خدمة
الوطن . عليك يا صاحبي بالحوادث الداخلية

(القارىء) - « يسافر سعادة المصطفى الوطني في السكة الحديد
الى الاسكندرية في هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستان الى
العاصمة على اكبريس الصباح

(الثامن) - اترك قراءة هذا المانيستو أيضاً
(القارىء) - « سبقنا فذكرنا أن مجلس النظاريات بحث في الجبال
والآن نذكر نص القرار . . .

(الثامن) - جعل الله اللجنة قراره ومثواه . فدعوه واقرأنا سواه .
(القارىء) - « وصل سعادة السردار الى أم درمان وقد بلغنا
عن ثقة ان أهم ما يشتغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان
(الثامن) - « سبحان الله كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال
عن أخبار اليابان وحوادث اليونان

(القارىء) - « ديسم البوليس الكلاب الضالة
(الثامن) - نسأل الله السلامة للخلق والهداية للجميع
(القارىء) - « كتب اليها أحد أفاضل الأطباء بأنها اكتشف

علاجاً يشفى من كل داء، ومن ومرض عضال ويقول حفظه الله
في آخر رسالته انه من غرامه بصدق لهجة جريد تناصار لا يمارفها
حتى ولا في مناه على فراشه . . .

(الثامن) - لانزاع في هذه الكفاءة وسبحان الموفق

(القارىء) - « رزء عظيم : قد فجع الاسلام وانهدم ركن الدين
واظلم الكون إذ قصفت المنون غصن نقيب الاشراف بالدير
الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها في عمل البر والاحسان
فكان انبأ موته أسف وحزن في قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر
المصرى عموماً »

(الثامن) - لاحول ولا قوة الا بالله لا بد أن تكون أسرار
البورصة هبطت لهذا النبأ هبوطاً فاحشاً في القطر المصرى
خصوصاً وفي الولايات المتحدة عموماً

(القارىء) - « نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق
جارياً في قضية التزييف ولم يتم فيها شئ، للآن وقي تم نبادر الى
نشره افادة لحضراتهم كما هي عادتنا في نشر الاخبار بأوقاتها »
(الثامن) أفادكم الله ونفعنا بهذه الاخبار

(القارىء) - : « فانتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهيئات

كان في مقدمة المشيعين جنازة للأسوف عليها وردة جملان في
الاسبوع الماضى . وكذلك فاتنا أن نهى "حضرة مكانبنا الفاضل
« بنزلة واكد » حيث وزقه الله بولادة مولود جعله الله من أولاد السعادة
(الثامن) - جلّ من لا ينفل ولا ينسى . ولكن فانه أن يذكر
أكان ذكر أم أمى

(القارى) - : « لدغت عقرب ابنة في قسم الوايلي »
(الثامن) - نعوذ بالله هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة في
« الاحتياطات الصحية » ومن ففلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية
(القارى) (الثامن) - يكفيك يا حضرة القاضى من السخرية
والاستهزاء واسمع لهذا النبأ العظيم
(الثامن) - سمعاً وطاعة

(القارى) - : « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن في مشروع
فتح شارع المرور ونحن بلسان العموم وبالنيابة عن الامة المصرية
اللا يفة نخطرها من عواقب هذا المشروع والوخيمة الذى يكون من
ورائهم سوء قدم الاجنبى فى البلاد وسنشرح لحضرات القراء مضار
هذا المشروع فى مقالة افتتاحية »

(الاول) - ان هذا الخبر لا يعلم به أحد سواى فكيف وصل

الى الجرائد

(الثامن) - إني لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال أن يمد أدبابُ الحل والمقد الى استخدام الخُرس في مجالس الحكومة رجوعاً الى العادة القديمة في مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية (الرابع) (الثاني) - اقرأ بقية الأخبار المحلية

(الثاني) - لم يبق في الجرائد الثلاث الا التلغرافات والاعلانات (الرابع) - أراك لم تقرأ الا جريدة واحدة فاقولك «الجرائد

الثلاث»

(الثاني) - هي كما تعلم نسخة واحدة في الاخبار وإن كانت مختلفة في الأسماء

(الرابع) - اقرأ لنا التلغرافات

(الثاني) قارئاً - «ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ - كان الاحتفال بتوديع حضرة الشيخ طمعان بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبومسة»

(الرابع) - ما هذه السفاسف

(الثاني) - هي التلغرافات الخصوصية

(الرابع) - علينا بالعمومية

قال عيسى بن هشام - وما قرأ القارئ التلغرافات السياسية حتى استدار أهل المجلس حلقة يكثرزون اللفظ في شرحها ويرجون الظنون في تأويلها وما فيهم إلا من هو على خلاف رأى صاحبه وإذا هم قد عادوا الى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . ولما وجدنا الجدال يحتمل بينهم اشتعالا . خرجنا من بينهم انسلالا . وتركناهم في سياستهم يتيهون . وفي ضلالهم يعمهون .

﴿ الامراء وأبناء الامراء ﴾

قال عيسى بن هشام - وأحببت أن أختم هذه المجالس والجامع . بزيارة المجلس الرابع . مجلس الطبقة العليا . من الأمراء وأبناء الامراء . أهل السدة السنية . والعقبة الملكية . وأولى الفخر والسناء . وبني المجد والعلاء . وأصحاب البز والشرف . وأرباب الرفعة والترف وذوى الفروسية والكرم . ومصدر الفواضل والنعم . سادة المحافل . وقادة الجحافل . ومطعم الحاشية . ومطعم الناشية . ومهيئ القصاد . ومشتجع الرواد . ومرجع السفراء . ومطلب الشمرء . ومحط الرجال . لذوى الآمال . من يتألق بهم بيت الملك والسلطان . وتفخر بوجودهم البلدان والاطان ويحقق على رؤوسهم

اللواء والعلم. وينتفى في خدمتهم السيف والقلم وتغنوا لخدمتهم
النفوس. وتتكس لعزتهم الرؤوس. وتُغَضُّ من مهابتهم الأبصار
وتضمحل دون رتبة منهم الرتب والأقدار. ويرتفعون عن الناس ارتفاع
الكواكب في الابراج ويمتازون عن سائر الخلق بِسِمَةِ العرش
والتاج. معدن المكارم والمآثر. وبدور القصور والمنابر. فأمننا
خصورهم قصرًا قصرًا. وأحطنا بها عُدًّا وحصرًا. فلم نجد
فيها من سكانها. غير خصيانها وغلمانها. ووجدنا أصحابها لا يرضونها
مسكنًا ومقامًا. ولا يأتونها إلا لما^(١). ولهمنا أن الكلوب، يعنى
النادى. هو مأوى الرائح منهم والنادى. فهناك موضع جلوسهم
واجتماعهم. ومحل أنسهم واستمتاعهم. فقهدهناه مع أحد أصحابنا
من أعضائه وجملته. لينسنى لنا الدخول في صحبتته. فانتبهنا من السلم
إلى قاعة فسيحة الجوانب. مزينة بمصاييح كاللكواكب. تدخل
حنا إلى عدة عُرف. مزخرفة بأبهى التحف والطُرف فرأيناها
مزدحمة بأجناس من الناس. يروقون النظر بحسن الزى واللباس.
ويبهرون العيون بحلى الياقات والماس. وهم كلهم في لغط وضوضاء.
كانهم في سوق بيع وشراء. فأخذ صاحبنا يرشدنا إلى أجزاء المكان.

ويعرفنا بفلان وفلان . ويخبرنا عن الغرفة الأولى أنها للمنادمة والمعاقرة . والثانية للمراهنة والمقامرة . والثالثة للمحاضرة والمسامرة . فبدأنا بالدخول في الغرفة الأخيرة . فوجدنا في وسطها منضدة كبيرة عليها كتبٌ منشورة . وجرائدٌ . مصورة . تعبت بها أيدي جماعة من الأمراء . دون انتباه أو اعتناء . وأعينهم شاخصة نحو المِراة . للتمتع بالمنظر والمرآة . وأسنتهم منطلقة بالأعجوبة . دون اللغة العربية . فأخذنا مجلسنا منهم ناحية . وأعرضناهم أذنًا واعية . وإذا أحدهم يتولى لكبير من كبراء أسرته . والغضب بادٍ في تقطيب أسرته :

(أحدهم) - أنا لأبالي بهذا اللوم والتفديد ولا أقبل منك مشورة ولا نصيحة والله أعلم بما وراء هذه النصيحة مما تكنه الضمائر وتخفيه السرائر . فإن كنت تريد بي خيرًا كما تزعم وتدعي فاركعي وشأني فأنا أدرى بوجوه المصلحة لنفسى ولا عليك من ذلك الدين الذى تُعيرني به فعندى من المتاع والمقار ما يسدده ويوفيه . وكما أننى لا أتكلم فى شؤونك فليس لك أن تشاركني فى أموري وتكدّر على عيشي والأولى لك أن تصرف جملة عنايتك الى تدبير تروتك فانك أحوج الى ذلك مني حتى لا يأتني عليها أمناؤك ووكلائك نهيك وسلبك وأنت مقيم فى غفلة عنهم . وأقسم لك بقبر والدى أنني

لا أفضل حالتي عن حالتك فان تبديد ثروتي وتبذيرها في سبيل
مآشتيه نفسي وتلذذه يعني خير من أن أعيث محروماً وغدا يرى
يختلس ثروتي ويتمتع بأموالي

(ثانيهم) - وأنا لا ألتفت الى هذا الكلام الفارغ بل أنذك
منذ اليوم أنك اذا لم ترجع عن سوء سيرتك وتبديد أموالك وتسلم
الى ادارة ثروتك لتسديد ديونك وترتيب امورك طلبت في الحال
توقيع الحجز عليك

(الاول) - مثلي لا يؤثر فيه هذا الوعيد ولا يعمل فيه التهديد
ولا يمكنك أن نجو في أعمالى ما يوجب توقيع الحجز غير الدين
والدين أمر مستفيض بين الناس لا يكاد يخلو منه ذو ثروة
والحكومة نفسها من أكثر الناس ديناً ولا يوجد فيها من يمتنر
الدين حجة مقبولة لتوقيع الحجز ومع ذلك فأنا أقسم لك بكل
شئ أحبه وأهزه أنكم ان لم تنتهوا عن السعي وراء الحجز على
تأذلت في الحال عن جميع أموالى الى أحد الا جانب لىستثمرهالى
فى حياتى ولا ينالكم منها شئ بعد مماتى

(الثانى) - سترى من يكون الغالب منا والفائز فينا

(ثالثهم) - والله يا اخوانى لقد كرهت الثروة وأبغضت الغنى

من طمع الاهل وفضول الاقارب وقد آليت على نفسى أن لا أبقي
منها درهما واحداً إلا حد من بعدى

(رابعهم) - الحمد لله على ضياع الثروة وانقضاء مشاغلها وأنا اليوم
أبيع ما بقى من الاطيان لأتمتع بها فى معرض باريس قبل أن
يتمتع بها سواى

(خامسهم) - وأنا أسأل الله أن يجعل بريح القضية التى
رفعتها على والدتى قبل حلول ايام المرض لا تكون معك

(الرابع) - وما يدريك انها تبقى معلقة فى المحام زمننا
طويلا ينتهى فيه معرض بعد معرض

(الخامس) - أنا لا بدلى من زيارة المعرض على كل حال فان لم
تنقضى القضية فى بدى رسائل وأوراق صادرة عن أختى وعثرت
عليها بكيفية غريبة وقد قدرت لها قيمة تكفى لسفرى وأخبرتها
انها اذا لم تصرع بالنقد والدفع طبعتم تلك الرسائل ونشرتها على
الناس. ولا شك أن تعاقبها بزوجها الطمعهما فى امواله يدفعها لتدارك
القضيحة بشراء تلك الاوراق فى الحال

(سادسهم) - انى لا غبطك على هذه اللقطة النفيسة وأسأل
الله ان يوفقني الى مثلها مع صمتى

(سابعهم) - دَعُوا هذه الوسائل الضعيفة وتعالوا
نجتهد في السعي لزيادة المرتبات التي نستحقها في قائمة
الأسرة الخدمية

(السادس) - ماذا يجدي السعي في زيادة هذه المرتبات
وهي لا تريد لواحدٍ إلا بموت آخر والاموات منا قليل ولئن
سهل الله فغاية ما يزيد المرتب خمسمائة أو ألف جنيه في السنة
تكون من نصيب خياط أو تاجر مركبات . ولكن علينا بالسعي
ان امكن السعي في اكتساب ثروة تقوم لكل واحدٍ منا بما
يليق برفعة مقامه وعلو درجته بين الناس

(الثاني) - لا تشغلوا أفكاركم بهذه الاوهام والاحلام فقد
نضبت الموارد وجفّت الضروع ومضت تلك الاوقات التي
كانت تتجمع فيها الاموال العظيمة وتتكون الثروة الجسيمة
وقاز بها الآباء والاجداد ثم خلفوها لنا فلم نعرف قدرها ولم
نحسن تديرها

(الاول) - لا تذكرونا نشدتك الرحمة بسيرة الآباء والاجداد
ولا تقل انهم قازوا بجمع الاموال وحيازة الغنى فلقد قموا بالقليل
ورضوا بالثافه وظنوا انهم جمعوا الكثير ونالوا للعظيم فما اصغر

همتهم وأكبر غفلتهم ولو كنا مكانهم في تلك الأزمان لأريناهم كيف تجمع الأموال وتكتنز الكنوز . وماذا تقول في عقول قوم كانت رقاب المصريين وأموالهم بين أيديهم طوع إشارة من إشاراتهم ولفتة من لفتاتهم ثم يكتفون منها بالخسيس الضعيف ويتركون لهم هذه الملايين من الأفدنة يشتمعون بها اليوم دوننا . ومن كان يتصور من آبائنا وأجدادنا أن عمدة الفلاحين الذين كانوا في أيامهم كالأنعام لا يعرفون ماهي الحياة وماهي الدنيا قد أصبحوا يشتمعون دوننا بالأموال ويزاحموننا في المجالس . أليس ذلك من تقريظ السلف وبؤس الخلف

(ثامنهم) - إياك أن يجرى لسانك بسوء في ذكر المصريين والفلاحين واحذر أن تموتده نفسك فانه غير لائق بنا على ما يظهر لي الآن

(الاول) - ولم ذلك حوسك الله ومتى سمعنا بهذا . وماذا لقينا من الجليل عند المصريين حتى نذكرهم بنير القدح والدم وماذا رأينا من حسناتهم حتى يقضى علينا بالاغضاء عن سيئاتهم . ولكن لعلك تريد لا تختك انت ايضا مصرى او فلاحا للتشرف بهما هرته

(الثامن) - لا وانما سمعت غير مرة من احد المشتغلين منا
بالسياسة ان مصاحبتنا تقضى علينا الآن بالاتجاه الى التودد
والانطفاف نحو المصريين ليمتلقوا بأذيالنا وتنطاق السنتهم
بشكرنا وحمدنا فاذا تسمع الاجانب بذلك اضطروا الى احترام
مقامنا وإجلال قدرنا ليقودوا المصريين بقيادنا وانتم تعلمون ما
جوراء انتفاع الاجانب بنا من انتفاعنا بجاههم في هذه الايام التي
لا تتبع موارد الحكومة إلا من بين اصابعهم

(الرابع) - انا لا يتسع عقلى لمثل هذه السياسة العقيمة
ولا ينشرح صدرى لظهار التودد والتعطف لهؤلاء المصريين
ولو كان للاحتيال والخداع وما اخالف طبعى ولا اكلف نفسى في
هذا الباب غير ما الفت والأصوب ان نقصر التودد والتعطف على
الاجانب انفسهم فهم أحق بالحب والولاء وأولى بالمدح والثناء
ولا لزوم لان نتوسط لهم بالمصريين فنذل للأذلاء ونخضع لأهل
الخنوع . ولو لا المنافسة بين آبائنا واجتهادهم فى سلب بعضهم
بعضاً لما كنا وصلنا الى هذه الحال ولا احتجنا الى طلب المال

(الخامس) - انا لا احب ان يتشعب بنا الكلام الى ذكر
ما كان بين الآباء من المنافسات خشية تحريك ما فى القلوب من

الضخائن والاحقاد وليس منا من يكاد يملك نفسه عند ذكر أفعالهم
خصوصاً ما فعله والدك بالدي وما انتزعه من أموالنا بالظلم والمدوان
ولا ينبغي عنكم ما عسى أن يجزّه اتساع الحديث في هذا الباب
من المكروه

(أحد الأجنب) داخلًا يقول للاول - لقد جئت لمولاي الامير
بأنفسي اختراع في نهاية القرن ودونك الرسم فانظره وتأمله
بإمعان فانك لا تجد مثله في الإبداع والإتقان وهذا رسمها على
الورق فما بالك بهيئتها وهي تجري في الطرق وقد شهد كل من رآها
بأنه لم يشاهد مركبة كهربائية على مثل هذا الطرز الى اليوم وحسبك
أن العمل لم يصنع من جنسها الا اثنتين أخذ البرنس «هوهلو هنتين»
من أمراء ألمانيا واحدة وهذه هي الثانية جئت لك برسمها يا مولاي
لتأمر بأمرك . وقد سمي دولة أخيك ورائي سعيًا طويلاً ليلحظ
هذا الرسم بعينه ويعلم باسم العمل فلم أمكنه من ذلك وضننت عليه
به لعلمي أنه يريد أن يسبقك الى اقتنائها ويفخر عليك بها وأنا أفضلك
عليه تفضيلاً عظيماً

(الاول) - اني أعلم حسن عنايتك بي وأشكرك عليها انما أرجو
التمجيل باحضار هذه المركبة فقد أعجبنى رسمها جداً واخبرني في

أي ميعاد يكون حضورها

(الاجنبى) - مسافة الطريق يادولة الامير

(الاول) - الأحسن أن تقصر المسافة بإرسال تلغراف مكان

الخطاب في طلبها من المعمل

(الاجنبى) - سمعاً وطاعة . وهذا يان الثمن ألتنس منك

تكليف الخاطر والتوقيع عليه

(الاول) - ها هو التوقيع . وقل لى عن مقدار الثمن بالتحقيق

(الاجنبى) - مقدار الثمن شىء ضئيف بالنسبة الى هذه المركبة

الثمينة وهو على التحقيق تسعة آلاف وخمسمائة وستة وثلاثون فرنكا

(الاول) - لا بأس وانما لى عندك رجاء وهو أن تزيد فى مقدار

الثمن اذا سألك أخى عنه وقل له اننى اشتريتها بخمسة عشر ألف فرنك

(الاجنبى) - على الامين والرأس ولقد كنت منصرفا على هذه

النية من غير أن تكاشفى بذلك ولكننى سأقول له انك اشتريتها

بأربعة عشر ألف وسبعمائة واثنين وأربعين فرنكا على التحقيق

(الاول) ملتفتا لقرنائه - أنا على يقين من أن أخى يُجنّ جنونه

حين يبلغه هذا الخبر فلا يهدأ له بال حتى يقترض مبالغاً جديداً من

المال ليشتري منه مثل هذه المركبة . وذلك ديدنه كما تعلمون من

قديم كلما رأي استحدثت شيئاً من مقتنيات الزينة جرى على أثرى
فيه وتشبه بي وكأف نفسه ما ليس في قدرته ليلحق بي في ميدان
المنافسة والمباهاة حتى وصلت به الحال الى الخروج عن الثروة
والدخول في الدعاوى وما أظن ان يبقى عنده أثر من جميع ملكه
وعقاره بعد شهر أو شهرين

(الثالث) - وماذا يصنع المسكين بعد ذلك

(الرابع) - ما بقي له الا ان يعيش من مال المرتب وحده
(الثالث) - ألم أقل لكم ان ليس لنا في آخر أمرنا الا هذا
المرتب فهو وحده المال المصون لنا وهو الكفيل بسد حاجتنا
وقوام معيشتنا ولا رأي عندي أصوب من السعي لطالب الزيادة
فيه فلهو وانمقد بيننا اتفاقاً على المطالبة بمحقوقنا في هذا الباب

(الخامس) - أما سمعت ان الاعتماد على المرتب وحده من
ضعف الحيلة ووهن الرأي

(الثالث) - ومالك لا ترشدنا الى طريق آخر بقوة حيلتك
وحسن رأيك يقوم بأود معيشتنا في الحال ولا نعدم نفسه في
الاستقبال

(الاول) - أنا أراه في المضاربات

(الرابع) - وأنا أراه في تأجير أسماننا للشركات

(الخامس) - وأنا أراه في خدمة السفارات

(السادس) - وأنا أراه في التزوج باليهوديات

(السابع) - أو المصريات

(الثامن) - لا بل أراه في ان نقوم الساعة الى غرفة المقامرة

(الجميع) - أحسنت أحسنت بعد أن ننزول من غرفة المعاينة

قال عيسى بن هشام - فقاء و اوقنا على آثارهم نشاهد ما يجري

من بقية أفعالهم فدخلوا الى غرفة المدام فتعاطوا من أقذاح الراح

ماشأوا ولم يتعمد حديث النادمة بينهم حد المناصلة أو المراهنة

والمسابقة هذا يراهن صاحبه أن يشرب من الخمر زجاجة بأكملها

وذاك يفاخر بقوة أعضائه فيدعى انه يرفع المائدة بيد واحدة

والآخر يزعم أنه يضغط على قطعة الريال فتلين بين أصابعه والثالث

يقسم انه ركب الناقة يوماً فوثب من فوق ظهرها فنزل عنها الى

الارض وافقاً على رجل واحدة والرابع يحلف أنه يكلم حصانه

فيفهم عنه كلامه والخامس يكرر القول بأن خليلته أعلنت له

بأنها لم تر في باريس راقصاً يحسن الرقص مثله . الى غير ذلك من

هذا القليل

ولما انتهى أربهم من غرفة الشراب انصرفوا منها الى غرفة القمار فاستداروا بمائدة اللعب وأغرقوا فيه ثم لم تمض ساعة من الزمن الا وقد جرى لهم في هذا المجلس ما يجري من فراغ الجيوب واقتراض القروض ورهن الحلى وطلب الاسعاف من اللاعبين أولاً ومن الخدم ثانياً ثم لم يلبثوا أن تولد بينهم من الشقاق والنزاع ما خشينا معه سوء العاقبة وبيع الخاتمة فأسرعت بالخروج أطلب النجاء . والباشا في أثرى يضحك من هؤلاء النبلاء . فقلت له واين تحكاب الدمع وتنفس الصعداء . قال جل الخطب عن الحزن والبكاء . ووجب الاخذ بطريقة ديموقريطه . من بين الحكماء . ورؤية الدنيا بعين ذلك القتائل من الشعراء :
هذه الحياة رواية لشخص فالليل ستر والنهار الملعب



﴿ العرس ﴾

قال عيسى بن هشام - ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة . . والمجالس المعدودة . قلت للباشا قد آن ان نعود الى ما كنا فيه من الافراد والاعتزال . ونبعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال . فأجابني وهو يظهر التوقف . وييدي التأفف : ما بالك تقطع على

« الطريق . في البحث والتحقيق . ومالك تخرمني من السمي والاجتماع .
 للاطلاع على العادات والطباع . ولم تختار أن تقتصر على ما في الكتب
 والاوراق . لمعرفة الآداب والاخلاق . فتترك النظر . للخبر .
 واللمس . للبس . والممارسة . للمقايضة . وأى الطبيب أذق صنما .
 واكثر نفعا . الطبيب الذي يقتصر على الكتب في درس الاعضاء
 والاحشاء . أم الطبيب الذي يدرسها في تشريح الجثث وهي تسيل
 بالدماء . على أنه قد زال معنى في هذه المدة . ما كان يعترضني من الغضب
 والحدة . وانقلب العسر من أمرى يسرا . وغدا التطيع بحمد
 الله بشرا . وصرت لا أقابل عيوب الخلق . بغير الحلم والرفق .
 وتعلمت أن اتحمل . ولا أتالم . واتبصر . ولا اتحسر . واتدبر . ولا
 اتضجر . فأنا اليوم اتفكك بمخالطتهم . واتروح بمبايعةهم . فلم يبق لك
 من غدر وجيه . ترتضيه بعد ذلك وترتجيه . « وما زال الباشا يجري
 على هذا النمط في الشرح والبيان . ويأخذني بالبرهان في إثبات البرهان .
 حتى ملكني سلطان حجته . وأنزاني على حكم رغبته وكفت دعيت
 غيبي من ذوي الناس الى وليمة عرس من اكبر الاعراس . فقلت له
 - هندی اليوم حد الكفاية . في بلوغ الناية . فلم الى المحفل الذي
 تحتشد فيه المحافل . والمنهل الذي تتفرع عنه المناهل . وسرت

به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره . وبدأ في الطور الاول
 من أطواره . فما قرُبنا من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهاراً
 يتألق . وخمة الدجى جرة تتحرّق . فدخلنا ساحة كأنها
 مدينة . تبرجت في يوم الزينة . فوقفنا هنيئة في وسط المزدحم .
 لانجد موضعاً للقدم . حتى أخذ بيدنا أحد المستقبين بالباب . من
 ذوى العلامات في الثياب . فدسّنا بين جماعة لم نعرف منهم أحداً .
 ولم يحسنوا التحية أرباباً . فجزيّناهم على ذلك بنص الطرف . وأقنا بينهم
 لا نطق بحرف . ثم أخذنا نلقس بأعيننا صاحب الدار . فلانتهدى
 له على قرار كأنما صُنعت الوليمة في غيبته . وأقيم الاحتفال انتظاراً
 لأوبته . أو أننا أخطأنا العرس إلى سواء . واشتبه علينا مقره ومواده .
 فهمّنا بالقيام والمسير . لولان أشار لنا بالسلام مشير . فتبيناه صديقاً
 لنا من الخُلصاء . في جمع من الفضلاء والأدباء . فقصدها فافسحوا
 لنا بينهم مكاناً رحباً . وجلسنا معهم نجتني ثمر الحديث يانماً ورطباً .
 وعلمنا منهم أن رب الدار في ذَهول لا يدرك ما يذرّه وما يأنيه .
 وأن صاحب البيت لا يدري الليلة بالذي فيه وأنه لا تريب عليه ولا لوم
 فهو مشغول بتحية كبار القوم . ممن لم يخاطبهم قبل اليوم
 (الباشا) - وهل يدعو الناس إلى أعراسهم من لم يعرفوه

أو بخالطوه من قبل

(احد الاصدقاء) - نعم يدعو الناس الى اعراسهم كل من هلاله صبت واشتهر له اسم من الامراء والكبراء والعلماء فتهم من يجيب الدعوة ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته بصاحب العرس . وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يجيبون للداعي رجاء ولا يتخلقون مرة عن إجابة الدعوة حتى صاروا من عمدة الزينة وأساطين الاعراس

(الباشا) - وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله

(الصديق) - الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته . وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الاعراس وينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده . وفيهم من وصل به حب الشهرة والفخفة أن أنفق في إقامة العرس جميع ماله ثم بقي عليه من الدين ما أخل بنظام معاشه . وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله في إقامة عرس كبير ثم قسم دفاتر تجارته الى شطرين شطر يحتوي على بيان ما بقي لديه من اصناف التجارة واجناسها وشطري تضمن اسماء من حضر العرس من الامراء والكبراء وقل أن تشتري منه صنفاً الا ويذكر

لك منهم إسمًا يقسم بحياته ورأسه أن الصنف جيد والتمن في جنبه هين
(الباشا) - ما كنت أعهد أن الاعراس تكون على هذه الحال
من استخدامها للشهرة والصيت بل كنت أعهد أنها تقام لا تناس
صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ومشاركتهم له في صفوه وهنائه
ولا طعام المساكين ومساعدة الفقراء

(الصديق) - ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب في
طعام الاعراس بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك
وأضرابهم

(الباشا) - انى اعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة اشخاص
اجتمعت بهم في مجلس للعلماء
(الصديق) - نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحَمَلَة الشريعة
وأئمة الدين

(الباشا) - ومالى أراهم يسرعون ويهرولون في خروجهم وما
الذى وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل وليت شعري
مالذى أزعجهم وأخرجهم . أنزل بالدين مكروه أحل بالاسلام
خطب . أحدث بين الناس حادث بدعة يستدعى قيامهم للامر
بالمعروف والنهي عن المنكر

(الصديق) - لم يحدث من كل ذلك شيء ولم يعرض لهم عارض وإنما هي مادة لهم ألفوها في الولائم والمآدب إذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادروا إلى الخروج من العرس فتراهم عند قول أحد المظرفاء «يد في الكتاب» ورجل في الركاب، والذين يستندون لهم يقولون أنهم علماء عالمون بقوله تعالى: «فإذا طعتم فانتشروا» وأنهم يزورون سماع الغناء مكروهاً في الدين فلا يجلسون في العرس بعد الطعام خشية أن يتبدى الغناء فيجلهم المكروه

(الباشا) - ومن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادم علينا (الصديق) هذا الشيخ المتخلف عالم من أفاضل العلماء ونباههم وهو قادم علينا للجلوس معنا فإن فينا من يأتس به ويصبو إلى مجالسته

(الباشا) لاشيخ بعد جلوسه - أرجوك أن تسامحنى في فضول القول فلا صبر لى عن الاستعلام والاستفهام خصوصاً إن كان في الأمر ما يخص الدين فقد قيل لى أن السبب فى مغادرة العلماء العرس فى عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجالس الغناء فهل لك فى ترشدنى الى القول الأصيح فى هذا الباب وما الذى يجب أن

يؤخذ به وكيف انفردت انت عنهم بالبقاء والجلوس ورضيت سماع
الغناء ان كان مكروها

(الشيخ المتخلف) - الكلام في هذا الباب طويل، وما اظن
السبب الاعظم في المبادرة بالخروج الا طلب الجسم للراحة
بعد الامتلاء

(الباشا) - اني اريد أن أهتدى بهديك في باب سماع الغناء
وتقرير كراهته أو إباحته فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك. والوقت
وقت مسامرة فان اردت ان تقضى جانباً منه في ما ينفع ويفيد فقد
أديت عليك واجبا في الدين وجعلتنا لك من الشاكرين

(الشيخ المتخلف) - اعلم ان طرب الغناء امر غريزي راسخ
في طبيعة الحيوان. ومن الحيوانات العجم وضواى الوحوش
ما تسمع الغناء فتحن اليه وتسكن به فيضعف من قسوتها ويكسر
من حدتها وربما ذلت به رقابها وامكن قيادها. وهذه الفيلة وهي
من اكبر الحيوان اجساما واشدها بطشا اذا سمعت صوتا مرغما
او كلاما متغما لم يلبث هذا الجسم العظيم ان يتمايل ترنحا ويهتز طربا -
ولو كان في مواقف النيران - اهتزاز الحامة المطرقة على فن من
الافنان. وهذه الابل المعروفة بأنها اغلظ الحيوان اكبادا تراها

إذا برأها الشرى وأضناها التعب وأهلكها الظمأ فتغنى لها الحادي
ذهلت في الحال عما أصابها وتعلت بالفناء عن مناعل الماء وهي
على الخمس في ظمئها أو العشر^(١) ونشطت به تستعيد القوى
لاستئناف الشرى . وطالما شاهد المشاهدون هوام الأرض ودوابها
تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال فتجتمع جيوشا تتبع جيوش
الحرب في مسيرها . وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة
عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب
لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأجوارها لليسير خلف الجيش
ومن الروايات العتيقة أن أحد الموسيقين من الفلاسفة كان
عند شاطئ بحر يبنى الشاطئ الآخر ولا يجد ما يحمله إليه فجلس
يلهي نفسه بالغناء وإذا بدر فيل قد شق أمواج البحر يتدنى من
صاحب الصوت فلم يزل في تدنيه والفيل سوف في تغنيه حتى حاذى
الشاطئ وسكن يستمع فأيقن الفيل سوف أنه استهواه بتأثير الغناء
وذلك بقوة الطرب فامتطاه يسخره كيف شاء . فوق عباب الماء
كانه مظية وجناء^(٢) تسير في غرض البيداء . على توقيف الحداء .

(١) الخمس والعشر من أظاء الأبل

(٢) الوجناء الناقة الشديدة

وحكاية ابراهيم بن المهدي في اقتياده الوحوش الضارية بسحر غنائه
مشهورة مذكورة

هذا بعض ما يقال في تأثير الغناء في الحيوانات العجماء مع
ضعف إدراكها وكثافة احساسها وقص خلقها فلما بالك بتأثيره
في الانسان وهو اسمي الحيوان رتبة واكمله خلقه وأعظمه إدراكا
وأصفاه جوهرًا وألطفه روحًا

والغناء في تعريف قوم من الفلاسفة فن يقصده به تحريك
النفس بتنسيق الصوت وتأليفه على طريقة ترتاح لها الاذن فهتز
له نفوس ارباب المدارك العالية والامزجة الصافية وهو القوة المساعدة
لقوة النطق في التأثير في السامع. وكان القدماء يعتبرونه اداة عامة
لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم. وكان لا بد
لطالب الاناسة عندهم من الاحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات وقد
عبر عنه الحكماء الكبيران فيثاغورس وهرمز أنه علم التنسيق لكل
شيء ولذلك أطلقوا عليه لفظة «ارمونيا» ومعناها النظم والتنسيق
ومنه الترتيل وكلهم يجتمعون على ان لا شيء في العالم يعادل تأثير
الغناء في تهيجة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل
والكلمات. وعندهم ان الذي لا يتأثر منه لا بد ان يكون به

تقصُّ في الخلقَة . والفناء مغروس في طينة الانسان منذ نشأ في
خبر الطبيعة ومنذ استهلَّ في المهد باكيًا فلا يسكن الا به ولا يراح
عنه الا بطريقه . وفضل تأثير الفناء في النفوس على تأثير الكلام
كفضل الشعر البليغ في لغته على ترجمته كلاماً غير موزون الى
لغة أخرى .

والوقائع كثيرة حجة في التاريخ تشهد بقوة تأثير الفناء . منها ان
أهل مدينة اسبرطة كانوا في فتنة اشتد لهيبها وعظم شرها فعمد
جماعة من الموسيقيين الى مكان الرعاء القائمين بأمرها فزالوا
يفنونهم حتي طربوا فصقت أرواحهم ورقَّت نفوسهم ولانت
حريكتهم فانهوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فهدئت . وقام
صياح الطرب . مقام صياح الشغب . ومنها أن أهل سويسرا كانوا
ينزلون عن رؤوس الجبال للاحتشاد في الجند فاذا انعقد جمهم
أغرى العدو بهم من يغنى فيهم بلحن لهم معروف يغني به الرعاة
في قُلل الجبال فيشتعل في نفوسهم لهب الوجد وتتهيج فيهم نائرة
الحنين وينزع بهم للشوق الى منازلهم فيلقى أسلحتهم عن أيديهم
ويذهب بهم على وجوههم وقد تكرر وقوع ذلك فيهم حتى قرر
رؤساؤهم الحكم بالاعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الفناء .

ومنها حكاية الحكيم أبي نصر الفارابي مع سيف الدولة بن حمدان .
 اذ أضحك أهل مجلسه وأبكام ثم أنامهم وتركهم . وقد كان خطباء
 الدولة الرومانية يتسابقون الى تنسيق اصواتهم في الخطابة وتتبع
 النغم لتأثير القول في النفوس وربما استصحب بعضهم معه احد
 الموسيقيين بألة من آلات الطرب فيجمله بجانب المنبر حتى اذا
 وجده خرج عن النغم أو شذّ نبّهه بصوت الآلة فيرجع الى الأصل .
 ولسنا نجد بين الأمم امة في بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرتها
 الا وعندنا الفناء في الجبش آلة من آلات الحرب تُعِين على ممارسة
 الالهوال وتثير الى منازلة الختوف . وكان القدماء منذ عهد داود
 عليه السلام يعتقدون ان الفناء يشفي من الامراض والاسقام وكان
 « إيسمين » في مدينة « تيب » يزعم أنه يشفي من عرق النساء بصوت
 اللزاي . وكان « هو ميروس » و « جالينوس » و « بلوتارك » من
 بعدهما يؤكّدون ان الفناء يشفي من الطاعون ومن داء المفاصل ومن
 نهش الافاعي . وقام اليوم جماعة من كبراء الاطباء في اوربا يتردون
 بعد كثرة التجارب ان الفناء دواء نافع لكثير من الامراض وأطلقوا
 عليه لفظة « ملوترايا » يعنى العلاج بالطرب كما قرروا من قبل
 « الهيدر وترايا » وهى المعالجة بالماء و « الايكتروترايا » وهى

المعالجة بالكهرباء.. وقد جرب أطباء فرنسا تأثير الغناء في وظائف
الاعضاء بالآلة حاسبة فوجدوا أنه يزيد في دورة الدم وفي حركة
التنفس سرعة مقبولة . وذهب بعضهم أن للاخشاب التي تتخذ منها
آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض مثل اتحاد الناي من خشب
الكينا فان سماعه يشفي من الحمى . وبلغت العناية بهذا الفن في المانيا
انهم جعلوه درساً من الدروس الاساسية يبتدى به التلامذة
ابتداءً بحروف الهجاء وينتهون منه انتهاءً من دروس الفلسفة
وجامع القول في هذا الباب من جهة البحث والنظر ان الخالق
جات عظمتة قد جعل من فضله ونعمته على الانسان لكل حاسة
لذة . فلذة النظر في تناسق الرئيات وترتيب اجزائها وذلك هو
الجمال . ولذة الذوق في ائتلاف الطعوم وذلك هو العذوبة . ولذة
الشم في لطاف الرائحة وذلك هو الطيب . ولذة اللمس في تناسب
أجزاء اللموس وذلك هو النعومة . ولذة السمع في اتساق الصوت
وحركة توقيعه وذلك هو الغناء

واما القول فيه من جهة الدين فقل ان تجد ديناً من الاديان في
انحاء العالم الا ويستعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتنظيم
لما ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس وانتعاش الارواح للتجرد

والإتصال بالعالم الروحاني . وما كان الدين الاسلامي وهو دين
الأذان لينكر سماع الغناء ويحرم بكراهته وشأنه في فطرة الانسان
على ما بينته لك . وناهيك بما ورد في الخبر الصحيح ان النبي صلى الله
عليه وسلم سمع نسوة يتغنين في وليمة عرس فلم ينكر ذلك عليهن .
وقد استقبله عليه السلام نسوة من الانصار عند مقدمه من احدى
الغزوات بالدفوف والمزاهر وهن يتغنين على الايقاع بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهن أيضا . وهذا عمر بن الخطاب على المعروف من
غلظته وشدة في الدين قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه بل
استماد ومزح : روى عن أسلم مولا قال مر بي عمر رضي الله عنه
وأنا وعاصم تغني فوقف وقال أعيدا على فأعدنا عليه وقلنا آيتنا
أحسن صنعة يا أمير المؤمنين نقال مثلكما كبحارى العبادى قيل له
أى حماريك شر قال هذا ثم هذا فقلت له أنا الأول من الحمارين
قال أنت الثاني منهما . وكان عبيد الله بن جعفر على قرابته من رسول
الله وصيته له كثير الجلوس لسماع الغناء عظيم الاحتفال به
وروى ان معاوية قال لعمر بن العاص امض بنا الى هذا الذى

قد تشاغل باللهو وسعي في هدم مروتِهِ حتى نعيب عليه فعلة يريد
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فدخل إليه وعنده من الثمنين
سائبٌ خاثر وهو يلقي الفناء على جوارٍ لعبد الله فأمر عبد الله
بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنجى عبد الله
عن سريره لمعاوية فرفع معاويةُ عمرًا فأجلسه إلى جانبه ثم قال لعبد
الله أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسى فألقيت وأخرج الجوارى
فتغنى سائبُ بقول قيس بن الخطيم :

ديارُ التي كادت ونحن على منى تحل بنا لولا نجاء الركايب
ومثلك قد أصيبت ليست بكثرة ولا جارة ولا حليلة صاحب
وردده الجوارى عليه خربك معاوية يديه وتحرك في مجلسه

ثم مدّ رجله فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو اتدنيا
أمير المؤمنين فإن الذي جئت لتأجده أحسن منك حالاً وأقل
حركة فقال معاوية اسكت لا أبالك فإن كل كريم طروب

ودخل المغنون منزل سوكينة بنت الحسين سبط رسول الله
فأذنت للناس إذنا عاماً فقصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح
وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ثم انهم سألوا حينئذ إن يغنيهم
صوته الذي أوله : هلا بكيت على الشباب الذاهب . فقال لهم :

أبدؤا أنتم فقالوا ما كنا لتتقدمك ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا
الصوت فتنأى إياه وكان من أحسن الناس صوتاً فازدحم الناس
على السطح وكثروا ليدسموه فسقط الرواق على من تحته فسلموا
جميعاً وأخرجوا أصحاء ومات حين تحت الهدم فقالت سكينه
عليها السلام لقد كدر علينا حين سرورنا

وذكر الدلائل المغنى عند عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن
ابن أبي بكر الصديق رضى الله عنهم فقال انه كان يحسن :
أَمِنْ رَبِّعٍ بِذَاتِ الْجِدِّ شِئْ أَمْسَى دَارِماً خَلَقاً
ثُمَّ أَسْتَقْبَلَ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ الْقَبْلَةَ يَضِلُّ فَلَمَّا كَبُرَ سَلَامٌ ثُمَّ انْفَتَحَتْ
إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ يُحْسِنُ خَفِيفَةً فَأَمَّا ثَقِيلَةٌ فَلَا -
اللَّهُ أَكْبَرُ

ولقي ابن أبي جبر عطاء بن أبي رباح وهو يطوف بالبيت
الحرام فقال اسمع صوتاً للغريض فقال له عطاء يا خبيث أفي هذا
الموضع فقال ابن أبي جبر ورب هذه البنية لتسمعه خفية أولاً شيدت
به فوقف له فتغنى :

عُوجِي عَامِنَا رَبَّةَ الْهُودِجِ إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرُجِي
أَنْتِي أَنْيَحْتِ لِي يَمَانِيَةِ أَحَدَى بَنَى الْحَرْثِ مِنْ مَذْجِجِ

نلت حولاً كاملاً مكَّلهُ لا تلتقي الا على منبر
في الحج إن حجت وماذا مني وأهله إن هي لم تحج
فقال له عطاء الكثير الطيب يا خيث

وولي قضاء مكة الأوقص الخزومي فأرأي الناس مثله
في عفاة وبُسله فانه لنا ثم ليلة في جناح له اذ مر به سكران
يتغني بصوت للغريض فأشرف عليه فقال يا هذا شربت حراماً
وأيقظت نياماً وغنيت خطأ خذهُ عني فأصاحه له وانصرف
وكان لأبي حنيفة رحمه الله جارٌ بالكوفة يعني فكان اذا
انصرف وقد سكر يعني في غرفته فيسمع أبو حنيفة غناؤه فيعجبه
وكان كثيراً ما يعني :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
فلقيه العسس ليلة فأخذوه وحبس نفقد أبو حنيفة صوته
تلك الليلة فسأل عنه من غدر فأخبر فدها بسواده وطويلته
فلبسها وركب الى عيسى بن موسى فقال له ان لي جاراً أخذته
عسسك البارحة فحبس وما علمت منه الا خيراً . فقال عيسى
سلموا الى أبي حنيفة كل من أخذته العسس البارحة فأطلقوا
جميعاً فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سرراً ألسنت كنت

تغنى كل ليلة :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا . قبل أضعتك . قال لا والله ولكن
أحسننت وتكرمت أحسن الله جزاك قال فعد الى ما كنت تغنيه .
فاني كنت آنسُ به ولم أرَ به بأساً قال أفعُلُ ان شاء الله
هذا جملة ما يذكر في طرب الغناء ما ولت فيه وأسهب .
ليثبتن لك منه القول الراجح والوجه الصالح

(الباشا) - :

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيماني

ما هذا الذي أراه من بحر العلم المتدفق والفكر المتعقّب وما هذا
الابداع والتفنن في أطراف العقول والمنقول وما هذا التضلع في
علوم الاولين والآخرين . وما عهدت قبل اليوم في العلماء من
اجتمع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس وسعة
الاطلاع في تواريخ الأمم على اختلاف أسنتها واجناسها يتنقل
في تقرير البرهان وشواهد البيان تنقل النحل على جنى الازهار
فيخرج بنا من التاريخ اليوناني الى الروماني الى الاوربي الى
الى الاسلامي فمجهّلاً له الأعجمي وعربي . وشرقي وغربي . وكيف
انفردت أيها الشيخ عن بقية اخوانك المشايخ ولم تأخذ بنهجهم .

في طريقهم فتقف عند حد العلوم الشرعية والاقوال الفقهية ثم خالفهم الى التوسع في العلوم الدنيوية والمباحث العقلية

(الشيخ المتخلف) - لم أخالفهم الا لأن العلم حق شائع في

بنى الانسان ونور ساطع يستغنى به جميع الانام فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم ولا أهل ملة دون ملة ولا يتف الانسان منه عند حد . ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه لم يمنعه تخالف اللغات وتفرق الاجناس عن اجتناء ثمره من أى لسان كان وفي أية امة كانت وفي اى عصر من العصور . وما فى الأديان دين يثبت لأهله ويحصر بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمة بأى وجه من الوجوه . مثل الدين الاسلامي ولكن قد فشا في علمائه ذاء الكسل فاقصروا في طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم في ذاته واعتقدوا بأنهم على الهدى ومن سواهم في ضلال

(الباشا) - قل ما شئت في كسل علماء الدين الاسلامي

وصوه تراخيهم واشتغالهم عن العلم لا بالعلم . ولقد بلوت مجلساً من مجالسهم ضاق منه صدري وعيل صبري ولا ازال كلما تذكرته جاش بي الهم والغم وتملكني الأسف والحزن . وأراك أيها الشيخ الفاضل احسنت كل الاحسان بتوسعتك في

الاطلاع وتجرك في طلب العلم وتعلقك بأسباب العلوم الاوربية. ولكننى مع ذلك لا أنغى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع وتستدرجهم الى الخلط والخطب وقل في الناس من يحكم نفسه للتوسط في الامور والاعتدال في المطالب والوقوف عند الحد . ولست أدري الى اليوم يعلم الله أى العالمين أضل سبيلاً وأسوأ مصيراً العالم الذى يتخبط في ظلمات الخرافات ويضرب في تيه الترهات وينوص في لجج الاباطيل بلباس الدين أم العالم الذى يُوفى في علوم الاوربيين ويأتم بسنة المخالفين للدين ويفتر بتويه الموهين فيضله الله على علم

(الصديق) - ليس هذا وقت الجدال فى تلك اللبائح الدقيقة والتفتوا بنا الى سماع الفناء قليلاً فقد احتشد له المغنون (الباشا) ملتفتاً - نعم أصبت . وهل لك ان توفق لى بين حالة المغنيين التى أرام عليها الآن فى احتشادهم على منصة الفناء وبين ما سمعته أنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال . فانظر اليهم تجد أحدهم يمزح ويققه والاخر يتناب ويتعطي وهذا يبصق عينا ويمخط شمالاً وذلك يصيح بأعلى صوته القهوة القهوة وتأمل

في هذا الواثق منهم فوق المنصة على رجل واحدة ويده الرجل الأخرى يخلع منها ناله في وجوه الحاضرين . وأين ما ينبغي أن يكون عليه المغنى من سكون النفس واجتماع الخاطر وانسراح الصدر وصفاء الروح لحسن تأدية الغناء واستهواء النفوس اليه (المصدق) - لا تؤاخذهم بما هم فيه فانهم نشأوا في أمة يرى السواد الأعظم فيها ان صناعة الغناء من سافل المصناعات وأن في ممارستها حطة وتقصاً فصغرت لذلك نفوس المغنين وهانت عليهم صناعتهم ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق على مثال بقية المصناعات فهم والحدادون أوهم والبنائون سواء بسواء وذهلوا كل الذهول عن جمال الصناعة وجلالها وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغي وكما يحسب لا كما يرضى ولا ينبغي عن فطنتك انه لا بد للمغنى من أن يشق في نفسه بتأثير غناؤه في نفوس السامعين حتى تثور فيه نشوة الطرب ويتبادل معهم لطف الافعال فتصل القلوب وتتجاذب الارواح وتصدق به نفسه في مراقب الفن وتسمو به في صناعته الى مدارج الكمال والا كان المغنى اذا غنى في غفلة السامع واشتغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً أو يسرج للأعمى سراجاً فيحل به من التواني والفتور ويمتريه من

الانقباض والضيق ما يذهب برونق الصنعة ويمحو بهجة الفن. وانك
لتحقق صدق ما اقول اذا نظرت معى نظرة الى هيئة السامعين في
هذا المكان. فعزم عينيكَ جماعة من الاعيان والتجار تراهم مشغولين
بمراقبة كل داخل وخارج عساهم يحظون باشارة تحية او اعادة تمطف
فهم لا ينفكون طول ليلهم في قيام وسلام للزلف الى الكبراء والحكام
وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم والتباهى بأقدارهم. وعن
شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون ابداً من المناقشة في
صنوف الدعاوى والقضايا ولا يستريحون برهة من تفسير المواد وشرح
البنود واستنتاج الاحكام ولا يترك المحامون القضية الا بعد ان يحتالوا
على استنفاد ما عندهم من الافكار والآراء في الوقائع المختلفة والمسائل
المشبهة. فينتفعوا بها ويستندوا عليها في مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا
بها ربح مآلدهم من المشاكل والدعاوى. ومن قد أمك طائفة من
الامراء والحكام لا هم لهم الا ان يحتلوا توقير الحاضرين واحترامهم
بالتأنيق في الجلوس والتكلف في الشئال والاتفاخ في الثياب والقتل
في الشوارب أجسادهم حاضرة وقلوبهم غائبة وأبصارهم شاخصة
وألبابهم ذاهلة فهم على هيئة التماثيل والاصنام - فاسألوهم ان كانوا
ينطقون - ولئن نطقوا بكلام فاتما يدور على ان اليوم كان شديد الحر

وَأَنْ أَوَّانَ الرَّحِيلِ عَنْ مَضَرٍ قَدْ حُلَّ . وَمِنْ خَلْفِكَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ .
لَمْ تَهْذِبْهُمْ الْأَحْدَاثِ . وَشَبَابٌ لَمْ يُرَبِّهُمْ الزَّمَانُ . صَرَعِي النَّيَاةَ عِنْدَهُمْ أَنْ
تَكُونُ مَلَابِسُهُمْ عَلَى الزِّيِّ الْجَدِيدِ . وَأَنْ تُفَرِّغَ أَجْسَادَهُمْ مِنْهَا فِي قَالِبٍ
مِنْ حَدِيدٍ . فَهُمْ لَا يَتَحَرَّكُونَ حَرَكَةَ الْإِلَافِ بِحَسَابِ . خَشْيَةً أَنْ
يَنْفَرَطَ نِظَامُ الثِّيَابِ . فَانْقَادُوا فَكَالْقَاعِدِينَ لِلْمَصَوِّرِ فِي حِفْظِ
الْأَشْكَالِ وَالْأَوْضَاعِ . وَإِنْ هُمْ وَقَفُوا فَكَالْمُصَلِّينَ عَلَى الْأَجْزَاعِ .
وَلَمَّا تَجَاوَزَ حَدِيثُهُمْ حَدِيثَ الْمَلَابِسِ وَالْأَزْيَاءِ . اشْتَغَلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ
بِذِكْرِ الْعُلَمَاءِ وَالنِّسَاءِ . وَزَوْوَا عَنْ ابْنِ فُلَانٍ أَوْ بِنْتِ فُلَانٍ . مَا تَنْقَبُضُ
عَنْهُ النَّفُوسُ وَتَقْشَعِرُّ الْأَبْدَانُ . وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنْ طَبَقَاتِ
الْحَاضِرِينَ مَنْ يَلْتَفِتُ إِلَى سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَيَتَفَرَّغُ لَهُ الْإِطَابِقَةُ الْغَوْضَاءُ مِنْ
الْخُدَمِ وَغَيْرِهِمْ . فَكَيْفَ يَتيسَّرُ لِلْمَغْنِيِّ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ يَتَقَنُوا فِي
عَمَلِهِمْ أَوْ يَتَفَنُّوا فِي صِنَاعَتِهِمْ أَوْ يَحَافِظُوا عَلَى آدَبِ الْمَجْلِسِ وَيَرَاعُوا
حَرَمَةَ الْفَنِّ

قَالَ مَيْسِيُّ بْنُ هِشَامٍ - وَانْقَطَعَ الْحَدِيثُ بِمَرُورِ صَاحِبِ الْعُرْسِ
أَمَّا مَنْ مَرَّ السَّحَابُ . فَانْقَضَ عَلَى الْوَاقِفِينَ عِنْدَ الْبَابِ . كَأَنَّهُ بَارِقَةٌ
حَمَاءٌ . أَوْ نَازِلَةٌ عَذَابٌ . يَدْفَعُ بَيْنِيهِ عَنِ الشَّمَالِ وَعَنِ الْيَمِينِ . فِي
حُدُودِ الْقَاعِدِينَ وَالْقَائِمِينَ . لَا يَشْكُ مَنْ رَأَاهُ أَنَّهُ أُسِيرٌ حُلٌّ عَنْهُ

وثاق . أو عهدته من العميد يطلب الباقي . فالتفت الباشا يسأل
الصديق : أجدار هوى في البيت أم حريق

(الصديق) - لا هذا ولا ذاك وإنما جاء الخبر لصاحب البيت
بقدم جماعة من رجال الافرنج ونسائهم

(الباشا) - أترام يريدون إقامة ألعاب افرنجية مع الاغاني العربية

(الصديق) - ولا هذا أيضاً بل هم قوم من السائحين الاوربيين

في البلاد الشرقية يتشوفون في مطالعتهم الآثار المصرية الى رؤية

الحاقل والاسواق فاذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا اليها بنسائهم

واولادهم لتسليية الخاطر بدرس العادات والاخلاق

(الباشا) - قد تبين لي آنفاً ان صاحب العرس من أهل الصعيد

فأية صلة بينهم وبين سياح الافرنج تدعوهم الى دعوتهم في عرسه أم

من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان

كالطغليين

(الصديق) - هم من المدعوين لا من المتطفلين . ولا يلزم لدعوتهم

ان يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم أو أن يعرف أشخاصهم

ويفقه لسانهم ولكن حضورهم في حفلة العرس أمر مرغوب فيه

عند صاحبه ينشرح به صدره ويزهو به عنده قدره ويراه نغراً له

يفلوي به ذكره ومجداً للبيت يرتفع به عماده . وهو في دعوتهم
 باختيار إما ان يرسل الى بعض تراجة الفنادق فيعطيهم عدداً من
 تذاكر الدعوة بغير أسماء معينة ليوزعوها على من يكونون في
 خدمتهم من السياح فيبيعها التراجة اليهم بقيمة معلومة من الدرهم
 كأنها تذاكر الملاهي العامة ويعتقد الاجانب ان تلك عادة من
 عادات الشرقيين أن يدخل الناس الى أعراسهم بأثمان معينة
 وإما أن يترقى صاحب العرس فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة
 بأن لديه حفلة عرس في الليلة الفلانية ويرغب أن يحضرها كذا
 عدداً من السياح فيفتح صاحب الفندق نزلاءه فيما يتفهم به
 بالدعوة الى العرس فاذا شرفوا صاحب العرس بحضورهم هرع الى
 حسن استقبالهم وبالغ في التلطف والترحيب بهم وأنزلهم فوق
 منازل الامراء والكبراء ونبي كل من في العرس سواهم وتفرغ
 طول ليلته لخدمتهم كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظر اليه
 كيف يتيه بحباً ويشبع كبراً وهو يتقدم نساءهم ليُدخلهن الى
 بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن اجلس رجالهن على
 رؤوس العظماء والامراء في صدر المكان
 (الباشا) - وما هذا الذي أراه في أيدي النساء يحملانه معهن كأنه

الاسقاط^(١) فيها الحلي لهدية العروس فهل بلغ بهم الكرم الى تكليف أنفسهم تقديم الهدايا للعروس لا يعرفونها ولا يعرفون أهلها من قبل

(الصدق) - هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها لياخذن بها مناظر الحرم وضور النساء في زينتهن وتبرجنهن وما تكون عليه هيئة الزفاف ليتهادين بها اذا رجعن الى ديارهن . وربما تُسخت منها ألوف النسخ لتباع في الاسواق الاوربية وتنتشر هناك للاستزاء والسخرية .

قال عيسى بن هشام - ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع السائحات الى الحرم . كالصاعدات الى الهرم . تقدم الى صدر المكان . ونظر في الوجوه بايمان . ثم دنا من طائفة الكبراء والأمرء . وتصد الأمير المقدم فيهم بلامرء . فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام . ودعاه لافتح قاعة الشراب والطعام . فقام الأمير يمشي أمام الصفوف في خياله . مشية القائديوم بلائه . ففتح له الباب ففتح المائدة وافتح سعد للقادسية . والمعتصم العمورية . ومحمد للقسطنطينية . نعم وافتح جدّه الأعلى للأقطار

(١) جمع سقط وهو الوفا .

الحجازية . ودخلت في أثره صفوف الجوع . وهم في سكون
وخشوع . دخول التقاة . للصلاة . والعفاة . للصيالات . ثم ما لبثوا
أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل . على الحصون .
والمعاقل . لابل هجوم الأسود الضارية . على الأشلاء الدامية .
والذئاب الخاوية . على الشياه الراعية . والنسور . على القبور .
والذباب . على الشراب . واشتد الزحام . وزلت الأقدام . وضلت
المذاهب . واصطكت المناكب . وشخصت الأحداق . وامتدت
الاعناق . وتهدلت الشفاه . وتحلبت الافواه . وتحركت الأشداق .
وتقارعت الأطباق . وتضاوت الأيدي بالمُدَى . كالظُفَى في
الوغي . والتفت الساق بالساق . واشتد الهول وضاق الخناق .
ثم انجلت الممعة عن شهداء التخم . وأُسرَّاء البشم . وقتل الطعام .
وصرعى المدام :

بأجسام يجرُّ القتلُ فيها وما أقرانها إلا الطامامُ
ولعبت الكؤوس . بالرؤوس . والشِّمول . بالعقول . والراح
بالأرواح . وذهبت المقار . بالوقار . والبطنة . بالفطنة . فاختلط
الحابل بالنابل . والعالي بالسافل . والرفيع . بالوضيع . والامير
بالحقير . هذا ينزع ويقهقه . وذلك يثتم ويثتمه . والآخرة بقي .

طعاما وسواه بقيء كلاما . ولم نسمع بينهم من قول يُفهم ويُقل .
أو حديث يُؤثر ويُقل . إلا ما صمنا يدور بين شباب متكلف .
متصنع . وكهل مجرب متضلع :

(الكهل) - أليس من أسوأ الأسوأ وشرا البلاء ما تراهم من حال .
هذا الصعيدي صاحب العرس كيف اعتزل سنة آبائه وأجداده .
وانسلخ عن مألوف العادة في قومه ودياره وطرطرفة واحدة الي .
المعمل بمادات الغريبين والتقليد لبدع الافرنج فجرى في الاحتفال
بالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها وعدم ملأه منها لطبعه .
وكيف لا يُرثي لحال هذا المسكين وقد أنفق جانبا عظيما من أمواله .
لإقامة المهرجان على هذا الطراز الغريب عن ذوقه فهو في حيرة .
وذوول لا يدري ما يصنع ولا يعلم ما يفعل في وسط هذه السوق .
القائمة والزحام الهائل وانظر الى مقدار السخط النازل فوقه .
والاعتراض المصوب عليه من أكثر الذين دعاهم ليرضيهم بعمله .
ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة وارتكب .
ما يخالف العادة ثم اشهد معي بأنه أساء الى نفسه وجنى على أهله .
(الشاب) - ما أراه إلا أنه أحسن صنعا وأجاد عملا وأخذ بالسنة .
الأرشد في التحلي بشمار المدنية والتعلق بأسباب الترقى في الحضارة .

وقد آن أن يستوى أهل الارياف بأهل المدن في السير على النهج الغربيّ فهو آكان ذلك أوجدًا وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة وربقة الافكار القديمة فترفع الامة وتتفع البلاد (الكهل) - أى تقع يُرتجى لاهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدور . ولئن امتد الزمن قليلاً على عمد الارياف وأعيانها وهم يرسلون بأبنائهم الى البلاد الاوربية ثم يهجرون مساكنهم ومساكن آباؤهم ويتركون مزارعهم ومرافقهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد هودتهم ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق - لم تلبث الاموال أن تذهب ضياعاً والدور أن تمسى خراباً وأن تصبح المزارع بأيدي الاجانب الذين يقلدونهم في امتلاك الاطيان وزراعة الاراضى كما يقلدونهم هم فى باطل المدنية وزخرف معيشتها .

(الشاب) - أظنك كنت تريد أن يتقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدن بين الاحواض والمستنقعات فى قرية آيه . وبين الاوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه . فيبدل المقاصير بالخيام . والكهرباء بالمشاعل . و«البوفيه» بالمطام . والصحاف بالقصاع . والآباريق بالجرار . و«الدينند» بالدفين . و«المايونيز» بالعصيد .

والهليون بالبول. وعش الغراب بالحلبة. و «الموستاندا» بالمش
و «المربى» بالرطب. و «المانجو» بالدوم. و «الكريز» بالجيز.
و «الشمبانيا» بالزهر. و «الكاب» بالحليب. و «الكفياك»
بمرق البلح. والموسيقى بالزمار. واللاتار بالاذكار. «والبيانو»
بالارغول. و «الأروكستر» بالرباب. و «البالو» بالسحجة
و «مس أوستن» بينت أم شنب. وموكب الزفاف بلعب
المهارة. ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام. ونظار
الزراعة بدل نظار الحكومة. وكتبه المراكز والعيارف. بدل
أمراء البورصة والمصارف. ويضع على رؤوسهم سحف النخيل
والعراجين. بدل أكاليل الازهار والرياحين. . .

(الكهل) - يكفيك فقد أسهبت في الشرح والوصف .
وأنا أقول لك : نعم يعينني أن يكون الامر على مثل ما تشرح منه
مادام من عاقبته عمران البيوت وحفظ الاموال وبقاء الحساب
وإطعام المساكين وبر الأقارب وإسداء الخير للأصحاب والجيران
ولادخال السرور على النفوس بما يرضيها ويلئم أذواقها . بهذا ينتفع
أهل البلاد ويَرْضَى الناس بعضهم عن بعض . ولا ارضى ابدان
ينقلب الحال كما أراه مادام من ورائه عواقب الخراب وسخط الناس



وعقوق الاهل ولصوق العار ووقوع الفضيحة وسوء المصير .
ومن الذى يمارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة وهو يرى
هذا الرجل العريق للنسب فى أهل الصعيد أهل الشهامة والجمية
وفوى الفيرة والآفة وعن حوله الخصيان على ما نشاهده الآن
يطالبونه أن يأمر الخدم بحمل صناديق الخمر لشرب النساء فى الحرم
وهو يعرف حكاية الأعرابي الذى سقوه الخمر فى أحد الأعراس ولم
يكن ذا قم من قبل فلما تارت سورتها قال لمن حوله من أهل البيت
ان كان نساؤكم يشربنها فقد زين ورب الكعبة « ولست أدري
على كل حال ما الغرض الدافع لصاحب هذا العرس الى احتمال كل هذه
الفضائح والمغايب . فان كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بانفاق تلك
الاموال الطائلة فى إقامة الاحتفال فقد أغضبهم وأسخطهم جميعا
على ما سمعته ونراه وليس فيهم الا كل منتقد لعمله معترض على فعله
يرميه بعضهم بالتبذير ويرميه بعضهم بالتقصير . وان كان الغرض
من هذا التوسع فى الانفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والننى بين
الناس وانتشار ذكره بالكرم والجود فلهذه الشهرة وجوه أخرى
تفيدته وتفيد الناس ولا يتناءى الحماد سبل شتى ترضى النفوس
وتسر القلوب ولو كان اقتصر فى إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه

فيها وبذل النصف الآخر في باب من أبواب البر والاحسان مثل
مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ وإقامة المستشفيات وإعانة ذوي
الصناعات الخلد ذكره بين قومه بالعمل الصالح ولأقاموا الحجّده
صروحاً من طيب الأحذوثة وجيل الثناء

قال عيسى بن هشام - وما نشعر إلا وقد انقطع علينا سماع بقية
الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج
من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ويعدّونهم
بالعودة إليها بعد غسل الآنية وتجديد الألوان ، فلم يسمع لهم
أحد ولم يلتفت إلى صياحهم فأخذوا في التصفيق بالأف كفتنفيراً
لهم كتنفير الدجاج فلم ينتقلوا ولم يتحركوا فعمد الخدم إلى آخر
حيلة يضطرونهم بها للخروج فأطفأوا الأضواء وتركوهم يتخبطون
في الظلمات ويتساندون على الجدران يطلبون الأبواب فسبقناهم
إلى الخروج والتقينا في خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعا في هذه
الحال ويتخاصمان في شدة السكر فلطم أحدهما صاحبه فسقط على
الأرض يتخبط في قيئه . وينشد هذه الأبيات في هذره وهزته :
شربتُ الخمرَ حتى قال صبحي أَلستَ عن السَّفَاءِ بِمُسْتَفِيٍّ
وحتى ما أوسدَ في مَبيتٍ أنام بِمَسْوَى التُّرْبِ السَّحِيقِ

وحتى أغلق «البوفيه» دونى وأنست الهوان من الصديق
وسمنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تها وعجبا ويصرّ خده
صلقا وكبرا:

شربت الخمر حتى خلت انى أبو قابوس أو عبد المدان
وسمنا فى الخارج عزف الموسيقى تتقدم العروس لرفاقه عند
دخوله الحرم فسكت المغنون وضج المكان واضطرب الحاضرون
ووقف الجالسون وصعد بعضهم فوق الكراسى يتناولون لمشاهدة
العروس وهو فى زمرة من اخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل حتى
اذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفة فقام احد الحاضرين فصعد على
منصة المغنين صعدوا الخطيب على المنبر فشخص نحوه الابصار ومالت
اليه الاسماع واذا هو يخطب بخطبة هذه نسختها: «أيها الحاضرون
والغائبون . هذه ليلة قامت فيها أهواء السرور . على منابر الجبور .
وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور . من سماء القلوب وأرض الصدور .
وطلمت فيها كواكب السعود من أفق العيون . فأنجلت عن بصائرنا
غمام الأحزان ووبل الشجون . ولو أنى لست من فرسان هذا
الميدان . الراكبين فيه لحيازة قصب الرهان . ولا من المجردين
لسيوف الخطب وخطب السيوف . بحروف الرماح ورماح الحروف .

ولا من المتطين في شروح البلاغة متون الضواير . ولا من
 الساجين في بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر . ولا من الساحين
 حلة سخيان . ولا من المتدريين في حصون المعاني والبيان . وقد
 حيل بين المير والازوان . إلا أن ما عرفه في هذا العروس من العلم
 والاقدام . وماله في مستعمرات التريية من وطأة الاحتلال ورسوخ
 الاقدام . وما اعتقده فيه من محبة الأوطان . ومصادقة الاخوان .
 كما أن ما أعلمه وأتحققه في العروس التي تزف اليه هذه الليلة .
 من دلها بتدبير المنزل وفروض العيلة . وما هو مشهور عنها لدى كل
 قاص ودان . مما يوجب حسن القبول والامتنان . وما شهد لها
 به معلمو الكاتب ومدرسو المدارس . بأنها أنس الحافل وبهجة
 المجالس . وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح .
 وأتوسم في جباههم من الفرح والانشراح . كل ذلك هو الذي
 جرأني على الوقوف في هذا الموقف الحرج . وسط بحر هذا العروس
 المتزوج . واني أتوجه اليكم بوجهي لتضربوا عن تقصيري صفحا .
 وأتقدم لكم بنفسي لتطووا عن هفواتها كشجا . وأطلب منكم أن
 تشربوا معي نخب الكؤوس . في نخب العروس . وتقبلوا معي
 فليحي هذا الشاب في هناء وسرور . ورخاء وجبور . ممتعا بنشأته .

الرفاء والبنين . وناشئة الاولاد لناجين . ماناح القمري في رياض
البساتين . وصاح الأخدرى بين الاعشاب آمين آمين ،
ثم نزل الخطيب فقابلته الاكف بالتصفيق والافواه بالتهليل
والصدور بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثا بالسلام . ثم اعقبه
على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام . فأنشد هذه
القصيدة النادرة . والمدحة الباهرة :

يا أوقات الهناء الصافيات	تجلى الانس من كل الجهات
لقد قام البشير بها ينادى	على أهل العروسين الهداة
وفي تلك الصدور الفرح يجرى	كما تجري خيول الصافيات
فبشرى أيها الشهم المفدى	بخير الغانيات الانسات
خلفت بدرة في عقد ماس	من المتأربات الراقيات
وقد زفوا بهذا الأفق بذرا	الى شمس الهدى والكرميات
تفدنت بالمعارف والامالى	فحازت زينة التملعات
يرجى أن يكون كذا بنوها	لدى أيماننا المستقبلات
بهم تزهو الشيبية في الراى	وتغدو للحنى أقوى الجماء
بهم ترقى المواطن مرتقاها	وتصبح قدوة التريسات
كحيش في البلاد عر مرى	وجند في الحروب مبرزات

وتعشى التيه في أوج المراقى وترفل منه في حلل الثبات
فتصبح أنت خير أب كريم وتصبح تلك خير الامهات
ودتم بعد ذلك بألف خير ونعمى بالبنين وبالبنات
ولولا الاختصار وضيق وقت لجئت بألف بيت شاهقات
ثم انتينا بحمد الله من الاشياء بعد الخطيب . وعاد المغنون الى
للحن والنطريب . فأخذت أجيل للنظر وأقلب الطرف . من ركن الى
ركن ومن صف الى صف . فلم أجدي الحاضرين بلا استثناء . من
هو ملأفت الى سماع الغناء . بل رأيتهم يوجهون النظر الى السماء .
ويكثرون من الاشارة والايحاء . كمن يتضرع بالدعاء . لكشف
الحنّة والبلاء . فرفعت مثلهم نحو السماء بصري . فدُهيت من حيث
أدري ولا أدري . اذ رأيت نوافذ الدار . مهتوكة الاستار . وفي
كل نافذة هيفاء مسفرة النقب . كالدُّمية في المحراب . أو كالصورة
تتألق في إطارها كالشهاب . أو كالندى بدّامسفر آمن خلل السحاب .
تُنفذ منها مثل خيوط الغزاة للمغازلة . وتجرد من اللحظات
مثل سيوف الكماة المنازلة . فتصيد طيور القلوب الحوائم . وتفتك
بمخرج النفوس الروائم ثم تراها تُوى بكأس الصهباء . الى شفها الحمراء .
وتلمس واسطة المقد . بزهرة من الورد . فيشتبه على الرائي وجه

الامر . باختلاف البواقيت كالجر . ياقوتة الحجر . ياقوتة النحر .
وياقوتة الزهر . ياقوتة النجر . ثم لا تفتأ ترسل الاشارة نلوا الاشارة .
تارة بالروحة وأخرى بال«السجارة» . مع ابتسامات توضع عن
مكنون الصدور . وتفصح إفصاح المعاني في السطور . والرجال
من تحتهن يحاوبونهن على أعين النظر . طوراً بأشارات الأيدي
وطوراً بلغة الازهار . وكل مآزل فيهم يعتقد أنه امتاز على سواء .
وتغلب على أهل النوافذ بهواه . وأضرم فيهن نثار المشق وبجواه .
وخلع قلوبهن بدعواه . وما بالنوافذ سوى أزواجهم وبناتهم . أو
أخواتهم وبنات أخواتهم . والمغني يستقبل وجوههن في هذه الاثناء .
بوجه ليس فيه أدنى حياء . فيغنيهن من الاصوات والألحان . ماثير
من الغرام ويهيج من الأشجان . وألخصيان يصعدون الى الحرم
ياوراق وينزلون منه بأوراق . يخزن فيها الادوار السائرة على السنة
المشاق . في وصف حرارة الاشواق . وصرارة البعد والفراق .
وما زالت الحال تزايد قحة ووقاحة . وتتضاعف هتكا وفضاحة .
حتى قام في وسط المكان جماعة من الاصحاب . يتقاذفون بالفاظ
القذف والسباب . ثم انهم انتقلوا من التلاعن والتشائم . الى
التضارب والتلاكم . فقام الحاضرون على الاقدام . لمشاهدة ميدان

النزال والخصام . ثم تداخل رجال الشرطة بينهم لفض الخصامة
وسوّوهم الى المحاكمة . بعد أن تمزقت الثياب تمزق الأوراق .
وتخضبت الوجوه بالدم الممزق . فصارت الافراح أراحا . وانقلب
الغناء نواجا . وقلت لصاحبي هلم بنا الى الفرار . من واقف التهمة
والعار . وخرجت به أسوقه أمي . وأقول له في بعض كلامي :
لقد حق لك بعد الذي رأينا ونظرنا . وبلّونا وخبرنا . أن تلتهب
بالغضب والحنق الهابا . اويذهلك الدهش والعجب فلا تمي
جوابا . وهل بنى بعد ذلك فرق بين سرور الدنيا وحزنها . أو
فضل لظهر الارض على بطنها . فأجابني بلسان الحكيم المدرب .
والحليم المهذب . وهو يتبسم استهزاء ويهز كتفيه ازدراء : لم يبق
في بفضل الحكمة فضل للسخط والغضب . وعجبي اليوم مما
أري يكون من المعجب



﴿ العمدة في الحقيقة ﴾

قال تيسير بن هشام - وتمكّن من الباشا حب الاستكشاف
والاستطلاع . لدرس الاخلاق وسبر الطباع . وتبدلت الوحشة
عنده بالاثناس . في مخاطبة الناس . فصار يلح على ويلج في الطلب .

أَن أَذْهَبَ بِهِ فِي هَذَا السَّبِيلِ كُلِّ مَذْهَبٍ . وَأَنَا أَدَاوَرُهُ وَأَحَاوِلُهُ .
وَأَمَّا طَلُهُ وَأَطَاوِلُهُ . وَهُوَ لَا يَنْفَكُ يَسْتَعْجِزُنِي وَيَسْتَقْضِيَنِي . وَإِذَا
اسْتَعْفَيْتُهُ لَا يَعْفِيَنِي . فَقُلْتُ لَهُ لِمَ يَبْقَى أَمَامَنَا مِنَ الْمَجَالِسِ وَالْمُنْتَدِيَّاتِ .
الْأَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَزْبَكِيَّةُ مِنَ الْمَخْجَلَاتِ الْمُنْتَدِيَّاتِ ^(١) وَمَا تَضَمَّنَتْهُ
مِنْ صُنُوفِ الرَّجْسِ وَالنُّكْرِ . وَفَنُونَ الْفُسْقِ وَالسُّكْرِ . وَأَنَا أَجْلِكَ أَنْ
تُتَّسَلَكَ بِكَ مَسَالِكُ الظَّنِّ وَالْتَّهْمَةِ . وَأَنْ أَجْلِكَ مَحَالُ الرِّيْبَةِ وَالشُّبْهِةِ .
وَأَرْبَابُ سِنِّكَ وَقُدُوكَ أَنْ تُمْتَخِطَ بِتِلْكَ الرُّؤْمَرِ . وَتَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي تِلْكَ
الْعُزْمَرِ . وَتَقْصُرَ نَفْسُكَ الشَّرِيفَةَ عَلَى مَا لَمْ تَأْلَفْهُ مِنْ مِثْلِ مَا يَفْعَلُونَ .
وَشَرُّوِي مَا يَفْعَلُونَ ^(٢) . فَلَا تَأْمَنُ حِينَئِذٍ نَقْدَ النَّاقِدِينَ . وَطَعْنَ
الطَّاعِنِينَ . وَقَاسَمَتُهُ أَنِّي لَكَ لِمَنِ النَّاصِحِينَ : فَقَالَ أَلَيْ يَقُولُ ذَلِكَ
وَقَدْ آتَيْتَنِي مِنْ دُرُوسِ الْحِكْمَةِ الْعَالِيَةِ . وَضُرُوبِ الْفَلَسَفَةِ السَّامِيَةِ .
هَذَا زِدْرِي مَعَهُ عَذْلُ الْعَاذِينَ . وَأَجْتَقَرُّ بِهِ لَوْمَ الْجَاهِلِينَ . وَلَنْ يَضِيرَ
النَّفْسَ الشَّرِيفَةَ الطَّاهِرَةَ . أَنْ تَجَاوِرَ النَّفْسَ الْخَبِيثَةَ الْفَاجِرَةَ . وَقُلَّ
أَنْ يُنْدِي الرِّیْضُ الطَّيِّبُ . وَتَذْهَبَ رَائِحَةُ الدُّفْرِ ^(٣) بِرَائِحَةِ
الطَّيِّبِ . وَالْأَمْعَانُ فِي رُؤْيَا النَّقِیْصَةِ وَالرَّذِيلَةِ . يَزِيدُ النَّفْسَ الْفَاضِلَةَ
تَحْسَنًا بِالْفُضِيلَةِ . وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ الرُّشْدِ وَالْهُدَايَةِ . إِلَّا مَنْ نَظَرَ فِي

(١) الْمُنْتَدِيَّاتُ أَخْبَرَتْ (٢) شَرُّوِي مِثْلُ (٣) الدُّفْرُ الْذَنْنُ

أعقاب الضلالة واللعواية . وبالظلمة يُعرف فضل الضياء . وبضدها
تبين الأشياء . - ذلك من فضل ما علمتني مما علمت رؤسدا . -
ولقد كان من أدب الحكام في أيام دولتنا . وزمن صولتنا أن
يفيروا من هيئاتهم . ويستروا من سماتهم . ويبدلوا من أزيائهم
المعروفة . بأزياء غير مألوفة . ليتمكنوا من مخالطة الناس على
اختلاف أشكالهم . ويتفخوا على جالية أمرهم وحقيقة أحوالهم . فلم
يكن ذلك مما يجرت بسمتهم . أو يحط من رتبهم . عند ظهور
أمرهم . ووضوح سرهم : فلا عليك إذا أن تسلك بي ماشئت
من المسالك . ولا تخش علي شيئا من تلك المعاطب والمهالك .
قال عيسى بن هشام - ولما لم يبق لي بد من امتثال حكمه . وتنفيذ
عزمه . قصدتُ به من الازبكية روضتها الغناء . وحديثها الفتياء .
فلما وصلنا إلى بابها . وقفنا عند دوابها . وضعت فيه أجرة العبور .
كما توضع النذور في صندوق النذور . ودرت فيه دورتي ودار الباشا
دورته . فقال لي وهو يدافع الغضب وسورته . هل كتبت على
الداخلين في هذه الجنة الزاهية . ان يدور الانسان دورة الثور في
الساقية . فقلت له نعم شاع النخوين بين الناس في جميع الاشياء .
فاخذعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء . لتكون عليهم رقيقا عتيدا .

لا يستطيعون معها اختلاسا ولا تبديدا . فهي ترقم من الداخل عند كل دورة . ما يتقدمه الداخل فيها من الاجرة : فلا يضيع منه شيء . وثقل ذرة . ولما جاوزنا الباب أعجب الباشا من المنظر وازدهاه . وراقبه بهاء المكان واستهواه . وتلكه الابتهاج وتولاه . فقال ماشاء الله لا قوة الا بالله : لمن هذه الجنة من كبراء البلد . قلت هي ملك كل واحد وليست بملك أحد . انشأتها الحكومة من « المنافع العامة » . لنزهة الخاصة والعامة . ثم سرنا نطوف في أنحاء الحديقة . بين اشجارها الوردية . واغصانها الرشيقية . وازهارها الانيمية . والنباتات النضرية . ويميل حجاب . لحسن هذا المنظر العجيب . والمثبت الخصب . ثم وقف بنا وقفة بين برد الظلال وخير الماء . ورفع بصره يفتش باسطة الأرض ورافع السماء . ثم رأيتني نحي للركوع انما انقوس . بعد أن أنشد قول حبيب بن أوس :

أَرْضٌ إِذَا جَرَّدَتْ فِي حُسْنِهَا فَفَكَرْتُ دَلَّتْ عَلَى الْبَاطِنِ
وسمته يتلو في الركوع والسجود . قول راسخ الوجرد : « اللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » وقرله أيضا عز من قائل : « يُسَبِّحُ لَدَى مِيزَانِ السُّبْحِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِهِ وَلَكِنْ

لا تفقهون تسبيحهم»

ثم انذيت به في طلب الراحة . فحاسنا على أريكة من أرائك تلك
الساحة . ودارت بيننا هذه المحاطبة . بما اقتضته المناسبة :

(الباشا) - كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصا وبالمرتاخين
مزدحما يشاهدون جماله ويتفياؤن ظلاله ما دامت الحكومة قدأباحته
لكل رانح وفاد كما تزعمه . ومالي لأرى فيه غير هؤلاء الاجانب
في أزيائهم بأبنائهم ونسائهم فهل وقفت الحكومة على التزيين
وحرمته على المصريين فأننى لم أجد فيه أحدا منهم منذ دخولنا
الى هذه الساعة

(عيسى بن هشام) - لم تؤثر به الحكومة قوما دوز قوم ولكن
المصريين كأنهم ألفوا التهاون بالذات الروحانية وتفاولوا عنها
وأخصها معرفة ما حسن في الاشياء وتميز الجال والكمال ومواضع
الاحسان والاثمان في صنعة الوجود ورياضة الفكر والنظر في
مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التي تسبح بحمد خالقها
أى تدل عليه بصنعتة فيها . وكان الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد
فكره في الوجود على الماديات فلا يكاد ينظر في دهره نظرة
المشاهدة والامعان في خلق السموات وما تألق فيها من الشمس

والاقدار والنجوم والكواكب ولا في خلق الارض وما ينبت فيها من النبات ويدب من الحيوان ويمجرى من البحار ويرسو من الجبال وهي بجمال صنعها وإكمال وضعها:

تَصِيحُ بَنَ يَمْرُؤُ الْأَرَانِي فَتَفْهَمُ حِكْمَةَ الْخَلْقِ الْعَجِيبِ
(الباشا) - جلّ الخالق الصانع . ولكن لا شيء سبب ألف

المصريون غفلتهم عن التمتع بهذه النعمة نعمة المشاهدة ولذة المطالعة وصار الاجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون بها عنهم

(عيسى بن هشام) - لاسبب فيما اعلم الا التماذى فى التهاون والترأخى عن اية اظهرا هذا الشعور الغريزى الكامن فى النفس وتنميته بالرياضة والتفكير ومعاودة الامعان والتدقيق وقد اعتنى الاجانب به عناية خاصة فاجتهدوا فى تنميته وترقيته حتى صار لديهم ملكة من الملكات وفننا جميلا من أرقى الفنون فدرّبوا عليه وصروا فيه وسرّى فى دماثلهم يتوارثه الابناء عن الآباء فترى الطفل فيهم اذا شبّ ودرج وأراد أن يشحف اهله يوما بادرا الى الروض فانتطف منه اول زهرة من الربيع وتسابق بها اليهم كأنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم . ولقد برعوا فى الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام غوّه ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المراتبات الطبيعية

بل تجاوزه الى المراتب الصناعية ففهم من يبذل الالوف من الدنانير
والملايين من الدراهم لاقتناء عبودة من الصور ورسم من الرسوم بحسن
تمثيل زهرة من الزهور أو دائرة من الشفق أو راع من الرعاة أو
حيوان من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته في الاصل الطبيعي وبين
قيمه في الشكل الصناعي وقل أن تدخل دار ميسور منهم الا وتجده
أنحاء الجدران مزودة بالواح التصوير والتأويل بما يحاكي المناظر
الطبيعية فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع بحسن المنظر في داخلها إلى
جعبته عن مشاهدة جمال الطبيعة في خارجها. ولقد جرهم ذلك إلى
شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة والتنافس في اقتنائها والتغالي في
التحفظ عليها والضيق بها فكم رأينا من قطعة من الحجر أو غيره
تزدريها الأعين بينما ولا يعبأ بها المصري فيطرحها في كناسة منزله
فلا تزال كذلك حتى يلمقطها الاجنبي في بحثه وتنقيه فتصير عنده
في قيمة فريدة التاج أو يتيمة المقد. ولم رأينا من السياح من
يتكبدون مشاق الاسفار وتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع
إففاق الالوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدمن
وما عفا من الرسوم في هذه الديار وبعارأينا المصري ساكن القاهرة
يشب ويشيب ويكتهل ويشيخ ويعز ويهرم ولم ير من الاهرام

القائمة في جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد وربما لم يلتفت الى رؤية ذلك أيضا حتى يدركه الموت

(الباشا) - تالله إن ذا لمن العجب . ولو كان الامر يجرى على القياس لكان المصريون في مقدمة الامم التي ينمو فيها الشعوب بلذة التأمل في بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات لرفقة طباعهم ولطافة شيمهم وسرعة التأثر والافتعال في نفوسهم ولما يزههم الله به من حسن الاقليم واعتدال الجو وفيض الماء وخصب الارض ولا تهمهم موارد ارضهم ومعايشهم على استنبات الارض وطول ممارستهم للفلاح والحراث والزرع والحصد . وكل من رأى الاقليم للصري كالزبرجدة الخضراء في وسط رمال الصحراء لا بد أن يحسد أهله على التحلي بهذه الفريدة من عقد الطبيعة وينبسطهم على دوام غشيمهم باجتلاء هذا المنظر الذي يجلو البصر ويثليج الفؤاد وينعش القلب ويلطف من هو واجس النفس وبلابل الصدر فتصفو الروح فتخف من قيود الالم السفلى الى الاتصال بممارج العالم العاوى فتزاح هناك هنية مما تقاسيه في مصارعة العيش من ضروب الاكدار والا لام وتفر من وجهها برهة الى وجه ربك ذي الجلال والاكرام . واعلم - وهذه لفظة طالما أفادني تكريرها على لسانك فاسمح لي بها مرة من

لساقى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب - أن الفرق بين الانسان والحيوان لا ينحصر في الخلقة في الخلقة ما يشبهه . ولا في النطق ففي الحيوان ما ينطق . ولا في الذكاء ففي هوام الارض ما يفوق ذكاء وانما المزية التي تميزه عن سائر الحيوانات والخصلة التي يفضلها بها هي إدراك حقيقة الوجود بالامعان والمشاهدة وطول الفكر والنظر في خلق السموات والارض للاهتمام الى معرفة خالقها وعبادة صانعها قال جل وعز في محكم بيانہ : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرَةِ كَيْفَ خَلَقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكَرُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ » . هذه هي اللذة الروحانية التي أسعد الله بها الانسان دون سائر المخلوقات وهي أشرف اللذات وأصفاها وأفضلها وأبقاها . وما يتقرب العبد الى الله زلفي في عبادته بأجل من النظر والتفكير في حسن صنعه وكمال خلقه قال وهو أحكم الفائين : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا مَّاعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » . ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلا من

تجرد مثل يومًا من عالم الاجسام والفناء الى عالم الارواح والبقاء
ولا يبتك مثل خبير

ولو كانت الامور تجري على القياس أيضاً لاشتغل المصريون
بلذة هذه المشاهدة وسعوا في نموها فيهم إن لم يكن من جهة لطف
الاحساس والشعور فمن جهة انصرافهم الى تقاليد الغريبيين والعمل
على نمطهم في مختلف أحوالهم كما شاهدته منهم عياناً في جميع حركاتهم
وسكناتهم . ولكن لعل هناك من خفي الأسباب ما حرمهم من
اطراد التقليد في هذا الباب

(عيسى بن هشام) لم يكن هناك من سبب بمنعهم غير ميلهم الى
الفقر والانكماش سواء أكان في الماديات أم الادبيات . وهم على شدة
ولعهم بتقليد الاجانب لا يقلدونهم الا في ما خفي وهان من الزخرف
المموه والبهرج الكاذب والملاذ الشهوانية مما لا ينتج عنه إلا سقم
الاجسام ونفاد الاموال وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة فجهول
عندهم بل مرذول لديهم . وإجمال القول في هذا الباب ان مثل
المصري في أخذه بالمدنية الغربية كمثل المنخل يحفظ الثمن النافعة
ويفرط في الثمن للنافع

(الباشا) — يا أسفا عليهم كأنهم تخلوا عن فضائل مدنيتهم القديمة

ولم يتحلوا بفضائل المدينة الحديثة فأصبحوا كالتى تقضت غز لها من
بعد قوتهم أن كانوا

قال عيسى بن هشام وما زال الحديث يجري بنا على هذا النحو
حتى وصلنا الى المغارة المصنوعة فى بعض أنحاء الحديقة فرأينا صنما
جميلاً وشكلاً بديعاً وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الاحجار فجلسنا على
حزبٍ هناك أعدت للزائرين ، واذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من
المصريين شغلهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات اليها فأقنا
نسترق السمع ونلتقط اللفظ فتبين لنا من سياق كلامهم ان أحدهم
عمدة من عمدة الارياف وثانيهم تاجر من تجار الثغور وثالثهم فنى من
أهل البطالة والخلاعة . وبما التقطناه من قول العمدة للخليع فى
مجرى حديثه :

(العمدة) - وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله فقد طال بنا
الجلوس ولم نر شيئاً . وهل كان جلّ القصد ومتهى الجهد أن نجلس
هنا فى وخامة الاشجار ورطوبة الهواء وعفونة الماء . وثالثه ما أجد
فرقا بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذى خلفته خلف بلدتنا
ولعمري إن الأوز الذى يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سمناً
من الأوز الذى يسبح أمامنا وما الفائدة فى طول جلوسنا امام هذه

الاشجار العقيمة التي لا تثمر ولا تنقى من جوع . وأن نحن من ذلك
 النمر الشهى والصيد الطرى الذى وعدتنا به وأطمعنا فيه
 (الخليع) - مهلاً فان يفوتك من هذا شئ وان كنا أخطأنا
 الفرض هنا لاننى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها وما كنت
 أتخيل ان الامر وصل بها الى مثل هذا الخراب من الظباء والنز لان
 الا منذ أخبرنى أحد الاصحاب بعد دخولنا بان الحكومة اشتغلت
 بأمر هذه الحديقة خلوت يدها من الاشغال فباشرت الاصلاح فيها
 بمنع ذوات البراقع والماز من دخولها والتجول فى أنحائها . ولا أقول
 فى هذه النازلة الا قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحكومة :

« حسينا الله ونتم الوكيل »

(التاجر) - وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالى والايام التى كانت
 فيها الحديقة ممرثماً للجسار وملعباً للقيان . ولطالما دخلت هنا وحيداً
 فريداً فما اكاد أنصب الحباله وأضع الحب حتى أقنع من آرامها
 مثنى وثلاث ورباع

(العمدة) - يعلم الله ان العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها
 الاقامة الامدة قضاء الحاجة والرجوع الى البلد فوراً والا فقد
 عرض الواحد منادراً جملة للضياع وضدراً لالتقياض . والى الآن

تراني في غاية الاسف والحزن على ماجرى لي أمس في سهرتي مع فلان..
 لموظف اذ جرني للزهة معه فطاوعته علي هواملاً في إنجاز حاجتي..
 عنده فسحبني من مكان الى مكان ومن حان الى حان يشرب هو
 وأصحابه على حسابي وكأنما أجوافهم دنانير متخرقة فلا تمتلي ابدانهم..
 الخمر وكأنما كبسي كنز لا يفني بالانفاق . وما كدنا ننتهي من حانات..
 الخمر حتى اندفعوا بي الى بيوت القمار فأصبحت مصدع الرأس من..
 الخمر فارغ الكيس من القمّر

(النتاجر) - ولم تطاوعه على أغراضه وتنقاد اليه مع أصحابه..
 وتنفق مثل هذا الاتفاق من غير حظ ولا لذة . وان كانت لك
 حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم فيكفي في ذلك أن تضع « المبلغ
 المناسب » في يده وتخلص منه ومن أصحابه فلا تسايهم ولا تعرض
 نفسك للتورط معهم كما فعلت

(العمدة) - يحق لك ان تعرض وتلوم فقد أراحكم الله معاشركم..
 التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام فان أشغالكم لا تتعلق
 بهم كما تتعلق أشغال الفلاح في الارياق فنحن في اضطراب دائم الى
 منرضائهم « والمبلغ المناسب » الذي تقول عنه لا يكفي وحده في قضاء
 الحاجة بل يلزم الاتفاق عليهم في كل زمان ومكان علاوة على تلك..

اللبالغ وان لم يكن لك عندم حاجة في الحال . وكم من كلة واحدة من
..موظف صغير كانت سبباً في تعطيل عمل كبير وما يدريك أن الذي
تُخَضِّصُه عنه الليلة ولا تلتفت بنظرك اليه في حانات الازبكية يصبح
غداً قاضياً في المحكمة أو حاكماً في المديرية

(الخليم) مقاطعاً - اذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على
غير هواك فلما عنها عَوْض من اياتنا هذه ان شاء الله
(العمدة) - أُنصِدَقَكَ في وجود العَوْض وقد أُخْلِفَتْ
وعدك معنا في هذه الحديقة وآذَنَ الليل بالدخول وليس في اليد
شيء من الصيد

(الخليم) - صدقني بالله فاني ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة
من أمر الحكومة لانني كنت مقبلاً بحلولان مدة طويلة وجئت
وأنا أحسبها على حالها الاول . ولكنني قد ربت لك الآن سهرة في
مكركى تفوق في حسناتها كل سهرة مضت فاني أعرف صاحباً لي
أخبرني عن بيضة خدر من بيت فلان باشاققوا . واناؤنا أذهب
للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الخيل وسأكرم عنها أمر كما
على ان تصير معي في الموضع الذي أختاره ثم أرسل اليكما من هناك
يعني يأتيكما فيكون دخولكما على حين غفلة فلا تستطيع الاختفاء

النار . كيف لا يضطرم القلب استماراً . ويجري الدمع مدراراً .
فلا أستطيع أوارى ^(١) . ولا أستطيع أوارى . وقد تمثل أمامي في
هذه البقعة . وهي موسومة بسوء السمعة . بطل مصر . ورافع
بنود النصر . وقائد جيوش الحرب وهاديا . في مفاوز الأرض
وبواديها . وموقد نيران الوقائع وصايلها . وخائض غمرات
اللامع وجاليها :

في كل منبت شعرة من جسمه أسد يند إلى الفريسة مخلباً
وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجند في . واضع
الهنزل والدّد ^(٢) . ويقيموا لإبراهيم صنماً على صورته . في وسط سوق
الفسوق وسرته . مشيراً بيمينه إلى موطن اللهو والفجور . وأماكن
الفحش والهمور . ودينه ينهاهم عن تشييد الأصنام وإقامتها . ويأمرهم
بكسرها وإبادتها . ويا يؤمن قوم جعلوا اليد التي كانت تشير للكفاة
والفرسان . في ميدان الضرب والطعان . بمصافحة المنايا . ومقارعة
الاقران . تشير اليوم وسط هذا الميدان . بمغازلة البغايا . ومعارفة
الذنان . فسبحان محوّل الأحوال ومبدّل الأزمان . فقلت له
ما هذه الأفكار المحزنة . أحثينا إلى تلك الأزمنة . وقد انقضت

(١) الأوار حر النار (٢) الدد اللهو والعب

بخيرها وشرها . وذهبت بحلوها وهرها . وأين أنت من طريقك
 في الحكمة والسداد . ومن سبيلك في الهداية والرشاد . فخص
 عليك من حزنك وهمك . واترك تلك الهواجس فانت ابن يومك .
 ولا تجعل لهواك القديم عليك ساطعاً مطاعاً . فيذهب ما استفدته
 من العلم ربحاً مضاعفاً . أما إقامة التماثيل في الميادين . وغالقتها للشرع
 والدين . فقد أقامها حكامنا تقليداً للغربيين . ولم ينكرها أحد من
 طلبة العلم وعلماء المسلمين . فاستنامت إليها الافكار . ولم يوقفها
 التحريم والإنكار . وأما وضع التمثال في هذا المكان دون سواه .
 وإشارته فوق الحصان يمينه . فاعمل الأمر بوضعه أراد أن يذكر
 هؤلاء النفاذيين الداهلين . بما كان لأبائهم الأولين . من الشأن
 الرفيع . والركن المنيع . أيام إمارته . وينبئهم على ما انتشر ذكره
 في الآفاق . وخلدته لهم بطون الأوراق . من انتحام المهالك .
 وانتساح الممالك . تحت قيادته . وهو يشير اليوم بتلك اليد
 ليستفزهم الى مواقف العز والمجد . ويستنفرهم عن مواطن الخلاعة
 والبطالة . الى مواطن الشجاعة واليسالة . فتبسم الباشا من قولى
 ضاحكاً . وقال ما عهدتك في الجواب عموماً بما حكاً . فقلت
 له دَعْ هذا وانظر الى هذه البنية الايوانية . ذات الأرائك

الخسروانية . فنال أعظم به من بناء . بين بيوت الكبراء . قلت
هو بيت لهُسور رفع اسماعيل قواعده . وبوأ الناس قاعده .
يشاهدون فيه صنوف الألاعيب . وضروب الأعاجيب . مما
يؤخذ عن أساطير الاولين . وأقاصيص الراوين . وما تفتن فيه
كل غادة حسناء . من جمال الزينة وحسن الرثاء . وتفتن به كل
قينة هيفاء . من فنون الرقص والغناء . اقتداء بالفرسين في ديارهم .
واحتذاء لآثارهم . وقد بقي من بعده تنفق عليه الحكومة من عيش
الصانع والفلاح . لتفككة النزلاء والسياح . ثم انظر أمانك الى
هذا الحجة مع المتحجم . والموقف المزدحم . فالتفت فقال ما هذه
الضيوضاء العظيمة . أمانم ما أرى أم وليمة . قلت له لا بل هو مجتمع
عام . تتراحم فيه للناكب والأقدام . لمسامرة الاصحاب . ومعاورة
للشراب . وبيننا نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير . عند باب هذا
الحان الشهير . فسرنا في عقبيهم . ولحقتنا بهم . فسمعنا الخليع يقول
لصاحبيه : كونا هنا في الانتظار . حتى أعود اليكما بالاخبار . إنجازاً
لوعدي . وإيفاءً بعهدي . فأجاباه بالقبول . وتقدماً للدخول .
فقال العمدة للتاجر ما أخرجني الى تضييع الزمن . ورياضة البدن .
يشرب كأس من المقار . ولعب دور من البليار . وقال التاجر

وما أخرج يدي الى ملامسة ورق القمار. وأذني الى رنين الدرهم
والدينار. ثم صعدنا وراءهما الى قاعة بأعلى المكان. أعدت للعب
والرهان. فتقدم العملة وهو يهزأ عطافه وأردانه. فاستلم كرة
«البليار» وصوب لجأته. وقعد التاجر وهو يرتعد من الفرق. في
عجاس اللاعبين بالورق. وجلسنا نحن للنظر والسمع. في غمار ذلك
الجمع. فسمعت عن عيني أحد السامرة المعروفين بالدهاء. يقول
في مناقشته لأحد أرباب الثروة والفناء :

(السمسار) - لا نزاع ولا جدال في أن ينابيع الثروة قد نضبت
بذهاب تلك الايام الماضية التي كان يغتنى الرجل فيها بكلمة ويثري
باشارة فيصبح بها أغنى الاغنياء بعد أن كان معدوداً من الفقراء
ولقد وصل المصريون الآن الى زمن كله ضيق وعسر ولم يبق من
حكامهم من يقطع الاقطاع ونهب الضياع. وبقي الغنى الحازم
فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولا يسترجح ثروته
وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم فأصبح
مضطراً الى الانفاق من تليده فسري النقصان الى رأس المال حتى
إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته الا ما يقوم بالكفاف وحده
بعد توزيعه بينهم. وكن على يقين أنه لا يمضي جيل واحد على هذه

الحال الا ويندثر بين المصريين ما بقى من بيوت المجدوالغنى. واعلم
أنه لم يبق أماننا اليوم سوى بيت واحد هو منبع المنابع فى الثروة
والمال وكنز الكنوز فى الغنى واليسار يقوم للمصريين مقام أعظم
بيت من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسبب والعطاء
ويدفعون عنهم الضرائب بالسراء. وما يخفى عليك أنه بيت البورصة
(الغنى). اسكت ولا تذكر لى اسم البورصة فقد سمعنا فى
هذه الأيام عن فعلها بفلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر ونوعظة للمتدبر
(السمسار). ألتبس من سعادتك غص النظر عن الاستشهاد
بفلان وفلان فان الخسارة لحقتما من سوء رأيهما وشدة جهلها
. أما أحدهما فانه كان يعتمد فى المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير
وكان لا يأخذ الا بكلام إحدى العرافتين العرافة السوداء أو
العرافة الافرنجية تلك بودعها وهذه بورقها. ومن نواجره فى
الآخذ بالتفاؤل أنه سمع رجلا مجذوبا يصيح فى الطريق بقوله :
أذهب يا يزيد. وكان لا يزال مترددا بين البيع والشراء لا يرجح
بين المبهوط والصعود فتفائل بالكلمة واعتمد عليها وسار من توه
الى سمساره فأمره أن يشتري له عشرين ألف قنطار فنصحه وحاول
أن يحوله عن رأيه فلم يتصيح ولم يتحول وهبطت الاسعار فى اليوم

الثاني وتوالى هبوطها فكان ما كان من خسارته. وأما الثاني فكان جلّ
اعتماده على الاخذ بأفكار أرباب الجرائد والثقة بالاخبار الكاذبة
من الموظفين ولم يعمل برأى الساسة الذين هم أدرى الناس
بوجوه المضاربة وأعلمهم بطرق الصواب فيها

(الغنى) - ان تزيدنى والله براعتك فى البيان والبرهان الآ
ابتعاداً عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ولا أعتبرها فى نظرى
الا أكبر باب من أبواب المقامرة . والمقامرة هى عين المخاطرة
(السمسار) - أما المخاطرة فهى لاصقة بالانسان فى كل حركة
وسكون وملازمة لعمله فى كل زمان ومكان ومن اراد ان يتوقى
الاخطار ويسلم من المخاوف فلا يباشر عملاً من الأعمال والأولى له
ان يترك هذا العالم الى سواء . واسمح لى بأخر قول أقوله لك فى
هذا الباب وهو انك اخبرتني بمقدار محصولك فى هذا العام
وهو ثلاثة آلاف قنطار مخزونة عندك الى اليوم لم تبغها ربصاً
لصعود الاسعار، ولم تبال بما يلحق القطن فى طول خزنه من نقص
الوزن وما يشهده من بقية الاخطار كالسرقة والحريق فاذا كنت
فضلت الانتظار لصعود الاسعار على هذه الحال فى ثلاثة آلاف قنطار
فما الذى يمنعك عن مثل هذا العمل فى ثلاثين الفأسن والكثيرات

دون كلفة ولا مشقة كالتى احتملها فى استخراج المحصول فانك لا تدفع
هنا من أرض ولا تنفق على حرث ولا تؤدى ضريبة ولا تبذل ماء
وجهاك لرى الاطيان ولا تحنى ظهرك لأصاغر الحكم وما دخلت فى
قضية ولا وقعت فى منازعة ولا تخوفت شيئا من الآفات سماوية
كانت أم أرضية بل هو ربح يأتيك عفواً صفواً ولا رأس مال له سوى
أربعة حروف أو خمسة تخطها يمينك فى التوقيع

(الغنى) - يجوز ان يكون فى قولك هذا بعض ما يتنعم ولكنى
لا أجد نفسى مطمئن يوماً الى ولوج هذا الباب

(السمسار) - أنا لا أكلفك أمراً عظيماً ولا أدعوك الى أدنى
خسارة وما عليك الا ان تجرب صدق نصيحتى فتشتري ألفين من
«الكوتونات» فتنتظر بها صعود الاسعار مع أقطانك المخزونة
وأنا أضمن لك الربح ما ذهبت آخذاً برأى . ولا تستمر فى هذا
الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين وخذل فى النشاط
والإقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين . واعلم أن الفرق فى سرعة
الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين
أشغال البورصة و «الكوتونات» كالفرق ما بين السفر على ظهور
الجمال والطيران على أجنحة البخار أو ما بين نسخ الكتب بالخط

ونسخها بالطبع ولكل زمان ما يقتضيه من العمل وبحكمه من السير .
وأنت المخير مع ذلك في ما ترضاه لنفسك

(الغني) - وكيف حال الاسعار اليوم

(السمسار) - كما كانت بالأمر وهي فرصة ثمينة للشراء

(الغني) - خذ لي اليوم خمسمائة قنطار للتجربة

قال عيسى بن هشام - وتركنا هذا المصفور قد وفع في يد الصائغ
المحتال . والتفتنا الى ذات الشمال . اجماع ما يدور من الجدال . بين
زجل فرغ كيدسه من المال . وامتلا رأسه من الآمال . وبين تباع
بحام من الاجاب . يثقل القضايا من كل جانب :

(التبوع) - لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام الحاكم
الاهلية وهي معروفة بنجبتها وخوفها من الحكم على الحكومة في
مثل هذه القضايا ولئن حكمت مرة فقلما تبادر الى التنفيذ أما
الحاكم المختلطة فانها لا تحسب لغير الحق حساباً وسواء لديها الحكومة
والاهلية والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس كما ان الحاكم
الاهلية لا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ولا تقدّر
لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها الى الآن فلما ندوحة لك عن
الحاكم المختلطة . ولكن أخبرني قبل كل شيء عن تلك الشجرة عمل

لها ذكرٌ في الحجة باسمها التاريخي المعلوم وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً إلى الواقع .

(صاحب القضية) - أما الشجرة فذكورة في حجة الوقفية أنها «شجرة العذراء» وهي قائمة على أرض سواد وأمانسي فهو متصل بأحد عتقاء الواقع السلطان النوري ولكن من لي بدخول القضية في المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة ومن لي بحمام أجنبي وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم في «مقدم الاتعاب» الجمالة (التبذير) - هون عليك الامر . أما رفع القضية إلى المحاكم المختلطة فانه سهل حين يكون التنازل عن القضية لأحد الاجانب . وأما المحامي الاجنبي فأنا أتكفل لك بانواع المحامي الذي أشتغل معه . ليقل القضية من غير أن يلتفت إلى «مقدم الاتعاب» وإنما يتفق معك على مناصفتك في . أتأتي به القضية من الاموال . وأما الاجنبي الذي تنازل له عن القضية فهو حاضر في مكتبتنا تحت يدنا لتسخيره في مثل هذه القضايا . وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية .

(صاحب القضية) - لا بأس بما تقول ولكن ليس عندي ما أستغني عنه اليوم لتلك النفقات . ولو كنت واثقاً ببعض الوثوق

بكسب القضية لبادرتُ الى بيع الحصة التي بقيت لي من العقار
لكنني أخشى ان تذهب الحصة وأخسر القضية فأصبح بلا
مال ولا أمل :

(التببيع) - لو كنت تعلم بمهارة مملعي وماله من علو الشأن في
الحاكم المختلطة ومن الاتصال بقناصل الدول لاستخرتُ الله في بيع
الحصة ورفع القضية

(صاحب القضية) - استخرتُ الله واعتمدتُ على هذا الرأي
(التببيع) - فقد أذنتني حينئذ بالكلام مع المعلم . ولك ان تحضر
غداً لعقد الشروط

(صاحب القضية) - أمهلني أياماً حتي اجد من يشتري الحصة
بالتمن المناسب

(التببيع) - أنت في سمة من الوقت لبيع الحصة انما يجب أن
تبادر باحضار الاوراق والمستندات من النة للاطلاع عليها ودرستها
(صاحب القضية) - يني وينك مساء الغد في هذا المكان

قال عيسى بن هشام - وتركنا أيضاً هذه السمكة . تنخبط في
الشبكة . ثم حولنا النظر الى العدة في لبة البليار فما راعنا منه
الا أن ضرب الكرة بصو لجانه ضربة أفقية فأطارها الي وجه أحد

الجالسين من الجانب فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً وقام هاجماً على
العمدة يريد به شراً وهو يُدْمِم ويضْمَم والعمدة يحْجِم ويغْمِم
وكاد يقع ما تسوء عقابه لولا أن أسرع التاجر خال بينهم ما وأخذ بيد
الاجنبى يستمطفه ويبالغ في الاعتذار إليه حتى لانت شكيمته بافتتاح
زجاجتين من « الشبانيا » لعمد الصالح على حساب العمدة. ثم عمد
العمدة الى الجلوس فلم يمهله الذى كان يلاعبه وطالب منه استكمال
اللعب فقام إليه مكرهاً وقلبه يرتجف ويده ترتعش فما هى الا
الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بضوئانه فأصاب غشاء البليار
فخرقه وشقه فذهب الخادم مسرعاً وعاد بصاحب « البار » ومن
ورائه بقية الخدم وهو يقول لهم بصوت عالٍ : كيف تسلمون عصا
البليار لهذا الفلاح الأخرق فيخرقه ويتلفه. ثم وقف للعمدة يطالبه
بشئ ما أ تلف وتعويض ما عطل وقد رده له بخمسة عشر جنهما لا يتجاوز
عن درهم واحد منها . فأخرج العمدة كيسه فأحصى ما فيه عدافاً
هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنهما فلم يقبل منه فتوسط إليه بعض
الحاضرين فقبلها متكرهاً وجلس العمدة متكديراً. ولقد كان اللعب
بالأفعوان . أقرب الى السلامة من هذا الصولجان . ثم استمر
جالساً ينتظر انتهاء التاجر من لعبه حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيه

ثلاثة جنهيات وقعد يجانبه يظهر التأسف والتندم فقال له العمدة
 دع عنك الاسف والكدر فالضائع ضائع ومصيبتك على كل حال
 أخف وقما من مصيبتى. وبيناهما على هذه الحال اذا بالخليع قد حضر
 من غيبته يقول لهما هاشأاً باشأاً وفرحاً مرحاً :

(الخليع) - أشرق أنسنا وسعدت ليتنا وطاب وقتنا
 وانقضت حاجتنا وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ويبعد عنا نهارنا فقد
 تم مرادنا وهلم بنا

(العمدة) - ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويذنى منا نهارنا.
 فافقد معنا نقصص عليك ما دهانا في غيابك

(الخليع) بعد سماع القصة - وبلى ثم وبلى فأنا المعلوم اذ
 تركتكما فوق لكما ما وقع ولكن قدر الله لكما ولطف بكما .
 أما مصيبتى الآن فى أعظم من مصيبتكما وأبلغ فاذا أقول
 وماذا أفعل وكيف أدفع وبأى عذر أعتذر وقد أخرجت البيضة
 من خذرها والظبية من كيناسها واستعدت المجلس لحضورنا وأنسنا
 (الناجر) - الامر أيسر مما تخشاه فإيفوتنا الليلة ندركه غداً

(الخليع) - ذاك شئ لا يدرك فى كل وقت وحين. وهذه
 المرة هي بيضة الديك لبيضة الحصدر وكيف يمكن فض هذا

المجلس وتأجيله وقد مضى قطع من الليل وتعددت سبل الرجوع؛
كيف الرجوع بها وحول قباها سمة الرماح يملن للإصغاء
نفاصاني ناشدتكما الله مما وقعت فيه واتقداني من هذا

البلاء العظيم

(التاجر) - وما وجه الخلوص وقد علمت بتفصيل الحال
(العمدة) - تالله ان الحرمان من هذا المجلس النادر لا عظم
مصائباً من كل ما نابنا ولو كان الوقت نهاراً لأسهرت الى
«البنك» فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم

(التاجر) - اذا كانت الرغبة انتهت بك الى هذا الحد فالأمر
يسير ومعى الآن ما يكفي وأنا أقوم لك مقام «البنك» . فيك
تطلب . ولائى ميعاد تكتب

(الخليع) - هكذا يكون الصديق . في وقت العسر والضيق
غياك الله وأبأك

(العمدة) للتاجر - أعطنى عشرين جنيهاً تكون معى على
سبيل الاحتياط

(التاجر) - ولك الفضل . هاك سبعة عشر جنيهاً تبلغ العشرين
المطلوبة بالثلاثة التى خسرتها هنا أمامك . وأتمس منك كتابة

ورقة على سبيل التقييد

قال عيسى بن هشام - فما كان أسرع من الخليع في استحضار
الدواة والقرطاس - لاجابة هذا الالتباس - فطلب العمدة منه. ان
يكتب الصك عنه . ثم خرجوا والعمدة يخرج أذيله . ويحك
قدالته ^(١) . وخرجنا خلفهم في الحال . نتبهم متابعة الظلال

﴿العمدة في المطعم﴾

قال عيسى بن هشام - ولما صرنا في الطريق أخذ الباشا
يطيل من فكرته . ويقهر من مشيته . ويقول ما هذا الذي أرى .
من فساد هذا الوري . كأن نافعاً تقمهم في خاية ^(٢) . جمعت أخلاط
الكبائر . أو غامساً غمهم في جاية ^(٣) . وعت أمشاج الجرائم ^(٤)
أو كلما خطونا خطوة رأينا من الفس والمكر صنوفاً وأضراباً . أو
حضرنا ندوة . شهدنا من الخداع والنفاق فصولاً وأبواباً . فما
أنس من معاشرهم . وما أنجس من يحمياً فيهم . وما أشقى من
يجاورهم . وما أسعد من يجافهم . وأغوثاه من الانسان . في

(١) القدال ما بين الاذنين من مؤخر الرأس (٢) الخاية الجرة الضيقة

(٣) الجاية الموض (٤) الامشاج الاخلاط والادساخ

هذا الزمان . فقلت له قَدْكَ ^(١) بل في كل زمان :
 « لَنْ تَسْتَقِيمَ أُمُورُ النَّاسِ فِي عَصْرِ وَلَا اسْتَقَامَتْ قَدْأَاهُمْ نَاوَذَارُ عِبَا
 وَلَا يَقُومُ عَلَى حَقِّ بَنُو زَمَنِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ كَانُوا فِي الْهَوَى شُعْبًا
 هَكَذَا كَانَ بَنُو آدَمَ . تَأَخَّرَ عَهْدُهُمْ أَوْ تَقَادَمَ . فَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ أَبَدًا .
 أَمْسَى وَالْيَوْمَ وَغَدًا . . وَمَا عَسَاكَ تَقُولُ فِي ذُرِّيَةِ الشَّيْخِ آدَمَ وَزَوْجِهِ
 حَوَّاءَ . وَقَدْ قَالَتْ مِنْ قَبْلُ فِيهِمْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ : « أَنْجَلُ فِيهِمَا مَنْ
 يُقْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ » وَمَا عَسَاكَ تَقُولُ فِي تَوْمَ تَرَى الصَّغِيرَ
 مِنْهُمْ قَبْلَ الْكَبِيرِ . وَالْمَوْلَى قَبْلَ الْإِمِيرِ . يَهْوَنُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْتَدِيَ مَا أَسَفُ
 مِنْ الدُّنْيَا وَمَسْفَلٍ مِنَ الْمَطَالِبِ . بِمَنْطَفَةِ الْبُرُوجِ وَمَجْرَّةِ الْكَوَاكِبِ .
 وَمَا عَسَاكَ تَصِفُ خَلْقًا أَفْضَلَ مَا فِي أَعْضَانِهِ . أَكْبَرُ سَبَبٍ لَشِقَاءِ
 الْخَلْقِ وَشِقَائِهِ :

أَفْضَلُ مَا فِي النَّفْسِ يَمْتَنَالُهَا فَتَسْتَعِيدُ اللَّهُ مِنْ جُنْدِهِ
 هَذِهِ الْمُضَنَّةُ الَّتِي بَغِيهِ . وَيُقَالُ لَهَا أَفْضَلُ مَا فِيهِ . لَوْ فُسِّجَتْ
 حَمِضَةٌ عَلَى قَدَرِهَا حُمَاءُ الْمُقَارِبِ ^(٢) - حَمَاكَ اللَّهُ - لُحِمَتْهَا . وَلُمَابُ
 الْإِفَاعَى - عَاثَكَ اللَّهُ - صَبِغَتْهَا . لَكُنْتُ فِي جَانِبِ هَذَا اللِّسَانِ أَخْفَ
 خُفْرًا . وَأَهْوَنَ شَرًّا . وَمَا عَسَاكَ تَنْعَتُ نَوْعًا نَعَتَ اللَّهُ وَاحِدًا

(١) قَدْكَ بمعنى كَفَاكَ (٢) الحمة الابرة التي تضرب بها العُزْبُ

منهم في آية من الآيات . بتسع صفات : « حَلَّافٌ مَهِينٌ هَمَّازٌ
مَشَّاءٌ بَنِيمٌ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٌ عَتْلِيٌّ » بعد ذلك زَيْنٌ ،
فَأَفْ لِمَضْرُوعِهِمْ نَهَارٌ وَجَنَدِيسٌ وَجِنْسِيٌّ رَجَالٌ مِنْهُمْ وَنِسَاءٌ
وَلَيْتٌ وَلِيدٌ مَاتَ سَاعَةً وَضَرِبَهُ وَلَمْ يَرْتَضَعْ مِنْ أُمِّهِ النَّفْسَاءُ
وما يدريك أن ما رأيتُه من أخلاق هذا النفر . أفضل من أخلاق
مَنْ فَلَاحُهُمْ مِنْ سَادَةِ الْبَشَرِ . ولعل ما أدركته من طمع الغنى ومكر
للسمسار وخداع النبيع . وما تبيته من غش التاجر وغفلة العمدة
واحتيال الخاليع . هو دون ما تكنه صدور الكبراء . وتجنه قلوب الامراء .
تحت حجاب النكف والتطبع . ويسترونه عن أعين الناس بستار التوقيه
والتمنع . وكلما اعتلى الانسان درجة في المقام . وخطأ فيها خطوة الى
الامام . تقنع لها بقناع وتلثم بلثام . فتجد حقائق الخلائق مرموسة
تحت صفائح الدهاء . مضروحة بين جنادل الرياء . بل ربما كان أخلام
أخلاقا حسنا . أيلتهم في التظاهر بها زورا وبهتانا . كان لي صاحب
تراه من لسانه غصن نفرا رقبالا . يحمي عربنا ويحرس أشبالا . تقيه
القياصرة . ونحشاه الأكامرة . فاذا كشفت عن قلبه . وحسرت
عن لبه . وجدته شاة تعطف على سخلها ^(١) . وظنرا تحنو على طفلها .

(١) السخل جمع سخله ولد الشاة

وأعرف آخر قد ضجعت أحرف الفضيلة من وخزها بقلبه . ولو كبر
 في فيه . وهو مع ذلك يخمش وجهه ويُدعي جفونه . إن سمع أن
 مختلساً اختلس دائقاً دونه . وفيهم من يملك من وجهه التغير
 بالأفعالات المتناقضة . والتلون بالألوان المتعارضة . فتكون دموعه
 طوع إرادته . وابتهاماته عند حاجته . قال حكيم لا خرم أكثر
 ما تحول رُفعة الشطنج وتقلب . قال له تقلب وجه الانسان
 أعجب وأغرب . وقد تبقى الاخلاق الذميمة . والصفات اللثيمة .
 مطوية عن النظر . محجوبة عن البصر . حتى يتاح لها كشف
 من الحوادث فينزع عنها القدام^(١) . ويحسر اللثام . فيظهر الطبع
 للسقيم . ويبدو الخلق الذميم . ومن عوامل التبيين والبيان . في
 أخلاق الانسان . الغضب والجبن . او السكر والحزن . ونحن
 الآن في ساحة السكر فلم بنا . نلحق بأصحابنا . فأدركناهم وهم
 وقوف يتشاورون . وسمناهم وهم يتحاورون :

(العمدة) - دعوني من هذا كله فقد صاحت عصافير

بطني ولم يدخل جوفي اليوم شيء من الطعام سوى لقمة الصباح
 التي اكلتها . مستعجلاً فهبنا الى السكة الجديدة نمط على

«المطفي» فان طعامه دسم وسمنه زبدة ولحمه سمين
(التاجر) - ما هذا «المطفي» الذي تذكره وأين انت من
كتاب «الحاتى» وحمام «لوكة» أو طواجين «الفار» وأرز
«المعجى»

(الخليع) - ما هذا الخلط ونحن فى وسط الازبكية بين
«النيوبار» و«سان جنس بار» و«اسبند بار» وفيها ماتشعى
الأنفس وتلد الأعين وناهيك بهذه الاماكن ونظافتها وحسن
خدمتها وعلو قدر الواردين عليها

(العمدة) - دعنا من هذه الاماكن فان طعامها لا يسمن
ولا يفتى من جوع خصوصاً وأنا على هذا الخلط من بطنى
(الخليع) - وأنا لا يمكننى على كل حال ان اترك هذه
الاماكن واذهب معكم الى الحوانيت التى تشير ان بها وأخشى
ان يراني بها أحد ممن يعرفنى فأصغر فى عينه

(التاجر) - إذا كان الامر كذلك فأنا على رأيك

(الخليع) للعمدة - لا مناص لك حينئذ فضعيفان يفلبان
قويًا : فادخل بنا «النيوبار»

قال عيسى بن هشام - فدخلوا ودخلنا معهم وجلسوا وجلسنا

على مقربة منهم وما خلع الخليع طربوشه حتى انزع للعمدة عمامته
وما ضرب الخليع بيده على المائدة حتى صفق العمدة يديه . فحضر
الخادم ومعه قائمة الالوان فتناولها العمدة ونظر فيها - نظر
المريض الى وجوه المؤد - ثم تناولها للخليع ليقرأها فأخذها وتأمل
فيها وشرع يسرد الالوان حتى انتهى منها والعمدة لاه عنه والتاجر
منصت اليه

(الخليع) للعمدة - ما ذا تحب وتختار
(العمدة) - أختار المرق ومن يمدح لحم الفرن او «الكبما»
(التاجر) - وانا أطلب كبابا وقرعاً وأرزاً
(الخليع) - وأنا أختار «فاتحة الطعام» أولاً ثم خلاصة
الحم بالبيض وأرزاً بفاكهة البحر ودجاجة بعش الغراب وسماناً
بالكماة وهليونا بالزبدة

(العمدة) - ما هذه الاسماء الغريبة
(الخليع) - هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم
غيرها

(التاجر) - «كل ما يعجبك وأبسن ما يعجب الناس»
قال عيسى بن هشام - فيذهب الخادم ويحيي للخليع بفاتحة الطعام

من زيتونٍ وجُلٍ وضمكٍ ملحٍ وزبدة . فيتأمل العمدة فيها ثم يميل
على قطعة الزبدة فيبتلعها وهو يقول . أزيدة وسمك . فيطلب الخليج
سواها ثم يأتي الخادم بصحن المرق للعمدة فيجده قد أكل ما كان
وضعه أمامه من الخبز وقَطَفَ على خبز الخليج يأكل منه فيأتيه
الخادم بنصيب آخر فيتناوله العمدة ويفتته في صحن المرق حتى يمتلئ
ويفيض على المائدة . ثم إنه انحنى فأنحنى عليه وصَفَقَ يطلب صحناً
آخر وخبزاً آخر وهو يميل في هذه الاثناء على طعام الخليج فيأخذ
قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين
فتفتت منه إلى الأرض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد ثم يأخذ جزءاً
من عيش الغراب فيقضم منه فلا يألفه فيهجه ثم يرده إلى صحن
الخليج ثانية ويقول : ما هذه القشور التي يطبخونها هنا وهي عندنا
شائعة على الجسور يفحص عنها الخنازير في الأرض بأرجلها فتستخرجها
ولا تأكلها فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسه الإنسان ولا حيوان .
ثم يأتي الخادم بالمرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفي لامتلاء
الصحن فيعاود الطالب فيميل الخادم ويقول له . انما أنت هنا يا سيدي
في مطعم لا في خبز

(الخليج) للخادم - ما هذا الكلام البارد يا «جورج» أليس

لكل شيء ثمن هنا ونحن نأكل بدراهمنا ما نشتهي ونطلب ما نريد
(الخادم) للخليع - لا مؤاخذه فان كلامي ليس موجهاً اليك
(الخليع) - إن لم يكن الكلام لي فهو لصاحبي وصاحبي
هذا أعز علي من نفسي

(العمدة) - دعه يأتِ انا نجيز ولو بالثمن ولا تشغل نفسك
بما يقول مع أنه يقال ان هذه المطاعم العالية تبذل الخبز
للاكلين مجاناً

(التاجر) للخادم - أعطني أيضاً لونا من الخضر
(العمدة) للخليع - قل للخادم يحضر لي مع لحم الفسرن
فحل بصل

(الخليع) - كل شيء يجوز الا أكل البصل في هذه الليلة
(العمدة) - لا مؤاخذه فان النفس الملعونة ذهبت اليه من
غير تروء

(التاجر) للخادم - إئت لي بشيء من الحلوى أو الفاكهة
(العمدة) - اذا كان في الفاكهة برتقان أو بلج فأعطني منه
(الخليع) - ولا تنس يا «جورج» ان يكون في نصيبي من
«الفاكهة» «مانجو» و «قشطة خضرا» وموز و «أناناس»

(العمدة) للخليع مما زحاً - ومن قال انك لست من الناس

(الخليع) للخدام - هات زجاجة بيضاء أخرى بفبارها

قال عيسى بن هشام - ولما حضر الخادم بالقاهرة وانصرف

أسرع العمدة يده إليها فالتقى من كل فاكهة زوجين ودسها في جيبه

وهو يقول : هذه تنفعنا للتنقل بها على الشراب فيما بعد ثم حضر

الخدام بآنية من البلور الملوّن فيها ماء وقشر ليمون فوضع أمام كل

واحد منهم إناء فهم العمدة بشرب إناءه في الحال فبادر الخليع

ونزعه يده عن فمه

(العمدة) - لماذا تمنعني عن شرب هذا « الخشاف » وقد

أنعشتني منه رائحة الزهر

(الخليع) - هذا يأسيدى ما لنفس أطراف الأصابع بعد الأكل

(التاجر) - من عاش رأى

(العمدة) للخدام - الحساب يا « خواجنا »

(التاجر) - القهوة

(الخليع) - الخلال مع كأس من « الكونياك » بجانب القهوة.

ويأتي الخدام بجمع هذا فيتناول العمدة ريش الخلال فيتخلل بريشة

ثم يعيدها الى مكانها ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه ثم يسمح ما

طلق بها في غطاء المائدة ثم يلتفت الى الخليع ويطلب منه أن
يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكيفية
(الخليع) - أربعون فرنكاً

(العمدة) - اقرأ جيداً فإن هذا غلط فاحش

(الخليع) - قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا ينامون هنا

(العمدة) - ماهـا النـهب والسلب وما هذا الاسراف والتبذير

لو كنا ذهبنا الى مكان من الاماكن التي عددناها قبل دخولنا هنا

لكنا ملأنا البطرون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل . ولو

كنا توجهنا الى المحل الذي آيت فيه لكنا وجدنا من الأكل

ما يكفيننا بغير ثمن لأن في غرفتي برمة أرز بـيـام مما أحضرته معي

من البلد . ولا أشك في أن الخادم يريد أن يستغلنا فزاد في

الحساب ما أراد وانا رجل لا أقبل النغلة على نفسي ولا أدفع هذا

الحساب . وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة فانه يهون على

ان أبدد عشرة جنيهات في الهباء ولا يهون على ان أدفع قرشاً

واحداً بطريق الغش والاختلاس .

ثم إنه رفع قدح النبيذ وهو في حذنه فصك به قدحاً آخر

ممتلئاً لاستدعاء الخادم فاقبل الكأس وأهرق النبيذ على غطاء المائدة

خضر الخادم فمزّ عليه ما رأى

(الخادم) - ما هذه الليلة السوداء

(العمدة) - هذا ما أقوله أنا أيضاً فقل لي ما هذا الغلط في

الحساب وهل تريدون ان لا يدخل محلتكم بعد اليوم أحد

(الخليع) - هل في الحساب غلط يا « جورج »

(الخادم) - وأيّ غلط يكون في الحساب بعد الذي حصل

وهذا هو بيان الثمن أمام كل صنف

(العمدة) - أيّ حساب وأيّ بيان ولكذك أنت

الكاتب له

(الخادم) - نعم أنا الكاتب له ولكذك أنت الآكل له

(العمدة) - وهل أكلنا أربعين صنفاً حتى ندفع

أربعين فرنكاً

(الخادم) للخليع - أرجوك ان تقنعه

(العمدة) - وهل أنا جاهل حتى يقنعي

(الخليع) وهو قائم - حاشا لله ياسيدي

(التاجر) للخليع - الى أين

(الخليع) - أراهم وضعوا في لوح التلغرافات السياسية

تخلفاً جديداً أريد أن أقرأه

(الخادم) للعمدة - أعطنى الحساب ولأنى طلنى عن الشغل

(العمدة) - هاك عشرين فرنكاً لأدفع سواها

(الخادم) - ليس هنا عمل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكله

(التاجر) - زِدْهُ فرنكين

(الخادم) - لقد كان الأوْلى بكم أن تأكلوا فى غير هذا

المكان مادمتم هذه الصفة

(التاجر) - لانتعط يا «خواجه» فإن حضرته يأكل فى مثل

هذا المكان وفى أعظم منه ولكنه يجب الأمانة ويكره الاستغفال

(الخادم) - وهل أنا خائن . وأنا صاحب شرف مثلك ومثل

أعظم منك

(التاجر) للعمدة - حقيقة إنه لقليل الحياء

(العمدة) - وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير

هذا المبلغ

(صاحب المحل) وقد حضر مع الخليع - ماذا جرى

(العمدة) - خادمك يهرقنا ويشتمنا

(صاحب المحل) - هذا كلام لا يقال عن محنا

(التاجر) - وذلك كلام لا يقال لنا

(صاحب المحل) للخليع - عهدى بك لاتصاحب الاالكبراء
والظرفاء فاهذا الشيخ الذى جئنا به هذه الليلة وقد شاهدته من
مكانى يفعل أفاعيل انتم قد ها جميع الحاضرين . فانه كان يباع الزبدة .
ويطوى الخبز . ويمد يده الى صحن سواء . ويميد اليه فضلة
ما يأكله . ويتناول قطعة الدجاجة من الارض فيلتمها . ويلوث
للمائدة بالمرق والنبيد . ويمسح يده فى العطاء . ويكسر الكأس .
ويختلس الفاكة فيضعها فى جيبه . وبهم بثرب ماء الغسل .
وينكش أذنه بريشة الخلال . ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ
يفازل السيدات ويغاوزهن فقمعن مستبجات مستنكرات وقام
كثير من المترددين على المحل اشتموا زامن هذه الافاعيل . ولا أشك
فى أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يتمعد الناس
ويتعطل المحل

(الخليم) - لاتأقبة بلقب شيخ فان سعادته من الحائزين
لرتبة الثانية وله سعى فى رتبة التمايزولا تستصغر قدره فهم ومن
كمال الاغنياء فى الارياف

(صاحب المحل) للعمدة - لاتؤاخذ الخادم ياسعادة البك

فهو على كل حال خادمك والمحل محلك

(العمدة) للخادم - يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل . ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه لَمَا زدتُ عن العشرين فرنكاً ولكني أعطى الآن ما يطلبه مراعاة لخاطر من طيب خاطر وحسن رضا

(صاحب المحل) للخادم - أسألُ حضراتهم ماذا يشربون على حساب المحل لتأكيد المعرفة والمساحة فيما حصل

قال عيسى بن هشام - ثم مال الخليل على العمدة يشير عليه بأن يطلب دورين من الشرب لا كرام صاحب المحل في مقابلة اكرامهم . فطلب العمدة ثم طالب . وشرب ثم شرب . وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنى . ويتشاءب ويتمطى . ويشكو للخليل فعل الكاس . وهجوم النعاس . فيقول له هذه عادة تكون عند الامتلاء . ولا يصرفها الا كثر وس الصهباء . فهياً بنا الآن . نذهب الى الحان . تخرجوا وخرجنا من ورائهم . نستقصى بقية أنباتهم



﴿ العمدة في الحان ﴾

قال عيسى بن هشام - وأخذوا طريقهم الى الحان المقصود.

والخوض المورود . وفيما نحن نسير . بين تقدير وتفكير . اذ التفت
 الباشا الى ذلك الفندق الكبير . بل الخورنق والسدير^(١) . فرأى
 فيه شمس الكهرباء مشرقة . وينايع الضياء متدفقة . يلوح فيها
 زنجي الليل بقميص أبيض . ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفصص .
 وعمد الصابيح كأنها أفصان الاشجار . أزهرت بالأنوار . مكان
 الأنوار . فصار كل عمود منها عمود فجر . يفجر نغمة الدجاجة أي
 فجر . وكأن منشور الشموع في ظلمة الحلك . منشور النجوم في
 قبة الفلك . ورأى تحتها صفوفاً من الرجال . بين صفوف من ذوات
 الحجال . على سرر متتالين . وأرائك متكئين . يسددهم الجسد
 المقيم . ويرفرف عليهم الرفقة والنعيم . فطفق يسألني : أترأى محفلاً
 ليوم أنس . أم زفافاً في بيت عرس . أم تراها ليلة مهرجان .
 لقبيل من الجان . نسوا تفاوت الجنس . فأنسوا الى الانس وهجروا
 جوف الأرض لظهرها . ودرجوا من بطنها الى حجرها . - فقلت
 له نعم هؤلاء شياطين الانس يطوون البر والبحر . ويقطعون الحزن
 والوعر . ويطيرون في السماء . ويمشون على الماء . ويخرقون الجبال .
 وينسفون القلال . ويقلبون الآكام وهادا . ويسطون الربى سهادا .

ويعملون للقفار بحارا. ويحيلون البحار بخارا. ويسمعون من بالشرقين
أصوات من بالمرين. ويستنزلون لبصرك أنأى الكواكب.
ويمظّمون في عينك أوهى العناكب. ويمجدون الهواء. ويذيون
الحصباء. ويستحدثون الأنواء. ويَزْنُون الضياء. ويستشفون
خبايا الاحشاء. ويكشفون خفايا الأعضاء. — فقال لى أُنْكَ
لْتُحَدِّثَ عن جن سليمان فى هذا الزمان. — قلت له هؤلاء سيّاح
للغربيين أهل المدينة والحضارة. الناظرون الى الشرقيين بمنى المهانة
والحقارة. فان نظروا اليهم من جهة العزة: فنظرة العقاب من
شماريخ رَضَوَى وثبير^(١). الى جنادب الرمل وضافدع الغدير^(٢). —
وان نظروا اليهم من طريق العلم: فنظرة معلّم الاسكندر عالم العلماء.
الى صبي يتهمجى فى العين راليا. — وان نظروا اليهم من باب الصناعة:
فنظرة «فيدياس» صانع التماثيل والدُمى^(٣). الى بناء يقيم أكواخ
للقرى. — وان نظروا اليهم من جهة الغنى: فنظرة صاحب المفاتيح
التي تنوء بالعُصبة. الى أجير يَضَع عرقا تحت القرية. — وان
نظروا اليهم من جهة الفضائل النفسانية: فنظرة الحكيم «سقراط»

(١) الشماريخ جمع شراخ وهو رأس الجبل. ورضوى وثبير جبلان معروفان

(٢) الجنادب جمع جندب وهو الصنبر من الجراد (٣) الذي جمع دمية وهو

الصورة المنقشة من الرخام او العاج

شارب السم غراماً بالفضيلة . الى الشرير وأرسطراط^(١) . حارق
المعبد ولكم بالردية . - تلك دعواهم في نفوسهم . وقرهم بأفواههم
والفعل يشهد^(٢) بيننا أنهم نهاب الافاق . وسلاب الارزاق . وقطاع
الدهناء^(٣) . وقتاك الدهماء^(٤) وقراصين الدأماء^(٥) . وسفأك الدهماء
او تلك هم الذين يخادعوننا بزبرجهم^(٦) . ويبيروننا ببيهرجهم
واو تلك هم الذين نطق الكتاب في أمثالهم بقوله : « سَحَرُوا
أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ »

وهم في رحلتهم الى الشرق على ضريين : أهل الفراغ والجدة .
الذين أبطروهم الغنى وألهاهم الاستمتاع يبدع المدنية ولم يبق في أعينهم
جديداً فانتقلت منهم الطبيعة في خروجهم عن سننها فسلطت عليهم
داء الملل والسأم فأصبحوا هائنين على وجوههم في الاقطار والبلدان
وحطتهم القدرة الى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل في البلاد المنحطة
عنهم في درجات المدنية والاقامة في الافطار الباقية دونهم على الفطرة
الغريزية . والضرب الثاني منهم . أرباب العلم والسياسة وأهل
الاستعمار والاستنفاض^(٧) يستعملون علومهم ويعملون افكارهم في

(١) الدهناء الفلاة (٢) الدهماء جماعة الناس (٣) الدأماء البحر (٤) الزبرج
الزينة (٥) استغض المكان نظر جميع ما فيه حتى يعرفه واهل الاستنفاض الذين يستوفون
في الارض يتجسسون

احتلال البلدان وامتلاك البقاع وسراقة الناس في موارد أرواقهم
ومزاحمة الخلق في أرضهم وديارهم فهم طلائع الخراب أدهي على الناس
في السلم من طلائع الجيوش في الحرب

قال عيسى بن هشام - وانقطع الحديث بدخول اصحابنا في الحان.
واصطفاهم حول الدنان . فأخذنا مجلسنا بقرتهم . ننظر ما يصنع بهم .
واذا الخليع يتلفت عن اليمين والشمال . ويبادر الخادم بالسؤال :
(الخليع) للخادم - ألم يشرف دولة البرنس هنا في هذه الليلة
(الخادم) - هو في داخل المكان وسيعود الى مجلسه في الحال
(المدة) مدهوشا - هل يحس هذا البرنسات وهل يليق بنا
ان نجلس للشرب في مكان يحضروننا فيه . فلم اخترت هذا المحل
ولم لاندب الى محل سواه

(الخليع) - لا بأس علينا هنا - واسترى كيف أفعل حتى
لا تخرج من هنا الا والبرنس مصافك ومجالسك
(المدة) - لا تنهزأ بي ولا تمزح فأين نحن من البرنسات
(التاجر) للعمدة - لا تستبعد ذلك ان لبعض البرنسات
أخلاقا واسعة ونفوسا تريية ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوي
بينهم في مجتمعاتهم ومعاملاتهم

(العمدة) للخليع - وهل لك معرفة سابقة به .

(الخليع) - كيف لا أعرفه ولى معه جلسة فى كل ليلة
وكثيراً ما أوصأته آخر الليل الى قصره

(العمدة) - انك لتبالغ

(الخليع) - لا مبالغة ودونك البرهان

قال عيسى بن هشام - ويقوم الخليع وافقاً عند عودة البرنس الى
مجلسه فيومئذ البرنس اليه بالسلام فيتبعه الى مائدة عايتها صنوف
والوان من الخمر والنقل فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله ويخاطبه
بصوت يسمعه العمدة من مكانه :

(الخليع) - لا زال افندينا فى أسعد حال وأنتم بال

(البرنس) - وأين أنت فقد سألت هناك مراراً

(الخليع) - أنا فى الخدمة نحت أمر أفندينا وعند طلبه وما

منعنى عن المبادرة الى مجلسكم المالى الا اصطحابى بصاحبين أحدهما
من عمد الارياف والاخر من تجار الثغور لصقائى للبقاء معهما
والنحاح على أن أصبحهما

(أحد الجلساء) - بمازحاً - لا بل تسحبهما

(البرنس) - منكتك - وهل هنا ذرية يا بك

(جميع الجلساء) ضاحكين - لله درّ أفندينا في هذه النكتة
فما أطفها وأرقها

(البرنس) - أنا لم أتعلم التنكيت ولكن يصادفني منه
بعض كلمات في بعض الاوقات

(أحد الجلساء) لا آخر - انظر بالله يا أخى حدة البرنس في
لطافته وشدته في رفته وقوة إدماجه في ألفاظه

(الجليس) - وأنت ما شاء الله ما أفصحك اليلة في
تعبيرك وما أبلغك في كلامك أأنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد

(البرنس) للخليع - ماذا تشرب

(الخليع) - المقوى يا موى فلا بد من الرجوع الى صاحبي
أولاً حتى أنخلص منهما

(البرنس) - وهل هما من الاغنياء المعتبرين

(الخليع) - أما العمدة فانه يمتلك ألف فدان ، وللتاجر في
بلده أعظم خان . وللاعمدة عشرة وابورات للري وعنده الرتبة
الثانية . وللتاجر وابور للخليع وعنده وعدٌ بالثالثة

(البرنس) - لا تحرمنا من وجودك ولا بأس من استدعائهما

للجلوس معنا

(أحد الجلوساء) - لا آخر - قم بنا نفسح لهما
 (المجلس) - انتظر قليلاً حتى يأتي « الدور » المطلوب مع
 صحن بلح للبحر الذي أوصى عليه البرنس آنفاً
 قال عيسى بن هشام - وينصرف الخليفة المصاحبي لاحتضارهما
 فيمنض له العمدة واقفاً لتبجيله وتمظيمه فيسقط من يده
 « ثم السجاره » على الرخام فينكسر فينحني الى الارض يجمع
 شظاياها ويظهر عليه من الاسف والكدر ما لا يقدر فيجره
 الخليفة اليه ويقول له :

(الخليفة) - لا يليق بنا ان نكون على هذه الحال من
 الاسف لأجل هذا « الفم » فان البرنس ينظر إلينا وقد جئت
 لك بدعوة منه للجلوس معه

(العمدة) - ليس أسنى على « الفم » في ذاته بل لانه تذكّار
 عندي من حضرة أمّور المركز كنت أهديته فرساً فأهداني إياه
 فهو ثمين عندي من هذه الجهة . ولكن قل لي كيف يدعوني دولة
 البرنس اليه وكيف ذكرتني له

(التاجر) - أي نعم قل لنا كيف كان ذلك وهل جرى لي
 ذكر عنده أيضاً

(الخليع) - قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت ويقال في المثل أرسل حكيمًا ولا توصه

(العمدة) - أحب أن اسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأنى فاني رأيتُه يضحك كثيرًا وأنت تكلمه

(الخليع) - أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيالك معه حتى حرمتُه من أجره

(التاجر) - وعلى ذكر السمسار هل تعلم ان دولة البرنس باع قطنه في هذا العام

قال عيسى بن هشام - فكان جواب الخليع أن أخذ بيده العمدة وتبهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس فطأطأ العمدة الى ركة دولته فدفعه بيده فاستلمها العمدة وقبلها مرارًا بطنًا وظهرًا فتبسم له البرنس وأشار اليه بالجلوس فامتنع واستمر واقفاً ويداه الى صدره حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح

(البرنس) - لأحد جلسائه - لا تنسَ ان تذكرني غداً بتصوير الفرس « سيرين » فان « الدوك أف بروك » أرسل الى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها في معرض

السباق بلوندره

(الجليس) - الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار في
اليوم الذي عينه أفندينا له للغداء مع مفتش الري
(البرنس) للعمدة - ماذا تشرب يا حضرة الشيخ ...
يا باك

(العمدة) وانفأ على قدم للتاجر - ألتس السماح يا مولاي
فاني لا أشرب شيئاً
(التاجر) متملاً من الألم - المفوي أفندينا أمتنفر الله
فان ذلك لا يليق في حضوركم

(البرنس) - لماذا جئتما هنا إن لم تشريا
(الخليع) - يشربان حسب أمر دولتكم فالامثال فوق الادب
قال عيسى بن هشام - ويتناول الخليع « علة السجارات »
من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدة والتاجر واحدة فيتجاشى
العمدة إشعالها في حضرة البرنس ظاهرآ - وغرضه الباطن إبقاؤها
لديه أثرآ من البرنس يفتخر به عند أقرانه - ثم يأتي أحد باعة
الزهور فيهمس في أذن البرنس بكلام يفهمه له ويأمر الخادم أن
يعطيه كأساً فيشربه وينصرف . ثم ياتمس الخليع من البرنس أن

يسمح للعمدة بطلب زجاجة من «الشهبانيا» فيسمح له ويلتفت الى العمدة مخاطبة بقوله :

(البرنس) للعمدة - كيف حال المحصول عندكم . ولم رمى الفدان من القطن

(العمدة) - رمى الفدان عندي سبعة بأنفاس دولتكم (التاجر) - المحصول جيد ولكن الائمان في هبوط . وهل باع دولة أفندينا أقطانه أم هي باقية (البرنس) لا أحد جاساته - أنا لا أدفع في ثمن الخنجر الذي رأيناه اليوم أكثر من عشرين جنيهاً . ولو كان عليه تاريخ صنعه لدفعت ما يطلبه صاحبك فيه .

(الجليس) - لا بأس به الى الثلاثين

(البرنس) - ما الذي تراه في مسابقة الخيل غداً

(الجليس) - أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك

قال عيسى بن هشام - ولما جاءت الزجاجاة المطلوبة بإدر للعمدة الى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فسح واحدة منه وقدمها الى البرنس ووزع البقية على الحاضرين . فيجد أحدهم صوقاً منلبداً في الموز فيعافه ويتركه على المائدة

(أحد الجلساء) للعمدة - هل هذا الموز من زراعتكم وهل
تتضعونه في الصوف عندكم

(العمدة) - كلاً يا سيدي بل هو موز «النيوبار» ولم
يمكث في جيبى غير مسافة الطريق ومعنى أيضاً برتقال أحمر وبلح
أصفر وقشطة خضرا

(أحد الجلساء) - أظن أن لكم شركة مع حسن بك عيد
في تجارة الفاكمة

(التاجر) - حضرته لا يشتغل بالتجارة وليس كل الناس من
يقدم عليها فرى ربح مخوف بالخطر

(العمدة) للخدام - أحضر لنا أيضاً جاجة شمبانيا انكليزى .

(أحد الجلساء) لا آخر - يظهر أن الفدان رَمَى بعشرة

(الجليس) - في البنك العقارى

(البرنس) - وما معنى الكايزى

(الجليس) - يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام - وفي هذه الاثناء يعود بائع الزهور
فيلقى في أذن البرنس كلاماً فيقوم البرنس في الحال ويخرج والبائع
في أثره ثم يتناول الجلساء من بعده واحداً واحداً فلا يبقى منهم

أحد . وتخلو المائدة للعمدة فيشرب سُورَ الكاس التي تركها البرنس
وعمل على ما بقي في آنية النقل فيأتي عليه أكلًا

(التاجر) للعمدة - ينبغي ان تطلب من الخادم غيرها قبل

حضور دوله البرنس

(العمدة) - انا لا اطلب شيئاً الا في حضور دولته

(الخليع) - أظن أن دولته لا يعود في هذه الليلة . وهذه

عادته اذا هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته

(العمدة) - ولكنني لم أره دفع شيئاً من الحساب

(التاجر) - لعل له هنا حساباً جارياً

(الخليع) - نسأل الخادم

(العمدة) للخادم - ألم يدفع دوله البرنس شيئاً

(الخادم) لم يدفع شيئاً قبل خروجه

(الخليع) - وكم الحساب

(الخادم) - مائة وواحد وعشرون فرنكاً

(العمدة) - انا لا أصدق ان أفندينا يخرج من غير أن

يدفع ما عليه من الحساب . ومع ذلك فلانتظر عودته

(الخادم) - اذا قام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود

وإن أردتَ أن لا تدفع ثمن ما شربه البرنس فأنا أقيد
في حبابه

(العمدة) - وأنا إذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع الا ثمن ما

شربه دولة البرنس وحده

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء اللديريات فيهمض
العمدة لمقابلته ويلج عليه في الجلوس معه ثم يلتفت الى الخادم
بصوت عال :

(العمدة) - على بتفصيل الحساب ويين لي فيه ما شربه

دولة البرنس .. وما أكلت دولة البرنس .. وبكم شرب أصحاب
البرنس .. ولم شربنا مع البرنس .. ولم شرب قبلنا البرنس ..
واسأل سعادة البك الوكيل ما ذا يشرب وعذلاً دفع لك كل
الثن المطلوب

(الوكيل) - انا لا اشرب شيئاً

(العمدة) - كيف لا تتفضل علينا بالشرب معنا كما تتفضل

دولة البرنس ارضاءً لخطارنا

(الوكيل) - لا بأس أن اشرب كأساً واحداً من « الكونياك »

(العمدة) - لا والله لا نشرب الا « شمبانيا » كما شربه

«ممنادولة البرنس

(الخليع) للعمدة - لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك
(العمدة) - سعادته وكيل مديرتنا . وحضرته (مشيراً الى
التاجر) من أكابر التجار . وحضرته (مشيراً الى الخليع) من
خلفاء مصر .

(الخليع) للوكيل - تشرفنا بهذه المعرفة وكيف حال سعادة
المدير فهو من أعز أصحابي وطالما قضيتا معه أوقات أنس وسرور
(العمدة) للوكيل - أظن أن سعادتكم حضرتم الى مصر
في عقب كشف الرتب المقدم الى الداخلية
(الوكيل) - نعم كنت اليوم في الداخلية وسيتهى الأمر ان
شاء الله على ما نحب .

(العمدة) للخادم - زجاجة شمبانيا أخرى
(الوكيل) - يكفي فاني أريد ان انتقل برهة الى داخل
المكان في مجلس اخواننا القضاة ووكلاء النيابة
(الخليع) - لا لزوم لانتقال سعادتكم فانا ادهوم للجلوس
معنا وفيهم فلان وفلان من أعز أصدقائي
(الوكيل) - لا تكلف خاطرك بذلك فان الأليق أن أذهب

الجالوس معهم

(العمدة) لاو كيل - اذا كان الامر كذلك فكلنا نقوم مع
سمادنتكم ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك
(الوكيل) - ان أردت ذلك فلا بأس

قال عيسى بن هشام - فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك
المجلس ويحضّر الخادم بزجاجة الشمبانيا فيرجعون للعمدة الشرب
منها فيمتنعون فيشدّد فيمتنعون فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلثم
سكرًا إلا شربوا معه ثم يتناول الكأس ويقوم متسانداً على الخليع
ليشرب معهم فما يكاد يضع الكأس في فيه حتى تأخذه غصة فلا
يمالك نفسه عن رد الفعل فتلوّث ثيابه ويبادر الخليع مع الخادم الى
محبته داخل المكان ليصاح ما فسد من أمره

ثم لبثنا مدة . ننتظر العمدة . ونترقب له الرجعة والعودة .
حتى أقبل يتهادى في مشية . بمسد أن أفاق من غشيبته . وعمد
الى الخروج والخليع عن يمينه يناديه . والتاجر عن شماله
يرائيهِ ويداجيه

﴿ العمدۃ فی المرقص ﴾

قال عيسى بن هشام - ولما خرجوا من ذلك المحل . ونحن
أتبع لهم من الظل . سمعنا العمدۃ يشكو للخليفة في طريقه . ما يجده
من انقباض الصدر وضيقه . ويسأله التفريج ليكر به . والترويح
عن قلبه . ويذكره بما كان من الوعود . ويطلبه بزيارة ذلك
المجلس المعدود . ويقول له : تالله لقد أنصبتنا وأجهدتنا . فلم بنا الآن
الى ما وعدتنا . لنر بأعنا الهم بربنا الخلدور . ونكشف عنا الغم
بكاسفات البدور . ونجلو أعيننا بنجل العيون . ونعش أنفسنا
بناعسات الجفون . ونستصبح ليلتنا بالوجوه الصباح . قبل أن
يصبحنا جيش الصباح . فيقطع عليه الخليفة كلامه . ويدفع عن
نفسه . لانه . بأن طول الانتظار . يذهب بحسن الاصطبار .
ولا صبر لذوات الدلال . على خلف الوعود من الرجال . وقد
جاءني رسولها في غفوتك برسالة . تشكو فيها ما لحقها من السامة
والملا . وتنجي على بالعتاب المر . وأن ما فعلته معها ليس بفعل
الحر . إذ اخترقت من أجلنا ما اخترقته من السجوف والكال^(١)
وتحلمات في محيطها ما تحملته من الخوف والوجل . حذر الوشاة

(١) السجوف جمع صجف وهو الستر والكال جمع كلة وهي ستر رقيق

والرقباء . وخشية الأهل والقرباء . ثم إنها أقامت طويلاً في انتظار
اللقاء . وهي على مثل حر الرمضاء . فاذا الوعد بلا وفاء . واذا الدين
بلا قضاء . وكأنما كانت تنتظر غائباً لا يؤوب . وتستمطر مسحاباً
لا يسح ولا يصوب . فذهبت بحسرتها . وهضت لطيفتها^(١) . وفاننا
ما كنا نبتغيه . وأياسنا ما كنا نرجيه . وتلك فرصة أضاعناها . لئزغة
شيطانٍ أطعناها . فيقول التاجر : إذا ما الذي اكتسبناه . بعد
الذي احتسبناه . وماذا أفدناه . بعد الذي فقدناه . وأين منا ما نجمع
به شماننا . ونبدد به ليلنا . فيقول له الخليع : لم يبق أمامنا في هذه
الساعة . سوى ملاعب الرقص والخلاعة . عسانا نجد فيها بديلاً .
مما لم نجد اليه سبيلاً . فيخرج العمدة دراهمه فيعدها . ثم يحسب شخص
بها ويردها . فيقول له التاجر : لانهتم . فدرهم الأُنس ميسر . ويقول
للخليع : تقدّم . فما من شيء عليك ميسر . فيعطف بهما الخليع
من غير إبطاء . الى حان للرقص والفناء . فدخلوه ودخلنا من
خلفهم . وجلسوا وجلسنا في صفهم . فرأينا المكان حومةً وغى احتدم
وطيسه . وميدان حربٍ اصطدم خميسه^(٢) . عجاجته الدخان .
ومتارسه الدنان . وسلاحه الأباريق والافداح ودروعه الغلالة

(١) مضي لطيفته أي لبيتها التي اتواها (٢) الحظس الجيش

والوشاح . ونبأه أصة القوارير ^(١) وطبولة توقيم العيدان
والزامير . ومنافره المصائب والاكاليل ^(٢) وأعلامه المآزر والمناويل
وقواده وشجائنه . قواده وغلمانه . وكان منصبة الرقص هي حصنه
الحصين . وصاحب الخان هو قائد الكمين . وكان المغنين هم الكماة
والأقران . والراقصات الجماء والفرسان . وحرقاتهن بالردف
والخضر . هي حركات الحرب في الكر والفر :

أُولَاتُ الظِّلْمِ ^(٣) جَنَنَ بِشَرِّ ظُلْمٍ وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتية أعلام ففى لقيائك بالأساور معلّات
وترى كل ذات ثدى حاسر بارز . تنادى هل من منازل أو مبارز .
ثم تتبخترونجول . وتخطر وتصول . فترى كل طامع فى وصالها .
بسهام اللحاظ ونصالها . ثم ترشق بها الدنان تارة فتسيل بدم العقار .
وتشق بها الجيوب أخرى فتسيل بدم النضار :

وقد أغمدن فى أزر ولكن سيوف لحاظهن مجردات
قدحن زناد شوق من زنود بنار حليها متوقدات
وترى فى وسط تلك المعركة . من كل هلوك هلكة ^(٤) تنساب فى جلة

(١) صمامة القارورة سداها (٢) المنفر زرد يلسج من الدروع على قدر الرأس

(٣) الظلم ماء الاسنان وبريقها (٤) الهلوك الفاجرة

رقصها وتسمى . كأنها حية في قيصها أو أنفى . أعاب الأفاعي .
القائلات لُمأبها . وأنياب الأسود الضاريات أنيابها . تنفث السم
رائحةً ومنتش غادية . وإن رأيتها شاذةً وسَمِعَها شاذيةً . فري .
القوم فيها صَرَعي كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية

قال عيسى بن هشام - ولما طال جلوسنا ، وضائق أنفاسنا ، وكاد
يُفْغِي علينا من كربه للروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة
من اكنافه . رائحةً عَكَرَ الحُور . ورائحةً مَرَقَ الابدان . ورائحةً زيت .
المصاييح ورائحةً للدخان والحشيش ورائحةً أنفاس المخمورين ورائحةً
تلك المراحض التي لم يدخلها ماء . ورائحةً الأرض التي تسقى بالاقذار .
ولم تسطع فيها شمسٌ ولم يتغير عليها هواء . فاذا تَزَجَّتْ هذه الروائح
بعضها ببعض انعقدت منها في جو المكان سحابة سوداء تطير الادواء .
وتساقط الأوباء فتستنشقها الأنوف وتمتصها الرئات وتضوى بها
الاجسام وتتضاءل منها ذُبالَاتُ المصاييح تضاًؤاً في أجوافِ
المناجم وبطون الكهوف وكاد الباشا يَخْتَنقُ وهمٌ به الثنيان فهم
للقيام فأمسكت به وقالت له :

(عيسى بن هشام) - أَيْصِرْ مِثْلِي عَلَى هَذَا الْمَقَامِ وَلَمْ أَشْهَدْ .
عمرى معركة ولم أحضر معبعةً زُتْمٌ يَجْزَعُ مِنْهُ مِثْلُكَ وَقَدْ مَارَسْتَ .

الحروب وشاهدت الوقائع تحت سحب العجاج وفوق جثث القتلى
وأشلاء الجرحى لا تبالي برائحة الجيفة ولا برائحة الدم ممزوجة
بصدأ الحديد

(الباشا) - لقد كان ذلك ولكن في الحلوات والفلوات حيث
تسطع الشمس وتجوى الرياح . ولم أَسْنَشِقْ تلك الروائح منعصره
كان محصارها في هذا المكان . ومع ذلك أتجلد مثلك للبقاء به كيلاً
يقوتنا شيء مما نحن بصدد من بداية الامر الى نهايته

وينأ نحن كذلك اذا بصديق لي دنأني فسلم على وأظهر لي تعجبه
من دخولي هذا المحل فأظهرت له تعجبي من دخوله أيضاً
فأجابني بقوله :

(الصديق) - ان السبب في دخولي هنا هو البحث عن رجل
احتال على في بعض الشؤون ثم غاب عن نظري وأنا أعلم أنه يأوى
الى مثل هذا المكان فدخلته على كره . مني بعد أن حرمت على
نفسى التردد عليه منذ زمان بعيد . وحكم الضرورة مطاع ولكن قل
أنت مالذي جاء بك الى هذا الوكر وكرى الافاعي وأدخلك في
هذا العش عش الشيطان

(عيسى بن هشام) - أدخلنا فيه حب الاستطلاع والاستكشاف

من الاخلاق والعادات ولكفى فيه غريب لأفقه كثيراً مما أرى
والحمد لله الذى سحرك لنا فى هذه الساعة لتبين لنا ما غمض وتبدى
لنا ما يخفى

(الصدى) - لك ذلك منى وفوق ما تريد

قال عيسى بن هشام - وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا
ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر فى هذا الباب
ما أدهشنا به . ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل يتمايل سكرًا
فاخترق صفوف الجالسين وقد سكنت ضوضاؤهم وهدأت حركاتهم
السمع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه فأعناهم نحوها مشرقة
وأبصارهم إليها شاخصة كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن
الحديث من وعظ الخطيب . واستمر السكران فى سيره يقع يدهم
مرة ويقوم أخرى حتى وصل إلى منصة الرقص والغناء فضرب
عليها مرارًا بعصا فى يده ونادى على من فيها بأعلى صوته يطلب
العدول عن الغناء إلى الرقص فلم يسموا الندائه فالتفت إلى زمرة
من الجالسين وطلب منهم مساعدته على فرضه فنادوا معه : الرقص
الرقص . ونادى الراغبون فى السماع : الغناء الغناء . فانبرى لهم
السكران يهزأ بذوقهم ويسفهمهم فى سوء اختيارهم فأجابه سفیه منهم

على سفاهته فهجم عليه السكران بمصاه فقفز صاحب الحان من
مكمنه الى السكران فأخذ بتلايبه . ويقوم طالب الغناء
حينئذ من مكانه فيشبع السكران ضرباً وسفهاً فيتعلق السكران
بمخنافه وينادى : البوليس البوليس . فيجتمع غلمان الحان يجرّونه
الى الخارج وهو تمسك بمنق الضارب له لا يخليه حتى اذا صاروا
الى الباب أدرّكهم جندي البوليس وقبض على المتضارين فيتعرض
له صاحب الحان ويمنعه من القبض على الضارب ويقول له : ليس
لك الا أن تأخذ هذا السكران وحده فقد جاءنا بعد أن امتلأ
سكراً من الخارج يعربد في محلنا وكأنه مأجور من أرباب الحانات
الأخرى للإضرار بنا وإحداث الفشل في محلنا . فيأبى الجندي
الا أن يسوق المتضارين معاً فيفهمه صاحب الحان ليلين له فيثدده
أحد غلمانه قائلاً له : لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجندي من المصانعة
وغيرنا يُقضى بدونه فان حضرة معاون القسم جالس عندنا داخل
« البار » مع صاحبه

(صاحب الحان) للجندي - لم يبق لك من وجه لسحبهما

الى القسم . وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة معاون في « البار »

(الجندى) - هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك، وكيف يكون حضرة المعاون، موجوداً الآن في «البار» والنوبة عليه الليلة في القسم

(صاحب الحان) - ما عليك الا أن تدخل وهما في قبضتك لتراه بعينك . فيجيب الجندى صاحب الحان الى ذلك فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب صاحبه خالماً رداءه على كتفه وطربوشه على رأسها وهو يمينها من كأسه وتعاطيه من كأسها

(صاحب الحان) للمعاون - لقد تعطل الحصل يا حضرة الافندى في هذه الليلة وتمطيله لا يرضيك فان هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلى شيئاً فعربد بين الجالسين وأخل بنظام الاجتماع ثم تمدى على هذا البك بالشتم والضرب وهو من أجل المترددين على المحل . والغريب أن جندى البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمّ على سجنه مع ذلك المتعمدى الى القسم وهو من أبناء الكرام ولا يلقى بكرامته أن يساق مع هذا السكران الى الحامكة

(للمعاون) للجندى بعد أن يلبس طربوشه - ما هذا الذى أسمعه

(الجنديّ) رافعاً يده بسلام التعظيم - لم أعلم بوجود حضرتكم
هنا والامر اليكم

(المعاون) للجنديّ - اذا كان الرجل السكران في حالة سكر
يُمنّ نخذهُ وحده الى القسم ومادام حضرة البك لم يحصل منه
اعتداء بشهادة حضرة الخواجه فلا لزوم لذهابه معك ويكفي ان
حضرته بعطينا وعداً بالحضور غداً الى القسم لاخذ شهادته على
هذا السكران

(وعند ذلك يدفع صاحبُ الحان بالسكران الى الخارج مع
الجنديّ)

(الجنديّ) - اذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير
به عليك يا حضرة الخواجه فليس يكون حضرة معاون عندك
في كل ليلة . والايام ينفذ

(صاحب الحان) - أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن
عندك شك في دوام الرماية بك

قال عيسى بن هشام - وخرج السكران أمام الجنديّ
مدفوعاً في ظهره يقع ويقوم ويستعدي ويستنجد . وعُدنا الى
داخل الحان ننظر ما يجري فيه فاذا صاحبُ الحان معه البك

خصيم السكران قد جلسا مع حضرة الماوان والكؤوس تغدو
عليهم وتروح . فجلسنا ناحية نستمتع لهم ونؤثر ما يجري من
حديثهم على نحو ما ترى :

(صاحب الحان) للمعاون - لماذا أوعزت الى صاحبك
بالقيام عند جلوسنا معك

(المعاون) - أنا لم أوعز اليها بشئ ، ولكنها هي التي قامت
مغضبة

(صاحب الحان) - ولأى سبب أغضبتها

(المعاون) - لم آت سبباً يفضيها بل هي التي انتحلت سبباً
كدرتني به وكدرت نفسها أيضاً

(صاحب الحان) - لا شك ان ما حصل هو من باب الدلال

دون سواء وسأدعوها في الحال لعقد الصلح بينكما

(المعاون) - لا دخل الدلال هنا ولكن جرى في أمر حضرة

البك والسكران ما هو على خلاف هواها فانها كانت ترغب في

التضييق على الاول والتفريق عن الثاني لان حضرة البك هو من

أكبر أصحاب المغنية والمغنية من الدّ أعدائها

(صاحب الحان) - لقد حرت في أمر هذه الفتاة فان ضروب

حماقتها لا حد لها وفي كل ليلة تأتي بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه مالا يعوض من خسارتي ولولا منزلتك عندي ومنزلتها عنده لكانت أبقيتها في الحل يوماً واحداً ولا كابدت إعطاءها في كل شهر مقداراً ما يأخذه وكيل المديرية مرتباً من الحكومة . ولو شاهدت منها ما أشاهده كل ليلة من تسافهم على الرجال وتخصيمها مع النساء اعتياداً على سلطانك وارتكائاً على مساعدتك لعلمت مقدار حماقتها وجنونها

(المعاون) - نعم ان حماقتها عظيمة وطالما شددت عليهم النكير لتجتنب المنازعات والمشاجرات حتى لا يقال ان علاقتها بي هي التي تجرئها على ارتكاب ذلك . ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح

(صاحب الحان) - صدقت وهي مع ذلك تحبك حباً صادقاً (وهنا تدخل المغنية في البار بعد انتهائها من الغناء فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر الخصامة مع السكران فيقول لها) :

(البك) - أنا في غاية التشكر لحضرة معاون الذي أنصفني وفي غاية التكدر مما وقع له من فلانة بسببي فانها اهتمت غضباً

لما علمت بمساعدته لى وهى تبغضني لعلاقتى بك . فبجاني عليك
الا ما قبلت التوسط فى الصالح بينكما وإزالة ما فى النفوس فتعود
راضية على حضرة المعاون ويتم الصفو لنا جميعا

(صاحب الحان) - أنا اوافق على هذا الرأى

(المعاون) - وانا لا أرفضه

(البك) - وأنا أرسل فى طلبها

قال ديسى بن هشام - وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية
جالسة مع المعاون وأصحابه فتشتعل جذوة نار من الغضب وتنقلب
لبوة هاجت لفقد أشبالها فتشتم وتسب وتقذف وتلمن وتغفل
وتبصق وتنقض على المغنية فتأخذ يرفعها فتزيلها عن مكانها
وتلتمت الى المعاون فتتوعده بالشكاية والطمع فيه لدى رؤسائه
ثم الى صاحب الحان فتشهدده بأنها لا ترقص فى ليلتها . فلا يسع
صاحب الحان الا أن يتلافى الفضيحة فيجرها الى خارج البار
بالقوة ليتمكن المعاون أن يتسال هاربا . ثم أخذ يصحبها ويحذرهما
ويقول لها ان المعاون قد ذهب الى القسم الآن وقلبه مملوء منك
حقداً وغيظا فاذا أنت لم ترجعى عن حماقتك وتصعدى الى المنصة
للرقص أو عزت الى المغنية أن تمسك بك وتذهب مبك الى

القسم والحاضرون يشهدون أنك تعديت عليها بالضرب والمعاون
هناك ينتظرك لا تشفى منك

قال عيسى بن هشام - فوقع هذا القول منها وقع الماء في
النار . وإنذار الحجز على أهل الدار . فبدأ جأشها . وسكن
طيشها . وصعدت للرقص على منصتها . تتأوه من حصرتها
وفصتها . وعدنا للجلوس أمام الميدان . ننظر ما يكون من
الغلبة والخسران

قال عيسى بن هشام - وجاء دور الرقص فضجت الغوغاء .
واشتدت الضوضاء . وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق . واشتغلت
الأكف بالتصفيق . ترحيباً وتأهيباً . وتكبيراً وتهليلاً .
اذقامت على المنصة هلوكة ورهاء^(١) . عمشاء مرهاء^(٢) . فطساء فوهاء .
عجفاء شوهاء^(٣) . زججة الحاجبين . محرمة الخدين . مبيضة
الساعدين . مخضبة اليدين . قد أبست وجهها من الظلام نقاباً .
وأسدلت على أطرافها من الدهان ثياباً . بأصباغ شتى وألوان بين
أبيض ناصع وأسود فاحم وأحمر قان . تتلون تلون الحرباء . في

(١) الورهاء الجماء (٢) المرهاء التي ابيضت بواطن اجفائها (٣)
العجفاء المنزولة

هجير اليمياء . وقد وارت ما تعرض من جسمها . وتعرض من
لها . بأنواع القود والقلائد . والأسارر والمعاضد . والدماجل
والجلجل . والمناطق والخلخل . فأخذت في الرقص والجلجلان .
على توقيع الضروب والألحان . وبجانبها خادم ماشككتنا من قبح
هيئته . أنه إبليس اللعين في طلعته . رُكبت منه أقيح هامة . على
أسوار قامة . بوجه قد قد من الصخر . وهــين كمين الصقر .
وأنف كمنسر النسر . وفم يرمى بالزبد كالبحر . وشفة مهدولة .
وعمامة مجدولة . وفي يمينه قدح وإبريق . يسقيها منه بكأس من
حريق لا بكأس من رحيق ويماطيها من غسلين أو قطران^(١) .
ويجرعها من حميم آن . وكلما أترع لها كأساً حمست في أذنه حمساً .
ثم تشير بعرف الكف . الى بعض الجلوس في أول صف . فيصيح
اللعين صيحة الأسد في عريسته^(٢) وقع بصره على فريسته . فيجيبه
غلام الحان جذلاً وإتهاجاً . ويأتيه بالزجاجات أزواجاً . فيفيض منها
الفدام . ويصفقها أمامها تحت الأقدام . ولا يزال خادمها يملأ لها
ويسكب . وهي تشرب وتطاب . لا تكتفي ولا تقتنم . ولا تروى .

(١) الفسائين ما يسيل من جلود أهل النار (٢) العريسة بيت الأسد

ولا تنقع . كأنما عتج لها من قليب^(١) ويصب في وادٍ جديب . أو يعلأ
 من ماء منبثق . ويفرغ في دنٍ منخرق . فإذا دبّت في عروقها نعالُ
 الحجر . واشتعلت في جوفها اشتعال الحجر . جدّت في أعينها ودورانها .
 واشتدّت في قفزها وجولانها . وتلوّت كالحية في طرقها ولعبت
 كالسكّفة بعنقها . والخدام أمانها يناز لها وتنازله . ويناز لها وتنازله .
 ويرراقصها وتراقصه . ويقارصها وتقارصه . وهي ترسل على الحاضرين
 أقوالاً بذينة . وتخطبهم بالفاظ قبيحة رديئة . فتفتّر لها الثغور .
 وتشرح الصدور . ليس فيهم الاكل مستحسن معزّيد . ومستملح
 مستعبد . الى أن تخور قواها . وتغور عيناها . وتتقلّص شفاتها .
 ويكلج شدقاها . وينضح العرق من أطرافها وتراقبها . وينعقد الزبد
 بخرها وفيها فتضطر الى إزالته . وتعمد لا زاحتها فتناول المنديل تمسح
 به من وجهها وذراعها . فيتلوّن بأشكال الصبغة وأنواعها . فيغدو
 المنديل كأنه قرص قرّح . بما نصب من أديمها وارثشع . وينكشف
 التويه والنايس . ويوضح التلفيق والتدليس . فيظهر ما بطن .
 ويبرز ما كن . وتنقلب الى صورة سعادة . تراءى في مراب
 خلاة . أو قول . تكشر وتصول . أو دب . يهتز ويدب . فحوّلنا

عنها الوجوه استنكافاً واستنكاراً. ولَوْ يَنَالُ الْعَنَاقُ اسْتِقْبَاحًا وَاسْتَقْدَارًا
وَمَالُ الْإِبَاشَا عَلَى الصَّدِيقِ يَسْأَلُهُ فِي دَهْشَتِهِ . وَيَقُولُ لَهُ فِي تَفَرُّتِهِ :
أَعَلَى مِثْلِ هَذِهِ تَذُوبُ الْقُلُوبِ . وَتَنْشَقُّ الْمَرَارُ وَالْجُيُوبُ . وَهَلْ
وَضَلَّ الْعَمَى بِالنَّاسِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ . وَلَمْ يَبْقَ فِيهِمْ تَمَيُّزٌ لِلْغَزَالِ مِنَ الْقَرْدِ
(الصَّدِيقِ) - نَمَ أَنْ هَذِهِ الَّتِي تَهْرَبُ مِنْهَا الْوُحُوشُ لِفُطَاعَتِهَا .
وَيَتَمَوَّذُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ لِمَمَاتِهَا . هِيَ عِنْدَهُوَلَاءُ الْحَاضِرِينَ دُمِيَّةُ الْفَقْرِ .
وَفَرِيدَةُ الْمَصْرِ . كَمْ ذَهَبَتْ بِأَمْوَالٍ وَأُودِتْ بِأَرْوَاحٍ وَكَمْ أَضَاعَتْ شُرَفًا
وَأَزَالَتْ مَجْدًا وَأَذَلَّتْ رِقَابًا وَأَفْسَدَتْ حِكَمًا وَكَمْ فَرَقَتْ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ وَوَلَدَتْ الْعَفْوَاقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ وَأَلْهَبَتْ الْعِدَاوَةَ بَيْنَ
الْإِخْوَانِ وَأَخِيهِ وَكَمْ خَرَبَتْ يَبُوتًا عَامِرَةً وَدَنَسَتْ أَنْسَابًا طَاهِرَةً وَكَمْ
بَدَّرَتْ لِلشَّرِّ أَسْبَابًا وَفَتَحَتْ لِلسَّجُونِ أَبْوَابًا . وَهُوَلَاءُ الَّذِينَ تَرَامُ
جُلُوسًا فِي هَذَا الْمُسْتَنْقَعِ الْوَبِيِّ وَالْمَرْعَى الْوَيْلِ يَقْضُونَ فِيهِ لَيَالِيَ
الشَّهْرِ تَبَاعًا وَشُهُورَ الْعَامِ رَدَاقًا لَا تَتَوَعَّمُهُمْ مِنْ أَسَافِلِ الْقَوْمِ وَلَا مِنْ
أَعْدِيَاءِ النَّاسِ بَلْ فِيهِمُ الْكَبِيرُ وَالْأَمِيرُ وَالسَّرِيُّ وَالْوَجِيه . وَانْظُرْ عَنْ
يَمِينِكَ إِلَى هَذَا الْجَالِسِ بَيْنَ إِخْوَانِهِ جُلُوسَةَ الْكِبَرِيَاءِ فَهُوَ أَحَدُ بَنَاءِ
الْأَمْرَادِ مَاتَ أَبُوهُ وَتَرَكَ لَهُ أَمْوَالًا جَمَّةً فَالْتَفَتْ حَوْلَهُ قَرَنَاءُ السُّوءِ
مِنْ أَهْلِ الْبَطَالَةِ وَالْفِرَاقِ فَبَدَأُوا فِي تَبْدِيدِ تِلْكَ الْأَمْوَالِ بِاِقْتِنَاءِ الْخَيُْولِ

المسومة والمركبات المظومة ثم ثنى بالامراف الفاحش في مهرجان
 زواجه ثم ثلث بتسليم ما بقى منها لأيدى العواهر والفواجر وأخصهن
 هذه اللخناء التي لم يبق له منها الا التمتع بالنظر وهي لا تنظر اليه
 ولا تسأل عنه بعد أن استفرقت أمواله . وانظر عن شمالك الى
 هذا الجالس الذي يقتل شاريه ويحماق بعينه ويغمز بحاجبيه فهو
 من أبناء الكبراء أيضامات أمه فورث عنها . والاطالة ولم يمض
 على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالعها في مخالب هذه الخداعة
 للفرارة فهو لا يصبر عنها ولا يقطع الحبيس اليها في كل ليلة وهي
 تسلبه كل ما تصل اليه يده من خفيف وثقيل وما كان لأمه من
 حل وجواهر غير ما ينثره من الذهب والفضة في أرض هذا المكان .
 وانظر أمامك الى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبهجلاً فهو من
 كبار الحكام في الادرياف وقع في أشراك هذه المرأة فكادت لفضاعة
 أعمالها معه أن تسلخه من شرفه وتسقطه عن منصبه وهو مع ذلك
 لا يسلوها ولا يلهو عنها وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها
 مأوى ومقصدا ملهى فاذا هو عاد الى مقر وظيفته عاد بغير لبه
 فيسمى في استغواء العمد والاعيان لإقامة الولائم والحفلات
 واستنجار هذه الرافصة لإحياء لياليها . وانظر الى هذا الشيخ

الجالس منفرداً منزوياً ويده مرشقة بين صدغه وسمامته فهو من
أعيان البلد لم يمنعه وقار السن وهيبة المشيب من الوقوع في أسر هذه
الغواية فأخذ يمدد عندها في شيخوخته ما كان جمعه في شبابه
(الباشا) - لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء
لقلنا الهوى في الناس داء قديم والولوع بالحسان أمرٌ بديع والعدو
غير معدوم ولكن ما بالهم والمرأة في القبح والدمامة بمنزلة الشيطان
والهرُوبُ منها مندوب إليه . فهل تعلم لذلك من سبب خفي
(الصديق) - السبب فيه حبُّ التباهي والتفاخر والآثرة
والاختصاص وقد اشتهرت هذه البغى بأقذار الرقص والنفرد فيه
وأَنْفُسُ الجُهلاء مولعة بالشهرة كباطلة والهيبت الكاذب يشبهون
به عُمى النواظر عُمى البصائر فهم يرون ان الاختصاص بمنثل
هذه الشهيرة في فنائها وإن قبح منظرها وساء مخبرها هو الفخر كل
الفخر والسبق كل السبق . وهم يجولون على الحكاية والتقليد فلذلك
نفذ فيهم سهمها وسرى في عروقهم ممثلاً
(الباشا) - ان كان لا يوجد في هؤلاء الناس عقول تردعهم ولا
يوجد بينهم واعظ يرشدهم أفلا كان هناك من سلطان يزعمهم وحكم
يكف الأذى عنهم

(الصدىق) - لا واعظ ولا ناصح ولا سلطان ولا وازع وقل
 بيننا من يشتغل للناس في نفع الناس. أما الحكومة فأسمع بها
 وأبصر. تنتشر كل هذه اللوبيات بعلما وتُصنع على عينها وهي ناظرة
 اليها نظر الرضى متقبلة لها أحسن القبول وهي التي تدير نظامها
 وتوسع حدودها وتضع لها اللوائح والمشورات وان اضطل بها
 حال الرعية وساء منها المصير . وماذا يقال في حكومة تعلم ان ثروتها
 في ثروة رعيته وسلامتها في سلامتها ثم ترضى بانتشار هذه المنكرات
 المنة وضرة للثروة المتنافسة الارواح والابدان ولا تأبى لعزها وشرفها
 ان تكون سرّة حاصمتها محلة للبغايا وسوقا للضجور وميدانا للمقامرة.
 والعجب في أمر هذه الحكومة أنها لا تحتذى في هذا الصدد على
 مثال حكومة اسلامية ولا على مثال حكومة مسيحية بجميع عواصم
 الاسلام في العالم خالية من اما كن معينة للبغايا المسلمات تشهد بها
 الحكومة والحكومة الانكليزية من الحكومات المسيحية لا تعترف في
 بلادها ببيت للفاحشة ومن أباح بيوت الفاحشة من بقية الممالك
 المسيحية فقد أباحها بقيود وحدود تخفف من أذاها وتهون من
 غوائلها وأقل ما في الامر أنهم جعلوها في أطراف البلدة بعزل
 عن مساكن الحرائر ولكن الحكومة المصرية تخالف في ذلك

مناهج الحكومات جيبها

قال عيسى بن هشام - وانتهت الراقصة من رقصها فدخلت حجرة
لتغيير لباسها وإصلاح ما فسد من حالها ثم نزلت منها وقد جددت
ألوانها وأدهانها وسارت تتكسر في مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها
رمق الشهوة ويتطلعون اليها تطالع البهيمة فتزحزحت لها المجالس
وحلّت لها الحُبى وأعدت لها كل فريق كرسيا بجانبه وتناثر عليها
الاشارات بالتفضل بالجلوس فلم تعبأ بشئ من ذلك ولم تلفت اليه
واستمرت في تكسرها وتهاديهما حتى وصلت الى مقام صاحب
الخان فوقفت معه ملاعبة مداعبة وممازحة مضاحكة . وجاء
خادماها في عقبها فاستوقفه اليه ذلك الخا كم من حكام الارياف فوقف
بجانبه يهزل معه ويمزح ثم شاهدا الخا كم يخرج من جيبه بعض
الدراهم فوضعا في يده فانصرف الخادم الى الراقصة فكلمها وأشار
بيده الى الخا كم يستعطفها له ويستدعيها الى الجلوس معه فأبانت
عن أمارات الالباء والرفض في اول الامر ثم انتهت بها الحاجة الخادم
الى الرضاء والقبول فقصدت مجلس الخا كم وقصد الخادم غلام
الخان فما جاست حتى كان الغلام بجانبه يحمل في يديه اربع زجاجات
من الشمبانيا فبزاها كلها بمزله ففارت وفاضت وانثشرت كلها

حييا والغلام متلاهِ عنها لايسرع الايملاء منها حتى اذا لم يبقَ بها
 الا مقدار صُباية^(١) صَبَّ الخبيث في الكاسات وقد مهل للفاجرة فبادرت
 الى لمس كل كأس لمسة يدها وفيها . ثم يعود الغلام بعد هُنيئة لاخذ
 الزجاجات الفارغة فتأمره باحضار سواها . وهكذا يتوالى الحال في
 طلب الادوار حتى يالغ الى الدور الخامس في مدة يسيرة وجميع
 الجالسين لا يتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما
 يرصدون نجما أو يرقبون هلالاً . ولما انتظم ورود الزجاجات برهة
 التفتت الماهرة الى خادمها وهو على بعدٍ منها فرأته يشير اليها
 بحاجبيه نارة وبطرف لسانه أخرى فهتت بالقيام فأمسك الحالم
 بأذيالها نصفهته صفعة زاح على قفاه بعد أن لمنت أمه وأباه استرضاء
 له عن تركها إياه فهش وبش اعتقاداً منه أنها لا تقبل له بهذه المعاملة
 الا اسقوط المكلفة وتمكن الألفة . وتنسل من حضرة الى حيث
 أشار الخادم فهبط على الفئة التي عن يميننا وفيها ذلك الشاب الذي أذني
 في حبها ماله وأضاع في هواها شرفه فخاطبته بلسان اللوم والعذل
 تسأله لأي سبب دعاها ولا أجل أية علة أفلقها من مكانها فتلتهم
 المسكين برهة ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها فان الخادم

أخبره بنجاح قضيتها فتبسم له قليلاً ثم تلمت ذنمه الى سواء فيستحلفها بالود التميمي والمهد العتيق ان تجلس معه لحمة ليقصّ عليها تفصيل الخبر فتتفر منه فيرميها بسوء الوفاء وخيانة العشرة ويكتهم مذكراتها بما كان بينهما من الصفاء والهناء وما أتلفا في معاشرتهما من نضار وعقار فتقاطعه على وجهه لطمة المعلم للأدب وتجلس الى جانبه وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الايام والايام الخوالي وأن يحفظ عنها قصة الاضرار في باب الاعتبار . وروى له هذه القصة التي هي عندهن عماد الصنعة وأساس الفن زعموا ان فتى كان يهوى فتاة وهو وهواه فعاشا تحت جناح الحب زمناً سعيداً ثم طرأ على الفتى سفرٌ يبعده عنها في طلب المال وجاءت ساعة الوداع فانهما لماتا المبرات وتوالت الزفرات وأقسمت له بأن العيش لا يطيب لهما من بعده وان الموت أهون عليهما من بعده وسأله أن يبقى عندها أثرًا منه تتعلل به في غيابه ساعة الحنين وتشم منه ريحه وقت هيام الذكرى فقال لها سأترك لك بضعة مني وأتزرع لك أثرًا من بين لحى ودبى ثم عمد يده الى فيه فاقطع لها ضرساً من أضراسه غير مبالٍ بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع وناولها إياه ينظر بالدم فأخذته منه وأشبعته لها وتقبيلاً ووضعته في حقة نفيسة وسافر الفتى سفره ومضت عليه الايام والليالي ثم أب من سفره خائباً

لم يظفر بجاحته ولم يفرق بطلبته رقيق الحال ضيف الركن فذهب الى
 دار صابجته وقد أضناه الشوق وبراء النوى فله اطرقت الباب ولحته
 من النافذة تنكرت له وانكروته فناداها أنا فلان فاصحى لي بالدخول
 قالت له ومن فلان فاني لا أعرفه قال لها خليلك وحبيبك صاحب
 العهد الوثيق والعشرة الطويلة قالت له كل الزمان غلشر وفارق فأتهم
 أنت قال لها أنا صاحب الغرس قالت أولئك غرس من عندى قال نعم
 قالت فادخل فدخل فأجلسه وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته
 بفتحها ففتحتها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضر ومن وقالت له
 ذواتك إن كنت تعرف غرسك من بين هذه الاضراس فأتنا
 نعرفك باليوم من بين البنس ولما أتمت الواظطة وعظمت انصرفت
 عن هذا المجلس الى مجلس ذاك الشيخ الوجيعة فيقوم لتجبتها
 والفكر يهدى لها نواحيها فتمت الاجلس معه وغلام اخاها فوق رأسها
 وينظره طالبها لوجاجات فلا تلبث اليه قديم الوقوف فتأمره
 بالانصواب فيقول خائباً وتقول للشيخ إنها لا تريد أن تجعله في
 وجهه من ماء ولا تخلصه من يدوية الحاضرين الذين تسلمهم لصاحب
 الجلال فيخرج الوجيعة بقى حزناً عتقاً يتلألاً فيضعه بين يديها
 لتبسم له وتطعمه اليه وتقيم عنده برهة في مضاحكة ومنازلة ثم

تقوم لتنصب على سواء شبابكها . وترعى لصيد للقلوب أشراكها :
 نُحْيِي وَجْوهَ الشَّرْبِ فِعْلَ مُسَالِمٍ ^(١)
 يُضَارِحُكَ وَالْكِيدُ كَيْدُ مُحَارِبٍ

قال عيسى بن هشام - وأقننا تنأمل في أفعال هذه البغي الفاجرة .
 ونفكر في أعمال هذه الخداعة الماكرة . ولعجب كيف يقتدر مثلاً
 على ختل الرجال قدميهم في مهاوى الغواية والضلال . وهي عارية
 من ثوب الجلال مجردة عن جميع الزايا والخصال . مُفْرَعَةٌ في قالب
 الوقاحة . معجونة من حمأة الدمامة والقياحة . وما زالت الفاجرة
 تتقلب بين الجالسين وتنقل . وتتجول بين الصفوف وتتحوّل .
 ونروح الى صاحب الحان وتغدو . وتحفّى آونة ثم تبدو . منطلقة
 اللسان بالسب والثلب . منبسطة اليد بالنهب والساب . ممتدة الكف
 بالاطم والضرب . دائبة في السكب والشرب . وهي في تنقلاتها
 تقطّب تارة وتتجهّم . ونفترّ تارة وتبسم . وتنسبط حيناً وتنقبض .
 وترضى ساعة ثم تمتعض . وتعامل كلّ انسان بما يلائمه . وتجري معه
 على ما يؤائمه . فتضلّ الابواب والنهي . ويقع الجميع في أسر الهوى .
 وآية حبها وميائها . أن تضع الصبّ بنعلها . فإذا أضافت الى الضرب

بالنعال . شقّ القباء وتَفَّ السَّيَالُ^(١) . كان في ذلك بلوغ الآمال .
بدنو نساء الوصال . واستوى المضروب يُفخر أصحابه وخلائه .
ويباهي أنداده وأقرانه . كالظافر في ساحة الطعان والضراب والفائز
بالغنم والأسلاب . فيغالى في إظهار الابتهاج والائتناس .
وتنبسط بدنه في الكيمس ويدوها في الكاس . والغلام على رأسه
بالآنية . يصب لها زجاجة كل ثانية . وهي تصب الكؤوس
في الهاوية . كأن حلقها قناة وكأن الساق ساقية . وحانت منا التفاتة
الى الخاييم وصاحبيه . فاذا العمدة يشير يسديه ويمرر بحاجبيه .
ويقول للخليع في اشتعاله والتهابه . ويخاطبه في ارتباك
واضطرابه :

(العمدة) للخليع - لقد أسعدنا الجدُّ وحلّت لدينا عاقبة
الصبر ونحن فاتنا الأُنس بالغائب فما أكل أنسنا بالماض . وهذه
الرافضة التي اجتمعت على محبتها للقلوب وافقتت بها اذعقول
هي عندى الضالة المنشودة والأمنية المطلوبة . رمزنا لما يراها
سواك وعين علينا بما غيرك
(الخليع) - هذه هي الفتاة المشهورة بكثرة الشاق وتطلّاب

ولا عيب فيها غير المزاوجة عليها والمورد العذب كثير الزحام
والوصول اليها من دونه أهوال :

وإنك إن أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أنيبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كلة أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

(التاجر) - نعم هذه هي البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة
فازمن حازها وخسر من فاتها ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء
لصبا إليها القلب وولعت بها النفس ولكن لرب العيال ما يشغله
عنها ويبعده منها .

(العمدة) - ليس يفوتنا على كل حال ان نتمتع بها الالة
بالمجاسة والمغازلة ونروى بمحادثتها القليل ونشفي بكلامها الهيام
(الخليع) - حبذا لو جلست معنا برهة . ولكنك ترى
من المزاجية فيها والمنافسة بين الحاضرين في الغرام بها والنرم عليها
ما يجعل نيل الغرض متعسراً ودرك الطلب متعذراً

(العمدة) - أما المزاجية عليها فان لنا من مهارتك ونباهتك
ما يقرب الأمل بالوصول اليها وأما المنافسة في الغرم دليها فلا أمر
مستدرك والدرام موجودة

(التاجر) - ما أشك . بعد هذا في نيل الغرض ونضاه

الوطر وستنتهى ليلتنا بمسك الختام

قال عيسى بن هشام - ويدعو الخليل خادم المرأة وبهم باعطائه
شيداً من الدراهم فيسابقه التاجر فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما فيلقى
الخليل في أذن الخادم قولاً ويطول الخطاب بينهما همساً ثم يذهب
الخادم فيه ودعولاً تتيه دلالاً وتذني اختيلاً وتبدى الرضى من
خلال الثمن فتسلم على أهل المجلس وتخص الخليل بتسامة وتجلس
بجانبه وتسأله عما جرى في المجلس بعد انصرافها عنه بالامس
فيقطع عليها هذا الحديث بالحقبة ثم يبدأ بمقد التعارف بينها وبين
العمدة ويطنب لها في علو شأنه ورفعة مقامه فترحب به فيرفع
العمدة يده الى رأسه مراراً تشكراً لها فتلمح فص الخاتم يتألق في
إصبعه ويتوهج فتضع يمينها في يمينه وتجرها اليها ترصد الحجر
فيسيل الرجل طريقاً وابتهاجاً ويمتقد أنها كلفت به حباً وغراماً
فلا يروعه الا أصوات الأصمة ينزعها الغلام عن لزجاجات نباحاً
وكلاً أفرغ أربماً عاد بأربع حتى هال التاجر من ذلك ما هاله قال
الى الخليل يناجيه فسكن الخليل من روعه وأزال الهواجس عنه.
فيميل التاجر الى الاقداح يسكب ويشرب والى المرأة يهـ ازل
وينازل ويماطى وينازل والعمدة على حاله باهت شاخص ومواقع

ولا عقوبة عليه . فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليج . لينقذه من بلائه فيتقدم الخليج فيكلم الزوج طوداً والحليلة تارقه . وصاحب الحان أخرى فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطه صاحب الحان من دراهمه مضافة للمرأة عن إهانتها وعرضها لها عن خسارة الضفيري . ثم يقوم صاحب الحان وينادي غلامه وهو مشغول بأطفاء الانوار فيسأل عن حساب العمدة فيكون له فيلتمت الى العمدة قائلاً :

(صاحب الحان) للعمدة - والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيهًا .
 ثمن المشروب وانظر ماذا نعطينا من العوض في تعطيل المحل .
 بهذه الافعال الصبائية

(العمدة) - ما هذه الحسبة وما هذا الكلام
 (صاحب الحان) - أما الحسبة فصحيحة وأما ما أتيتك فانه لا يليق بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ولكنها الخمر أم الشرور وإن خالها الشارب أم السرور وما كان لك أن تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمتعها على أهل التنافس فيها والنساء غيرها كثيرات في المحل وإن كان لابد لك منها فأنا أسمى في الصلح بينكما عند تشريعتك المحل في اللباسة الآتية وأرجو أن لا

وبقصد المرأة في مكانها عند صاحب الحان وهو يتمتر في مشيته ويجرر سيفه بآبائه فيقف بين يديها يستنجزها الوعد فتفضى عنه فيلمع عليها فتلج في الاعراض فيخرج من جيبه كيس للدراهم ويبسط به راحته راجياً متضرعاً فتظهر له الجفوة فتشدد به الصبوة فيترامى عليها فتدفعه برجلها عنها فيقع على الارض فينتثر ما في الكيس فيعمد الخليع لالتقاطه فيسبقه اليه صاحب الحان . ويتأمل العمدة رانها فيمد يده الى المرأة فيأخذ بضفيرتها يجذبها نحوه فتسبه وتلمنه وتمسك بصاحب الحان ويستمر العمدة في الشدة والجذب فتخونه الضفيرتان فيرتدى على ظهره طربحا وهما في يده والمرأة باقية في مكانها تصبح وتستغيث . فينقض من أقصى للكان رجل رث الهيئة فبيح الظلمة وسخ المماة يرفع في يمينه راوفاً يتأبط في شماله صرة ثياب فيتم على العمدة ضرباً بالهراوة ويدفع العمدة عن نفسه ضرباً بالضفيرتين ويتوسط بينهما التاجر فيسأل الرجل عما يعنيه في الأمر فيقول له إنه زوج المرأة وإنه يدافع عن حريمه ولا يرجع عن غريمه فيمرض له التاجر بمنه عن الفتك بصاحبه فينصحه الخليع بالرجوع عنه لان الرجل من أهل الحماية وفي التعرض له إلقاء باليد الى التهلكة فانه فوق القنون يحى.

ولا عقوبة عليه . فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليفة .
 لينقذه من بلائه فيتقدم الخايع فيكلم الزوج طوراً والحليّة تاركة
 وصاحب الحان أخرى فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة
 ما للتقطه صاحب الحان من دراهمه مرساة للمرأة عن إهانتها وعرضها
 لها عن خسارة الضفيريّين . ثم يقوم صاحب الحان وينادي غلامه
 وهو مشتغل بإطفاء الانوار فيسأل عن حساب العمدة فيكون له
 فيلتفت الى العمدة قائلاً :

(صاحب الحان) للعمدة - والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيهاً
 ثمن المشروب وانظر ماذا نعطينا من العرض في تعطيل الحل .
 بهذه الافعال الصبيانية

(العمدة) - ما هذه الحسبة وما هذا الكلام
 (صاحب الحان) - أما الحسبة فصحيحة وأما ما أتيتك فانه
 لا يليق بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ولكنك
 الحرام الشرور وإن خالها الشارب أم السرور وما كان لك ان
 تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها على أهل التنافس فيها والنساء
 غيرها كثيرات في الحل وإن كان لا بد لك منها فأنا أسمى في .
 الصلح بينكما عند تشريفك الحل في اللباسة الآتية وأرجو أن لا

تتوقف في دفع هذه الحسبة الصغيرة فاني لا أرضى لك الاهانة
حول ارضى لنفسك القضيحة

(العمدة) للتاجر - هل عندك ما تسدد به هذا المبلغ
(التاجر) - لا وحق العشرة وحرمة الصحبة . فلم يبق معي
من الدراهم الا قليل ولا كثير
(العمدة) للخليع - دبرني يا صديقي في أمري وانظر لي
طريقة خلاص

(الخليع) - يعز علي والله ما نحن فيه ولكن عزت الحيلة
ولو كان صاحب الخازن يقبل مني ساعتى هذه رهنا على هذا المبلغ
لرهنتها عنده ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب
ولو كان في الوقت سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية
طريقة كانت

(العمدة) - ان كان الأمر ينقضى بالرهن فهذه ساعتى أمن
من ساعتك وهي عندي أعز علي من روجي لاني أخذتها هدية
من دائرة البرنيسيس يوم بمت لها أطيافها وعليها حروف اسمها
حنقوشة وقد قدرها لي الجوهري بخمسين جنيهها
(الخليع) - ان كان الامر كذلك فلا يليق رهنها وعندك

الخاتم ترهنه مكانها

(العمدة) - هذا هو الأصوب وان كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة . نؤذنه يا حضرة الخواجه رهنًا عندك حتى أسدد لك المطلوب في الغد

(صاحب الحان) - أنا لا آمن لهذه الفصوص اللعاعة فقد غشوني فيها مراراً بأحكام التقليد في صناعتها وليس هنا الآن من أثق به من أهل الصناعة ليكشف لي عن حقيقة هذا الفص

(التاجر) بعد أن يعين في الفص - كيف تقول ذلك وهو من الماس القديم وقيمه لا تنقص عن مائة جنيه وأنا مستعد لرهنه عندي على خمسين جنيهًا فانتظري ريثما أذهب الى محل مبيتي وأرجع اليكم بالبلغ

(صاحب الحان) مكفهرًا - ليس عندي وقت للانتظار فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل وهذا جندي البوليس واقف أمامنا يتعجاني في مطاوعة أوامر الحكومة

(الجندي) - نعم مضى الميعاد ولا بد من الإغلاق جالاً فانظروا معكم شيئاً آخر للرهن يُفَضُّ به هذا المشكل

(الخليع) للعمدة - أعطه الساعة فلا حول ولا . وليس هناك ما تخشاه عليها فانتا نستخلصها غداً بمد أن تقاباني في الصباح بقهوة الموسيقى

(صاحب الحان) بعد التأمل في الساعة - هذه الساعة لا توفي قيمة المطلوب وحدها فترك الخاتم معها أيضاً (العمدة) - هذا لا يصح مطلقاً فان المبالغ المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنبها على فرض صحته

(الخليع) - مادام لعزم أكيد على ذلك الرهن غداً فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين وأنا أرجو الخواجه ان يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض في تعطيل الحل

(صاحب الحان) - انى أتجاوز عنه لأجلك

قال عيسى بن هشام - ويشد دجندى البوايس في طلب الإغلاق في الحال فلا يسع العمدة الا التيسيم في الخاتم والساعة . وبيننا الجميع يتأهبون للخروج والمرأة واقفة تهزأ وتسخر اذ دخل رجل قبيح الخلقة جهنم الوجه عريض القفا جاحظ العينين وأوسع المنخرين أهرت الشدين فأخذ يحيل في الحاضرين بنظره يميناً وشمالاً ثم تقدم الى المرأة فسبها ولعنها ولطمها ولكمها وقال لها قد فات الوقت

ومضى اليماد وأُغلقت الحانات وأنا قاعد في انتظارك بالبيت
وأنت واقفة هنا تلعبين وتسخرين فأين هذا الصيد الذي
ألهاك عني وأنساك أمرى يا عاهرة . فتجيبه مع الدل
والانكسار بأنها أخطأت ولكن لها العذر فقد وقعت حادثة مع
بعض العمدة يشهد بها الحاضرون . وتذكر له ما كان من هجوم
العمدة عليها ونزع صفيرتها فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل
للواقعة فيزجر الرجل ويتوعد ويمد للاحاق بالعمدة وهو يمدو
نحو الباب فتستعطفه الفاجرة وتطالب منه ان لا يكدر على نفسه
صفاء الليلة بالوقوع في مخاصمة أخرى وتطلب منه الاسراع الى
البيت في صحبتها

وخرجنا مع الباشا نتعوذ من كيد النساء . وتأسف على وقوع
الرجال في أشراك المسكر والدهاء وكيف نزل العمى بهم والجهل .
حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل . ويخرجوا عن مثل هذا المكان
الذي . والوطن الرديء . وقد خرجوا من الثروة والشرف . ودخلوا
في البؤس والتسلف . ونزلت بهم أنواع المرض والسقم .
وصبَّ عليهم سوط الاحزان والنقم . ثم التفت الباشا الى
الصديق . يسأله في أثناء الطريق :

(الباشا) - ألا تخبرني أيها الناقد الخبير كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامة في هذا المكان وكيف يرددون عليه إياي متابعات ولا يدركوا ما يدركهم فيه من الهلاك والوبال وقد كاد يُقضى على الإقامة فيه بضع ساعات . فها وجار الضبع وماعش الظربان^(١) وما قبر الميت - يرحمنا الله وإياك - بأثنين رائحة ولا أقدر مكاناً ولا أسوأ مقاماً من هذا الذي كنا فيه

(الصديق) يصبر الناس على الإقامة في هذا المكان ويكثرون من التردد عليه بحكم التدرج وإلف العادة وقوة التماهي وكأنما أبدانهم تتلقح شيئاً فشيئاً باسمه فلا تحس بضرره وألمه كالمرضى يذهب له الألم عن ألم الداء وبتر الأعضاء وإن شئت فكاله ندى يتدرج ويرتقي في تناول الأفيون وهو سم قاتل حتى ينهش بجسمه إلى حال لو لسمته معها عقرب أو لسبته حية لم يؤثر معها فيه^(٢)

(الباشا) - أفدت بما شرحت . وقد بقي عليك أن تفسر لي ما أشكل علي من أمر الرجلين مع الغامزة أحدهما الذي يقول إنه زوجها والثاني الذي أخذت بيده أمامه إلى بيتها

(١) الظربان دويبة كالهرة منتنة الرائحة

(٢) لسبته لدغته

(الصديق) - أما الزوج فانه رجل من سفلة المغاربة المتتمين الى دولة أجنبية تحميه من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالفتها . وهذه البرية هي التي تؤهلها عند العاهرة للتأهل به فتدخل حينئذ في حمايته وتخرج ببركته عن دائرة المحاكم والعقوبة اذا أنت في فسدها وفجورها ما يخالف أوامر الحكومة . ويديش الرجل معها زوجاً بالاسم وذي ثناً بالفعل وذلك في مقابلة شيء من الدراهم يتناولها منها في كل ليلة . وهذه الطريقة تدألفه الناس ولم تقتصر على العواهر بل تمدتهن الى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد قترى صاحب القضية يتنازل في الظاهر عن قضيته الى أحد أولئك المسخرين من رعية الدول الاجنبية ليخرج بها من نظام المحاكم الاهلية الى نظام المحاكم الخباطية . إن ترجح لديه نجاح قضيته فيها . وترى صاحب الجريدة الذي يرغبه الواعظ للرشدين الناس الى محاسن الاخلاق وغرز الفضائل يصنع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسئول عما ينشر فيها من طبع ثم يهاشها بما تسوله له نفسه من الطعن على أولياء الأمور وأرباب الحكومة وأشرف الناس ويسود صحيفته بكل فاحش من القول وبذي من الكلام فاذا عول أحد الناس على محام كئيب يوجه من الايام كذا يرى وجهه عن المحاكم بوجه الاجنبي .



وقال لك : ماذا الامراء ولا هجا الاشراف ولا طعن في الناس
الا صاحب الاسم المستول فدايك به . فاذا التمسته وجدته بائع
فعال يصفق بها في عرض الطريق وينتسب الى دولة من اكبر
الدول الاجنبية يتمتع بحمايتها من ساطة المحاكم والقوانين المصرية
ولا سبيل الى عماكنه الا في بيت القنصل وقواس القنصل ينصر
أخاه ظالماً أو مظلوماً ناهيك بالقنصل نفسه

وأما الرجل الذي سجنه القاهرة ييدما الى يديها فهو صاحب
ودها وحييب نالها تفضله في آخر ليلها على كل رجل يتهاق بهواها
ويبذل نفسه في سبيل رضاها ولا تعجب من سوء معاملته لها وشدة
غطرسته عليها فذلك مما يزيد فيها حبا ويولد لها به شغفا . والنفس
الذئبة الحفيرة لا تميل الا لمن يادرها بالاهانة والتحقير ولا تنقاد الا
لمن يتناولها بالضر والاذى . فهو يضر بها ويؤذيها على ما شهدته
ورأيت ثم يتمتع بها دون انتباه الكين عليها وينتفع بما تجمع له من
أموالهم لفضل هذا الوحش الضاري عندها على تلك الدواجن التي
تدب حولها

(الباشا) - لا شك أن في هذا نوعا من الجزاء لهذه البنى التي
يغيبها في الناس وسابها للاول وقتكها بالارواح وقول لئلا هذا

الجزاء المعجل في الدنيا قبل العذاب للوَجَل لها في الآخرة
 (الصديق) - لا تستهيننَّ أيها الأمير الجليل بما ينال مثل
 هذه الماهرة في دنياها من الجزاء. فانهنَّ جميعاً في معيشة كلها هموم
 وأدواء. ومنَّ تأمل في حقيقة أحوالهنَّ خفف من سخطه عليهنَّ
 ووجدنَّ أحقَّ بالشفقة من الفسوة. فان هذه الاموال التي
 ينهبنها والأسلاب التي يسأبنها لا تلبث في أيديهنَّ الا ريثما ينفقنها
 في الجليِّ والجَلال. والماهرة لا تنتهي حاجتها من الزينة ولا تخلو
 من حبيب تكفله وخبيل تقوم عليه نهى على الدوام في عسر شديد
 ودين ثقيل. ولان جميع ما عليها من الحليِّ والجواهر وما يتألق في
 عنقها من اللقائند وفي مصعبها من الأساور وفي رجليها من الخلاخل
 إنما هي كلها في الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصايغ والجوهرى
 في أشر لا فكاك لها منه طول الحياة. وهى كما رأيت تقضى ليلها
 الى الصباح في شرب السموم من الخمر وفي تحريك الاعضاء
 والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقوى الأبدان وفي اشتغال
 الفكر بمراقبة الناس وتكليف النجب اليهم وفي التفتن للتحايل
 عليهم ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاصمات مع دوام التذلل
 والخضوع لصاحب الحان. فاذا انتهت من ذلك كله وصلت الى

يُتِمُّهَا مُنْجَلَةُ الْأَعْضَاءِ مَفْكُكَةُ الْمَفَاصِلِ قُتِرْتِي عَلَى فِرَاشِهَا كَالرَّمَةِ
فِي مَكَانٍ هُوَ أَقْدَرُ مِنْ ذَلِكَ الْحَانِ وَأَفْسَدُ مِنْهُ هَوَاءٌ وَرَبِّمَا لَمْ تَذُقْ فِي
يَوْمِهَا طَعَامًا وَلَمْ تَتَنَاوَلْ فِي لَيْلِهَا غِذَاءً فَإِذَا قَامَتْ مِنْ نَوْمِهَا بَعْدَ
نِصْفِ النَّهَارِ قَامَتْ كَالَّذِي يُتَخَيَّلُهُ الشَّيْطَانُ مُصْدَعَةً مَحْمُورَةً لَا
تَشْتَهِي طَعَامًا وَلَا تَسِيغُ شَرَابًا حَتَّى إِذَا تَمَاسَكَتْ قَلِيلًا بَادَرَتْ إِلَى
اصْلَاحِ الْفَاسِدِ مِنْهَا وَمَدَارَاةِ الْقَبِيحِ فِيهَا بِأَنْوَاعِ الزُّبْنَةِ وَاللَّبَاسِ
وَقَعَدَتْ لِمُقَابَلَةِ زَائِرِيهَا أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا الْمَسَاءُ فَهُوَ مَوْدُودٌ لَمَّا كَانَتْ
عَلَيْهِ . لَا تَزَالُ الْمُسْكِينَةُ هَكَذَا دَائِرَةً فِي حَلْقَةٍ مِنَ الثَّعْبِ وَالْوَضْبِ
وَلَا خَلَاصَ لَهَا مِنْهَا إِلَّا بِجُلُولِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ ثُمَّ يُقْفَى
عَلَيْهَا وَهِيَ فِي الْمَعْصِيَةِ بَعِيدَةٌ عَنْ ذَوِي الْخَنُوِّ وَالْإِشْفَاقِ مِنَ الْإِهْلِ
وَالْأَقَارِبِ وَذَلِكَ هُوَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ وَالْعَذَابُ الْإِلِيمُ

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ - وَمَا رَعَيْنَا فِي طَرِيقِنَا إِلَّا صَوْتَ لَدَيْكَ
يُؤَذِّنُ بِالْعَصِيَاخِ . وَصَوْتُ الْمُؤَذِّنِ يُؤَذِّنُ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ .
فَأَمْرَعْنَا نَطْلُبُ مَا وَاوَانَا . وَنَذَرُكَ أُمَّ مَثْوَانَا . وَنَحْنُ نَسْأَلُ رَبَّ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ . أَنْ يَغْفِرَ مِنْ ذُنُوبِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ

﴿ العدة في الرهن ﴾

قال عيسى بن هشام - ولما ارتفع وجه النهار أو كاد . ومسحنا
عن النواظر كحل الرقاد . باحرنا كل الابدان . بالخروج من الدار .
لنلحق بأوثنك الرفقاء . في المكان المعين للقاء . فقصدنا « قهوة
العزيز » فوجدناها تتموج بالداخلين . وتضطرب اضطرابا بالواقفين
والقاعدين . فوقفنا برهة نوسل النظر إرسالا . وتصفح الوجوه
يمينًا وشمالا . حتى امتدينا الى « الصديق » جالسًا بفلسنا عن
جانبه . ورأينا العدة جالسًا بجانبنا مع صاحبيه . فاذا العدة
يثن تحت الهموم المتقاطرة . من سواد ليلته الغابرة . حيث ناله
فيها من الهوان ما ناله . وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفه وماله .
ورهن ما رهن من حلية ومتاع . من غير لذة ولا استمتاع . فهو
متخاذل متضائل . « له شق مائل . ولون حائل . وأغاب سائل » .
وسحنة مغبرة وأنامل مصفرة . وجفون حمرة . وأحداق جامدة
وأعضاء هامة . ورأس متصدع . ونفس متقطع . يفتح تارة
فاه . ويحك طورًا في قفاه . فيخاله كل من يراه . نضو سفر^(١)
أضناه السرى وبراه . أو حلف تسخير أدمته العصا وألمبه

السوط . ليباغ من جهد « السخرة » منتهى الشوط . واذا التاجر
بجانبه يقلب حذقيه . ويتحلب بشفتيه . ويصعد أنفاساً كالخريق .
في مزاب من الريق ^(١) . كأنه ذئب يهيم بالعثيان . ويخشى صولة
الرفعيان . أو صائد يخاف أن يخونه كيدُهُ . ويفلت منه صيده .
والخليع بينهما يطرق برأسه . ويكتم ما في نفسه . متفكراً ينكت
الأرض بعصاه . ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه . دائماً يبرم
الخدعة وبهي المدّة . ليستقطها على رأس الناجر ودماغ العمدة .
ورأينا هنالك من دونهم نفراً . لا يحولون عنهم نظراً . كأنهم
الطيور الجارحة . تتربح حماة سائمة . فاستخبرنا من الصديق
عن شأن هذا الفريق . فقال هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة .
والطائفة الراجحة الخاسرة . طائفة الوُسطاء والسمايرة وشاهدنا
الخليع يُوجي اليهم بالاحظ والنظر . كأنه يعاهدكم على النجاح
ولظفر . ثم سمعناه يقول للعمدة تهريتنا لأمره . ويسيراً عليه
من عسره :

(الخليع) - لا تهتم يا مولاي ولا تقم فالخطب أهون مما
تظن والامور بأمر الله ميسرة والحاجات بإذنه مقضية

(التاجر) - ان كان التيسير من جهة الاقتراض فأنا لا أنصهر
أن أرباب الاموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثيق من الرهن
ازوال الثقة بين الناس في هذا العهد عهد الماكسة والمضاربة .
وفي هذه الحالة أراني أولى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبي
فاني له أرجح جانباً وأربح عاملة وأنقص في قدر « الفائدة »
من سواي

(العمدة) - لا أرى في ذلك من بأس لو كان في الوقت
سعة وفي الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف
والمعاينة والتحديد والتقييم والتقدير والتحرير والتقييد والتسجيل
الى غير ذلك

(الخليع) - ولا تنسَ ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة
وقيح الشناعة بين الاهل والجيران. وصدق من قال : « بيع الشيء
خير من رهنه . والرهنُ بيعٌ وغبنٌ » وأنت بحمد الله لك صيت
بالغني وشهرة بالثروة وأنا أضمن أن توقيعك وحده يكفيك
مؤونة الرهن عند الاقتراض

(التاجر للخليع) - ما أحسن هذا لو أنه يتم ولكن لا تنسَ
أنت أيضاً ما قيل : « ان الذي يقرضك على الشهرة والسمعة .

لا بد أن يأخذ فائدة شهر في جمعة. وإن يخاطر أحدهم بأرباب
الاموال بماله من غير رهن إلا من ضمن لنفسه الفائدة الجسيمة
والربح الطائن

(الخليع للتاجر) - ما بالك تعمس علينا في الامور مع إمكان
تيسيرها ولا يأخذك شك في ما أقول فأنا أضمن الحصول على
القرض في هذه الساعة في هذه القهوة في هذه الجلسة . ولا
محل للتخوف من جسارة الفائدة ما دام وقت الحصاد قريباً
والتهديد عتيداً

(العمدة للخليع) - هكذا يكون للتسهيل والتيسير بين
الاصحاب والاصدقاء وهكذا تكبر محاسن الشيم يا أبا
المكارم والمهم

(التاجر) - قد قلت ما عندي وكل انسان حر في عمله
(الخليع للعمدة) - قل لي كم تريد أن يكون مبلغ القرض
(العمدة) - يكفيني على ما أظن مقدار مائة جنيه لسد

الحاجة في الحالة الراهنة

(الخليع) هذا التقدير ضعيف وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل
وبماذا يفيد وعليك قبل كل شيء تسديد مال صاحبنا هذا في ذمتك

من الدين ثم يتبعه ما لصاحب الخان لفكّ رهن الساعة والخاتم .
وأضف الى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذى تريد
سكنا في حلوان وما يتبعه من أثاث الفرش والاثاث . هذا غير
ما يجب ان يكون فى يدك للبذل والانفاق فى أوقات الأتس
والطرب وأنت بلا شك فى حاجة عظيمة اليها بعد كل هذا التعب
والكدر فلا بدّ لك حينئذٍ من اقراض مبلغ خمسمائة جنيه على
لاقل ولا سيما أن أرباب الاموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقلّ
من هذا المقدار ان كانت مدته قصيرة

(وهنا يومى الخليع الى جماعة السماسرة بالحضور فيتقاطرون عليه
فيهمس فى أذن أحدهم كلاماً ثم يحبر لهم بالخطاب فيقول) :
(الخليع) - اعلموا ان سعادة البك هو العمدة فلان الفلانى من
كبار المزارعين الذين يمتلكون من الاطيان والمقار ما هو معروف
مشهور ولم يسبق له اقراض مال قط وليس عليه دين مطلقا واملياته
واملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك وقد حأت به ظروف
استنفدت جميع ما كان يحمله معه للاتفاق فى مدة وجوده بالقاهرة
وهو الآن فى حاجة الى اقراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها فى
أوان الحصاد الآتى ولست أرضى له أن يقترض مثل هذا المبلغ

الزهد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجري عندهم
من طول التحرى والتتقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم بحالة
أعيان البلاد

(أحد السامرة) - مرحباً بسماعته مرحباً . وما هو بالجهول
عندنا فأننا نعرفه كأننا بما وصفته من شرف البيت وسعة المال زاده
الله منه . وكان للرحوم والدي مع الرحوم والده مائة مائة قديمة وصحبة
أكيدة . وطالما سمعت من والدي وأنا صغير السن أنه لا يوجد بين
أعيان القطر مثل الرحوم في الصدق والامانة وكرم الخلق وسماحة
النفس . ولكنك تعلم ان الدرهم عزيزة المزال في هذه الايام وقل
من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن يوازيه أضعا فاضاعة
ولو كان الامر لي وحدي أما تأخرت عن اجابة الطلب بدون ميثاق
أو رهن أو فائدة اكراماً للصحبة القديمة بين والدينا وتوثيقاً لعمري
الحبة بيننا ولكن شريكى في الاشغال رجل متفرنج من أبناء هذا
العصر لا يعرف حقوق المودة القديمة ولا يرضى بقرض المال الا اذا
كان مستجباً للشروط القانونية . ومع ذلك فأننا أعمل معه جهدى
وأترضاه بضمانى أولاً وبتشريف مقدار «الفائدة» ثانياً فان اتفقت
معي على أن تكون الخمسة بثمانمائة الى وقت الحصاد باشرت معه

الامر وقت بالخدمة الواجبة على سعادة البك

(التاجر) - سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم . أَيْكون مقدار الربا

فوق مقدار نصف القرض ما سمعنا بهذا في آياتنا الاولين

(السهمسار للتاجر) - لعل ولانا من المجاورين بالازهر الشريف .

فانه لا يستعظم مثل هذه الفائدة في الاحوال الحاضرة الا من يستقد

بتجريمها . على أن الربا محرّم عندنا أيضاً كما هو محرّم عندكم ولكن

« الضرورات تبيح المحظورات »

(العمدة) - حضرته ليس من المجاورين بل هو من التجار

المشهورين

(السهمسار) - اذا كان حضرته من التجار فلا بد أن يكون وافقاً

على ضيق الحال وقلة المال وكساد السوق وما لمّا بمقدار الفائدة في

قرضٍ من غير رهن . ثم إنه لا يجهل في الاشغال تكاليف المشاركة .

... والمساهمة ... والمقاسمة ... ان شاء الله

(التاجر) - نعم نعم ولكن يجب انقاص مقدار الفائدة على كل

جال فإن أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بستمائة وخمسين .

رضيتُ أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمتُ بذلك عليه

(السهمسار) - ما أصعب المعاملة مع التجار . وما دمت حكمت .

جكمك فلا مرد له عندنا وما علينا إلا الطاعة والقبول إكراماً
لسعادة البك فنفضلوا بالذهاب معي إلى الحل على بركة الله لإتمام
الامر مع شريكى

(الخليع) - لاجابة الى ذهابنا جميعاً ويكفى أن يذهب معك
سعادة البك وحده فان المسألة صارت بسيطة ونحن نمكث هنا
فى الانتظار

قال عيسى بن هشام - وقام العمدة مع السمسار وأقنا جالسين فى
حكاياتنا تشاغل بالحديث مع الصديق ونستفيد من واسع علمه أموراً
شقى مدة من الزمن واذا بالعمدة عائد أوحده يقطب الوجه من قبض
النفس فأسرع للخليع والعمدة الى لقائه واستخياره مما جرى له
(العمدة) - لعن الله الحاجة والاضطرار . وما كان أحنانا عن
هذا الخراب والدمار

(الخليع) - وماذا وقع بك ودمك . هل خاب الامل فى عقد
القرض أم فقدته وسُرقت منك الدراهم
(العمدة) - لم تُسرق كلها بل نصفها

(التاجر شاهقاً والخليع محملاً) - وكيف كان ذلك
(العمدة) ركبت مع الرجل وذهبنا الى محل شريكه فأجاسنى

هناك ناحية وكتب للصك وختمته ثم إنه انفر دبشريكه يناقشه
 ويجادله ثم عاد الى عابس الوجه يقول لى إن الامر متعذر متعسر
 وإنه بذل كل مافى وسعه من طرق الاقتناع والرجاء ليقبل شريكه
 بقرض المبلغ فلم يقبل ولم يتحول عن رأيه ، ثم أخذ يظهر لى أنواع
 التأسف والتوجع لخيبة مسماه ويشير على بالصبر أيا ما حتى تنفج
 الشدة وتنقضى الازمة . فأريته شدة مابى من الحاجة الى الدرام فى
 هذا الوقت وليس فى الاستطاعة تأجيل الاقتراض وسمعت بالرجوع
 اليكما لترشدانى الى باب آخر يأتى بالتيسر المطلوب فدانى شريكه
 عند ذلك وقال لى يمز على والله ان أردك خائبا وأرفض رجاء شريكى
 ولكنك تعلم مقدار العسير والضيق الذى لحق بهذا القطر فى هذا
 الهمام من كساد الموسم وانخفاض النيل وانتشار الدودة وكثرة
 المضاربات وظهور الأوبئة والطواعين . وأنا أقسم لك بشرفى وذمتى
 وأولادى انه لا يوجد فى محلنا من الدرام الآن سوى أربعمائة جنيه
 هى أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له فى استثمارها بكل
 احتراز واحتياط وأنا أضن بها وأحرص عليها أشد من حرصى
 على أموالى ومع ذلك فقد فكرت طويلا وهولت على أن أضنها
 بين يديك لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك وجعلتها أول خدمة

جارية تقدمها اليك . فاسرعت الى قبولها مع الشكر والامتنان . فأخرج صرة ووزن ما فيها من الذهب ثم سامة الى معدته فوجدته اربعمائة تماناً ثم وضعها في جيبى وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسمى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب فتلكا في الاجابة واعتذر الى بان فرق ما بين المبلعين يبقى عنده بمضه لربح اليتيم . وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماة إن وقع منى تقصير في التسديد عند الميعاد لاسمح الله بجاهي العادة السائرة اليوم . فها الى الامر ونبتت الدرام وطلبت منه أن يرد لي الصك في الحال فلم يلتفت لقولى واشتغل عني بالكلام مع بعض الوافدين اليه وأنا مقبم على مثل الجمر وكما أشرت اليه باشارة من بعيد ليكلمني لوى وجهه عني وأظهر الإشمئزاز منى فتفقدت السمسار الشريك داخل المكان وخارجة فلم أجده أنراً فاشتد بي الكرب وحرقتى الغيظ فلم أنم لك نفسى وهجمت على صاحب المحل فأمسكت بتلايبه أطالبه برده الصك فأظهر لى حينئذ من الملاينة والملاطفة ما حبل خناقه من يدى وقال لى إنه لا يمنعه عن إجابة طابى الا غيباب الشريك فان الصك كتب بحضوره ولا يجوز أن يسلمه الى بدون علمه فلى ان أنتظر أوبته . وبينما نحن على هذه الحال واذا بسعادة عمر بك

صهر مديرنا قد دخل علينا فآ وقع بصري عليه حتى تراخت مفاصلي
 خجلاً منه وحياءً أن يسمع ما يجري بيننا ويراني في مثل هذا الموقف
 فتسقط من رجلي في عينه وعين صهره فتمدت اليه وسلمت فردي على
 التمجية بالسكريم والتمظيم فلحظ اللئيم صاحبُ الحل ما أنا فيه فانتهر
 الفرصة وقص على سعادة البك قصتنا على حسب هواه وطلب حكمه
 في الامر . فقال له سعادة البك لا يليق بك أن تتنازع مع حضرة
 العمدة فأنا أعرفه رجلاً من عيون المديرية التي يديرها صهرى وله
 شهرة عظيمة بحسن السيرة وسمعة الثروة . ثم التفت الى وقال :
 وأنت لا يجدر بك أن تخالف حضرة الخواجه وهو رجل مشهور
 بالأمانة وحسن المعاملة وإذا كانت نقطة الخلاف في المائة جنيه
 فلي حجزها عنده لنفقات القضية فأنا لأشك في أنه سيردها اليك
 بتمامها عند إيفاء الدين في ميعاده وأنت بمحمد الله في ثروة لا تُصوّر
 معها التأخر عن التسديد وإن كنت لم تتعامل مع الخواجه إلا في هذه
 الدفعة ولم تجرب مقدار أمائته وحسن عهده فاني أكفل لك صدقه
 بوفاءه . فاضطرت من كل الوجوه الى التسليم والاذعان وأخذت
 الدراهم وسلمت على سعادة البك وقلت له عند خروجي لا يظن
 سيدي أنني اقترضت هذه الدراهم للضرورة والمسرقة الامور

ميسرة بفضل الله ونعمة الله وافرةً علىَّ كما يعلمه سعادة صهرهم
 المدير والسكنى وجدت فرصة لا تموت في أثناء إقامتي بالاصمة وهي
 مشترى أطيان من أحد أولاد لدنوات وهو في حاجة الليلة إلى استلام
 الدرون ولا يمكنه أن يماني ريثما أستحضر له المبالغ من البلد فاضطرت
 للاقتراض على هذه الصورة . فقال لي نيم ما تفعل وبارك الله لك في
 البيع والشراء ثم إنه حملني سلاماً وكلاماً لسعادة المدير وانصرفت
 وخلفته مقبياً مع الخواجه وحضرت اليكما ولم يدخل في يدي من
 مبالغ الدين للسنى بسبعمائة وخمسين جنيهاً إلا أربعاً جنية فقط
 فهذا معنى قولي لكما لم تسرق مني الدراهم كلها ولكن سرق نصفها
 قال عيسى بن هشام - وكنا نشاهد في أثناء هذا الحديث رجلاً
 واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاء من الكلام وهو يمد إليه يديه
 ويحرك شفتيه فتبيناً من هيئته أنه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة
 في قيمة الاجرة . ولما فرغ العمدة من كلامه بأدرك السائق بقوله :
 (السائق) - خلصنا من فضلك يا سيدنا السيد فقد طال وقوفي

وعطلتني عن شغلي

(العمدة) أنا لا أعطيك شيئاً زيادة مما دفعته اليك ففيه الكفاية

(السائق) - من يقول يا حضرة الشيخ ان خمسة قروش تكفي

في أجرة المركبة مدة ساعتين تنقلت في أثنائها من مكان الى مكان .
ثم عدت بك الى هذه القهوة . وأنا لا أبرح من مكاني حتى تعطيني .
الاجرة اللائقة بهذه المدة وان كان الذنب من جهتي لاني قبلت
أن تركب معي ورفضت ركوب الخواجه الذي استوقفني قبل .
ركوبك ظناً مني أنك من كبار العمد الذين لهم تردد كثير على العاصمة
ويعرفون مقدار اجرة المركبات ولكن ظهر لي الآن أن هذه أول
مرة لك في زيارة العاصمة وفي ركوب المركبات وجعلتني أفضل .
«بريطة» الخواجه على عمامة السيادة فلا حول ولا قوة الا بالله .
خلصنا ياسيدي

(الخامس للسائق) - اسكت من هذا الكلام البارد وهاك قرشا
سادسا خذهُ وانصرف

(السائق) - كن محضر خير يا حضرة الافندي واعلم أنني .
لا أقبل زيادة قرش أو قرشين . طلقا فلما الاجرة اللائقة وإما .
الذهاب معي الى صاحب المركبة

(العمدة) - دونك قرشا آخر فاتركنا واذهب لحلاك

(السائق) - كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش في أجرة .
هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار فهل تحسبها أجرة ركوبك .

من هنا الى محل الخواجه أو أجرة انتظارى هناك زيادة عن الساعة أو
أجرة ركوبك من محل الخواجه الى دكان الكوارع وانتظارك
مدة الاكل أو أجرة رجوعك الى هنا ووقوفك في الطريق عند
بائع الفاكهة .

(التاجر) - دكان الكوارع وبائع الفاكهة
«وَأَحَرَّ قَلْبَاهُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْمٌ»^(١)

أهكذا يكون شرط الصحة والوفاء تركنا على الجوع وتنفرد
حوتنا بالأكل ونحن همك ام نذق منذ أمس طعاما

(العمدة) - ما ألتأتى الى ذلك وحق الصحة لا الجرع المفرط
واحتياج الجسم الى ما يقيمه فاني أحسست بالنور ظلاما في عيني من
خلو البطن وأشهد أن الجوع كافر

(السائق) - ادركوني برحمتكم فهذا جندي البوليس يأخذ نمرة

الركبة ليكتبها في المخالفات حيث خلفتها واشتتات عنها بهم
(الخايع) - لقد صدعتنا وشغلتنا نخذ هذا القرش أيضا
- وأنا أخلصك من جندي البوليس والآ فاني أقوم الى
« القسم » وأرفع الشكوى لاجترائك علينا ولا تجرد في القسم

من برحمتك

(السائق) - ما باليد حيلة أعطى ما تريد وتمّ أشهد عند
جندى البوليس بأننى فى انتظاركم حتى أخلص من المخالفات والله
يموضنى خيراً ولا يحكم على بركوب أمثالكم مرة ثانية .

(الخايع للعمدة) عائدك - قد انتهينا والحمد لله من جميع
العميات فلننظر الآن فى تدير شؤوننا وهلمّ فادفع أولاً مبلغ
الصك المطلوب منك لصاحبنا هذا ثم نثنى بصاحب الحان لك
الربن ثم نثالث بمشترى المقتنيات اللازمة لك

(العمدة) - نعم لك ذلك وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا
جزاه الله خيراً

(الناجر) بعد استلام المبلغ - أستغفر الله فالفضل والشكر
لك على كل حال ولكن يتمذر دلى أن أرد اليك الصك فى الحال
لأننى تركته بالمنزل فالأليق أن تبقى المبلغ حتى آتيك به غداً
(الخايع) - سبحان الله ما هذه المعاملة التجارية بين
الأصدقاء الأوفياء وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط فى
معاملتهم . فتقديم الصك وبه عندك سيان مادام المبلغ تسده
لك ودخل فى جيبك

(العمدة) - صدقت صدقت فليس بين الاخوان ما يدعو للتوقي والتحرّس في مثل هذه الامور . وقوموا بنا الى صاحب الحان

(الخليع للتاجر) ضاحكاً - انظر اليه فلا يزال قلبه يحنّ وهواه يميل الى سكان تلك للمعاهد والديار

(العمدة) - أقول لك الحق . ان غيظي من معاملة تلك المرأة القاسية شديد وحنقي عظيم ولست أنسى ضروب تغنيها في التبدّل الىّ والتمنع مني ولا أغفل عن تلك النظرات التي كانت ترسلها الىّ بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها . وبودّي لو أراها مرة ثانية فأوسعها عتاباً وأشبعها تأنيباً

(الخليع) مبتسماً - أنا فهمت فريضك وعرفت نيتك . تريد من العتاب أن ينتهي بك الى التّنبّي وتخرج بها من التعنيف الى التلطيف وما ألدّ الرضى بعد الغضب وما أوثق الصداقة بعد العداوة . لكنني أقول لك قول المشفق الواضح إنك معها حاولت مع هذه المرأة فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها وإنما الرأي لك ان تلتصقها نهائراً وتدعوها للغداء . لك في بعض جهات النزعة وأنا أفضل نزعة

الاهرام على سواها فانها تكون هناك خالصة لك من دون الناس
يمزج عن العذال والرقباء

(الناجر) - ما أدق الحيلة وما ألطف الرأي

(العمدة للخليع) - لله درك فما حار من أنت حاديه . ولا

ضل من أنت هاديه . وهيتا بنا الى الحان أولاً لك الرهن

(الخليع) - واملنا نصيب خادم المرأة هناك فترسله اليها

بمرض التماسنا . ولا شك عندي في إجابة سؤالنا

(العمدة) - نعم نعم وليكن الاجتماع بها غداً فخير

البر عاجله

(الخليع) - لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله

قال عيسى بن هشام - وقاموا ونحن نعجب من كيد الانسان

للانسان . بما لا يأتيه حيوان مع حيوان . ثم بادرنّا نحن أيضاً

الى القيام . على أن يكون الاجتماع غداً في الاهرام

﴿العمدة في الاهرام﴾

قال عيسى بن هشام - ولما وقفت بنا الركب في ساحة الاهرام .

وقفنا هناك . موقف الاجلال والاعظام . فبأنة ذلك العلم الذي

يظاول الروابي والأعلام، والهضبة التي تملأ الهضاب والآكام،
والبنية التي أشرف على رضى وشام^(١)، وتبلى ببقائها جده
الليالي والأيام، وتطوى تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام، وتُفنى
بدوامها أعمار السنين والأعوام، خلقت ثياب الدهر وهى لا تزال
فى ثوبها القشيب، وشابت القرون وأخطأ قرنها وأخطأ المشيب،
ما برحت ثابتة تناطح، وافع النجوم، وتسخر بثواب الشهب
والرجوم وتحديث حديث المشاهدة والعيان، ما عاقب الفتيان^(٢)،
وتناوب المداوان، عن قدرة هذا الإنسان، فى بدائع الصنع
والإتقان، وتنبى عن قوة هذا الضعيف الضئيل، فى إقامة هذا
اللاثرا الجليل، وكيف جاز لهذا الفانى البائد، أن يصدر عنه مثل
هذا الباقي الخالد، وجل صنع القدير الخالق، فى تصوير هذا
الحيوان الناطق، حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة، والأفعال
المتعارضة، فيناتراه يصعد الى أجرام السماء وعوالمها،
ويبحث بفكره فى رسومها ومعالمها، ويسير بعده فى أنجاسها ومناكبها
ويهتدى لحساب أقدارها وكواكبها، اذ نراه يتر دائرة برجله،
فيكون فيها منتهى أجله، أو يكبو فى طريقته، فيقص بريقه،

ويَهْوِي بِإِذْنِ اللَّهِ إِلَى مَكَامِنِ الْخُلْدِ^(١) . وَهُوَ طَامِعٌ فِي شَجَرَةِ
الْخُلْدِ . فَهُوَ ذَاكَ الَّذِي كَبُرُوصُغُرُ . وَعَظُمُ وَحَقُرُ . وَعَزٌّ وَذَلٌّ .
وَكُثْرٌ وَقَلٌّ . وَصَعْدٌ وَهَبْطٌ . وَعِلَا وَسَقَطٌ . وَصَلَحٌ وَفَسَدٌ .
وَعَرَفٌ وَجَحْدٌ . وَسَعْدٌ وَشَقِيٌّ . وَفَنِيٌّ وَبَقِيٌّ . وَسَبْحَانِ الْقَاهِرِ
فَوْقَ عِبَادِهِ

ثم انتقلنا من التفكير . إلى التفسير . وانبرى الباشا يكشف
عن ضميره . ويقول لنا في تعبيره :

(الباشا) - كنت أعتقد وأنا في سالف الأوان . أن هذه البنية
لمصر تاجمُ الذي تفاخر به التيجان . وأعجوبتها التي تباهى بها الاقطار
والبلدان . وشاهدتها الذي يشهد لها بالمدينة والعمران . ولكني
أراها اليوم بعد أن استنضأتْ بنور العلم واهنديتْ بهُدَى العقل .
وبحثتْ في حقائق الأمور أن لا مزية فيها ولا خير منها سوى .
أنها أحجار مرصوفة . وجنادلُ مصفوفة . لا تمتاز عن أُجبلٍ من
الجبال . أو تلٍّ من التلال . فهل تعلمان لها من معنى غامض
التَّوَسَّى عَلَى فِهْمِهِ . أَوْ سَرَّ خَفِيٍّ عَزَّ عَلَى عِلْمِهِ
(الصادق) - ليس لها على الحقيقة من سرٍّ خفيٍّ ولا من

فائدة بادية سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطغاة الولاة كانوا يعتقدون بالرجعة في هذه الدنيا بعد المات وأن أرواحهم تعود ثانية الى أجسادهم بعد أن تنتقل مدة من الدهر في أجسام أخرى فكان همهم في حياتهم مصروفاً الى حفظ أجسادهم من البلّي بعد موتهم في قبور مشيدة قائمة على الدهر لتعود اليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها . والناظر في الآثار المصرية يحكم حكماً قاطعاً أن التقدم والتفنى في البنيان والتصوير عند المصريين ينتهى كله الى المعابد والمقابر ولم يكن من أثر انتشار المدنية والعمران كما يتوهمه الواهمون لأنهم كانوا فيما عدا ذلك على حال الخشونة الأولى في المأكل والملبس والمسكن فتري صور الملوك والأمراء حفاة عراة فضلاً عن سائر الرعية وتجد قصورهم وبيوت ملوكهم مبنية بلبن الطين كأدنى الأكواخ قائمين بذلك في جانب تسخير الامة بأسرها في نقل الصخور ورفع الأثقال لا ببناء مثل هذا البنيان واتخاذ قبراً لهم تحفظ في جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البلّي الى الرجعة ولكن الى المتحف متحف الجيزة - فتسخير الامة للمصرية وتمطيل أعمالها وتزريق أبدانها وإهراق دماؤها وإزهاق أرواحها في بناء هذه الصخور إنما

كان لفكر ساقط واعتقادٍ سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة
أو من عمل كاهن ما كره لمنفعة له معلومة . ومثل هذا لا يكون
فيه من غرر لا فخر ولا من عزة لا متزٍ وما هو الا الظلم والغشم والضلال
والجهل . وما لهُذين الهرمين من معي اليوم غير أنهما قائمان على
الدهر شاهدي عدل على سابق الاشقاء في الامة المصرية وما كانت
تقاسيه من فظاعة الذل والهوان ومرارة الاسترقاق والاستعباد .
ولو كان لأولئك الملوك أدنى لحة في ارتقاء المدنية والعمران
لكانت هذه الاحجار والبصخور مرتفعة في بناء القناطر والجسور .
وتالله لبأنى القناطر الخيرية مثلاً في نظر الباحث المدقق أحقُّ
بالعزة والفخر من أوثك الملوك عبَادِ الاوهام ومستعبدى الانام .
وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يُذكر سوى أنه صار يوماً من
الايام منبراً من المنابر اقله جبار آخر فرنسوى اسمه نابليون
تخطب من فوقه على جنوده بكلام بهز فيهم أريجيه التفاحر والتباهي
ويخدعهم به ليظلوا على المعى في طاعته يمارسون الحروب ويهانون
أهوال الوقائع ويصبرون على الموت والقتل في هواه . وما لهذا
البنيان اليوم من فائدة حاضرة الا كونه صار مورد رزقٍ لجماعة
من العربان التهور به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة .

ومما يحضرني الآن من كلام بعض المؤرخين في شأنه أن الملك الذي شيده أمر أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى : « إني ابتليت هذا البناء في ثلاثين عاماً فإن جاء بعدي من الملوك من يدعي القوة والقدرة فليهدمه في ثلثمائة عام » ولو عقل المسكين أنه سيأتي عصر من العصور يكون فيه لا حقر صعلوك أن ينسف هذا البناء في لحظة واحدة فيجعله كالعين المنفوش والهباء المنشور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيماوية لما افتتر بسمعة القرة وللإسلاطان . ولما تحدى بشئ يساهمه ليد الحداث . وليس للحدثان من أمان . اللهم إني أعلم أنه عمل ضائع . من جهل شائم . لا ينبغي للمصري أن يراه إلا بدمع منهر . وقلب منقطر . لأنه الشاهد الأكبر على كبرياء كبرائه . وهوان أجداده وآبائه

قال عيسى بن هشام - وهذا رأينا أصحابنا قد أقبلوا ودينهم تلك العاهرة الفاجرة فأشارت عليهم بالجلوس فأتخذوا لهم مجلساً في ظل من ظلال الأهرام وأنسطوا على بساط شرب وشتن . ففقطعنا من بيننا حديثاً واتهمنا إلى جوارهم لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم فإذا العمدة يقول للتاجر متظاهراً أمام المراء بمظهر

الباحث المدقق والعالم المحقق

(العمدة) - هل لك علم أيها الضاحك بشئ. عن أصل هذه

الاهرام وسبب وضعها وتأريخ تشييدها

(التاجر) - كيف لا يكون لي علم بذلك وقد وقفت على قصتها تماماً

وهرأتها مراراً في كتاب «قصص الانبياء» عند الكلام عن سيدنا نوح

عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بحيث يمكنني ان اقصها عليك حرفاً

بحرف ذلك ان الملك «سودرن» كان ملكاً على مصر قبل الطوفان فرأى

في منامه رؤيا افزعته فاستدعى السحرة والكهنة والنجمين وقص عليهم

انه رأى النجوم تنازرت والقمر هابياً الى الارض فقالوا له ان هذه

الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغرر الارض قريبا ولا يبقى على

شيء فيها فازتاع الملك واستشارهم اذ ايفعل للنجاة من هذا الحادث

العظيم فأشاروا عليه بابتناء هذه الاهرام حتى اذا حلّ الخطب انتقل

اليها واستعصم بها مع اهله وحاشيته وذخائره ركنوزة. فخشد الملك

الالوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل فأنمواله هذا البناء

في مائتين وخمسين عاماً ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير ونقل اليها

من نفائس الجواهر وذخائر الكنوز ما تعجب الناس في حمله ونقله

شهوراً كثيرة ثم إنه جمع السحرة فحصره بالارض واطلاسم

حوالما قرب وقت الطوفان لجأ اليها بأهله وحاشيته وطني الطوفان فلم
 يتنج منه الا أهل السفينة وعوج بن عنق وهذه الاحرام . وعوج
 ابن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام ولد في زمن جدته وأدرك
 موسى صلوات الله عليه وذكروا ان ذلك الطوفان الذي علانا لخصاب
 والجبال لم يبلغ حد ركبته فكان يخوض فيه مع السفينة فاذا أحسن
 بالجو مد يده الى قاع البحر فيأخذ الواحدة من السمك فيدنيها
 من عين الشمس ويأكلها مشوية . ولما انقضى الطوفان وعاد العمران
 الى الدنيا أخذ يميث في الارض فسادا دهرآ طويلا حتى بعث الله
 موسى عليه الصلاة فشكا الناس اليه ما يفعله عوج بن عنق فدعا
 الله ان يكفيهم شره وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه
 ليلقيها على أهل بلدة حل بهم فضبه فأرسل الله تعالى طيرا له مقدار
 من الفولاذ فزال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها فسقطت في
 رقبة حاملها وصارت غلا له يمنة عن الحركة والانتقال فجاء موسى
 بمصاه وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعا وطول العصا أربعين
 ذراعاً ثم إنه وثب في الهواء أربعين ذراعا وضرب عوج بن عنق
 ضربة فلم تتجاوز كعبه ولكن قوة سيدنا موسى ألقتة الى الارض
 فله من أولي العزم فوق عوج بن عنق في النيل خسره عن أرض

مصر سنة كاملة ووقعت الوحوش الضاربة نهش من رجله فكان
إذا مرّ عليه مارٌّ عند رأسه قال له : إذا وصلتَ بسلامة الله الى
قَدَمَيَّ فامنع عني ما يؤلمني من هذا الذباب ، يعنى الوحوش المفترسة .
وبقى على هذه الحال الى أن مات فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل
وانخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخره كهوفاً ومغائر تسكنها
وكفى الله العباد شره وفساده »

(العمدة) - سبحان اخلاق العظيم أرجوك يا الله يا أخى أن تشتري
لى نسخة من هذا الكتاب أحملها معى الى البلد ليقراها لنا إمام
المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا من الاشغال

قال عيسى بن هشام - وكان الخليل في هذه الاثناء مشغولاً بمحادثة
المرأة متفرغاً لها يضاعفها وتضاعفها ويضاعفها وتضاعفها فلما انتهى
التاجر من قصته اقبل الخليل على العمدة يلاطفه ويؤانسّه ويقول له :
(الخليل) - هل رأيت بالله عليك يوماً أعظم أنساً وأتم سروراً
وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا

(العمدة) - حتماً إنه يوم سعيد وأنس غير أنى كنت أود أن
يكون هذا المجالس فى البيت لافى اخلاء وتحت السقف لانتحت
السماء . فانك ترى كثرة السياح والعربان من حولنا وفى ذلك من

الاضيق على حريتنا ما لا يخفى عليك

(الجميع) - لا تخش الناس ولا تشغل نفسك بالخلق واغتنم
الذات بكل جسارة وإقدام وليس للانسان سوى ساعة الصغوان
لم يفتنهم اترك الدنيا بصفقة المغبون . وأنا أقترح عليك الان أن نعمل
مثل عمل السباح برهة في الصعود الى الاهرام حتى لا يفوتنا شيء
من أسباب التنزه

(التاجر) - دعنا من هذا الاقتراح فليس هو من شأننا وأية لذة
بالله عندك في صعود الجبل واحتمال المشقة والتعب مع التعرض
للخطر في كل خطوة

(الجميع) - هذا أمر سهل جداً وقل من يزور الاهرام الا
ويصعد فيها سافة على قدر جهده وانظر الى هذه النسوة الامريكيات
الصاعداً التنازلات في أيدي العربان أمام عينك هل تراها تخشى
خطراً أو ترهب تعباً وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال ان
نكون أدنى من النساء جرأة وإقداماً وعلى كل حال فلا بد لنا من
الصعود قليلاً ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو
والخلاعة . والسيدة توافقتني على هذا الرأي

(العمدة) - وأنا أوافق عليه أيضاً . وعسى الله أن نعرف في صعودنا

على فص من الفصوص المتيقة التي طالما عثرت على مثلها في التل
الكفرى بناحية بلدتنا . ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها
(التاجر) - أنا أنتظر كما معها

(الخليع) - لا بل تصعد هي معنا أيضاً اقتداء بهذه السيدات
قال عيسى بن هشام - ويقومون للصعود ويتلصق التاجر في
آخرياتهم ويحاول للتخلف عنهم فيدفعه العمدة بكل قوته بمأزحاله
وساخراً منه لشدة تخوفه وحذره والخليع والمرأة يُغريانه به ويضحكان
لضحكه وما كانوا يصعدون ليلاً حتي حانت من العمدة التفاتة
إلى الأرض فماله ما يديه وإبنها من الفضاء فامتقع لونه وارتعدت
فرائصه ومال على الدليل البدوي مستغيثاً به أن ينزله إلى الأرض
معتذراً لأصحابه أن الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود
فهدركه الخليع فيسند مع البدوي فيسقط من أيديهما فيحمله البدوي
على ظهره وينزل به فإيبلغ الأرض الا وتسرع من المرأة صياحاً
وعويلات من فوق الحرم وهي تناديهم جميعاً أن يمشوا لها عن فص
الخاتم الذي وقع من إصبعها فيأحق بها الخليع فيبحث فلا يجد شيئاً فينزل
مهما فيلقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عند ما تلتقاها بالبكاء والعلويل
ويغلب على ظن التاجر أن الفص ربما لم يسقط في حال الصعود

بل في حال الجلوس ويطلب من العربان ان يدركوه بغربال يغربل به الرمل عساه يجده فيه . هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت ولا يرقأ لها دمع ولا تنهي لها شكوى والخليع يطيب من خاطرها تارة ويميل على العمدة طوراً يظهر له الاسف من الحادث الذي كثر عليهم الصفو وأبدلهم بالانس حزناً وان هذه شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء او يكمل فيه سرور وما من لذة الا وهى مشوبة بالآلم :

فَسَدَ الزَّمانُ فَمَا لَدَيْدُهُ خَالِصٌ مِمَّا يَشُوبُ وَلَا سُرُورٌ كَامِلٌ
على أن المصيبة هيئة ما دامت في المال دون النفس ومن ذا الذي يدري بما هو غيباً له في الغيب والحمد لله على اللطف في القضاء . ولا يزال اخليلع بالعمدة حتى يتقدم الى المرأة ويقسم لها انها لا تبیت الليلة الا ولديها فصٌ مثل الفص الضائع فتشكره وتقول له أتني لها بمثل ذلك الفص وهو من الياقوت النادر المثل في لونه وصفائه فيعید عليها القسم بأنه سيأتيها في الغد بفص آمن منه وأجل . ثم إنه يشد على يدها نوثيقاً للوعد فتشد على يده للتقيل فيعز عليه حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص فيخلع خاتمها الذي استلخصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها بغيره . ويعودون الى مجاسمهم ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والانس . ويقول للعمدة بعد

استقرار المجلس بهم :

(العمدة) - ما أحسن المجلس وما أضيق الوقت وخبذا لو

واصلنا الليل بالنهار

(التاجر) - لعلك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية .

في ذلك الحان الذخوس

(الخليع) - وهل تظن انه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان

مثل ما نتمتع بها الآن وقد شاهدنا بأعيننا ما حولها هناك من

المزاحمة والخاصمة

(العمدة) - وما العمل حينئذ

(الخليع) - العمل أننى أكلفها أن تمارض هذه الليلة وترسل

الى صاحب الحان بتعذر حضورها عنده

(العمدة) - نعمَ الرأى ما ترى

قال عيسى بن هشام - وبأخذ الخليع في استعطاف المرأة لقبول

هذا الطلب فتمتنع اولاً متذرة بما بينها وبين صاحب الحان من

الشروط التى تقضى عليها بدفع عشرة جنيهات اليه تدوينها عن كل

ليلة تتأخر عن الحضور فيها . فبلغت الخليع الى العمدة ينتظر رأيه

فيميل العمدة على المرأة متعهداً لها بدفع هذا التعويض ثم يتسألون

عجبا بينهم كيف يقضون ليلتهم في الأتس والمسرور، فبى
 العدة قضاءها في البيت ويرى التاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في
 «البارات»، يرى الخليع قضاء جانب منها أولاً في مشاهدة الرواية
 - المديمة الجديدة التي تمثل في «التيانرو» العربي فيقع اتفانهم
 على هذا الرأي الأخير فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة
 أولاً، وينصرفون على هذا الزم المؤكد، والمعاد المحدد. ويعن
 «الصدق» ان تختلف عنهم. ريثما تنقضى فسحة الجزيرة بهم.
 وأن تقضى هذه المدة الوجيزة. في زيارة قصر الجزيرة. ثم للحق
 بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص، ودوان الروايات
 والاقاصيص

﴿ قصر الجزيرة والمتحف ﴾

قال عيسى بن هشام - ووصلنا إلى قصر الجزيرة ومتحف الآثار.
 يوم ألتقى السيارة من سائر الاقطار^(١). فدخلنا روضة تجرى الأنهار من
 بينها. كأنها الجنة بعينها. ولما رأى الباشا مسالك لروض منقذة
 بوطرقة مرصعة مزودة. حسبها أرضاً مفروشة. يسطر منقوشة
 بأشكال الأمر عليه. فهمت بخلق نعليه. فقلت طريقاً مبعده^(٢).

(١) السيارة النافذة واصحابها القوم يسرون (٢) طريق مبعده أى مذل

لا فرش منجد. وحصباء ومرّو^(١). لا بساط وفرو ثم شاهدنا
 قصرأ يكلّ عنه الطرف. ويقصر دونه الوصف. فسرنا نرناد
 خلاه. ونتفياً ظلاله. فاذا الأسود مقصورات في المقاصير.
 والأسود مكفوفات في القوارير^(٢). ورأينا النور في الخدور.
 والوئال^(٣). في الحجال. والذئاب. في القباب والظباء. في الخيام.
 فقال الباشا لمن هذه الجنان. وكيف يسكنها الحيوان. وما علت
 من قبل أن الليوث الضواري. تسكن مناني الجوارى وأن أولاد
 البعيد. تتحجب في خدور الغيد. فقلت له سبحانه القادر العظيم.
 هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم. طالما كانت حُجراته مطلع للأقار.
 ودرجاته منازل الأقدار. كان اذا نادى صاحبه فيه « يا غلام ». .
 شقيت أقوام وسمعت أقوام. وأبى نداه البؤس والندى. بأسرع
 من رجع السدى. وكان من احتمي بظل هذا الجدار. تحامته
 غوائل الأزمان والأدهار. — هنا كان يفصل الامر ويحكم.
 ويُنقَضُ الحكم ويُبرم. — هنا كانت تنفرط فرائد القلائد. من
 أجياد الخرائد. فتخلط بمشور أزهاره. وتُرصع أجين أنهاره. —

(١) انمر حجارة بيض وفاق براءة (٢) الاسود جمع اسود وهو النظم من الحيات

(٣) الرمال جمع رال وهو ولد النعام

هنا كانت تنذر الخيل من قدود الحسان. فتشبهه بأثمار الافصان. —
 هنا كانت تصدح القيان على المزار والاعواد. فتجدها ذوات
 الاطواق فوق الأفنان والاعواد. فأصبح اليوم حديقة مبتدلة
 عامة. وموطئة لأقدام الخاصة والعامة. وأصبحت أرضه تكثرى
 وجنى أشجاره يُباع ويُشترى. ودوى فيه صياح النور وزئير
 الأسود. وامتلات أرجاؤه بنواء الدثاب وهممة الفهمود. وزال
 ما كان فيه من عزٍ وطول. ومجدٍ وصول. وأيدٍ وحول. وصديق
 الكتابُ فحقَّ عليه القول :

في هذه الدار في هذا المكان عَلَى هذا السرير رأيتُ الملكَ قد سقطاً
 وذكرت للبasha ما كان لصاحب هذا القصر. ومليك ذلك
 العصر. من الجدة الصاعد. والبنخت المساعد. وما صار اليه بعد
 ذلك من نحوه السعد. وما دهاه في القرية الى سكني اللحد. وما
 ذاقه في هذه الدار دار الفناء. من مثل عذاب تلك الدار دار البقاء:
 نالوا قليلاً من اللذاتِ وارتحلوا بِرِغْمِهِمْ فاذا النماء بأساء
 ثم وقف البasha برهةً ففكر فيها واعتبر. وتلا: «واقعد جاءهم
 من الأبناء ما فيه مزجرٌ حكمةٌ بالغةٌ فما تُغْنِي النذرُ»

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة. حتى انتهينا الى دار التحف

المتيعة . فدخلناها نراها ما أبرزته يدُ البحث من اخفاء الى الظهور . وما أعادته قوة التقيب من البلى الى النشور . وما صانته أحواد القبور . من يد الفناء والدثور . وجنته أحشاء الرثوس . من العفاء والدروس . وما أجنّته أرحامُ المعابد والهيكل . من بقايا المواضي وخفايا الأوائل . وما انسدت عليه سُجوفُ الأحقاب . من ودائع الأسلاف للعقاب . وما انشقت عنه الأرض من مكثون الدفائن . ومكنوز الخزائن . وهجائب الفن الدقيق . وبدائع الصنع الأنيق . بليت في اصطحابها جدّة الأيام والليالي . وانجنت على احتضانها ظهورُ العصور الخوالي . ومضت دول بعد دول وذهبت أول في إثر أول . واندثرت مدائنُ ونشأت مدائن . وبادت مواطنُ وقامت مواطن . وانقلبت الأغوارُ أنجادا . والأبحار أطوادا . وغدا العمارُ خرابا . والغمارُ سرايا^(١) . والسرابُ غمارا . والخرابُ غمارا . وهي هي مصونٌ شكها . كما تركها أهلها . لسانٌ صادق . وخبرٌ ناطق . تنطق بالمعبر . وتحدث عن غير :
مَضَتْ غُفَرَاتُ الْعَيْشِ وَهِيَ غَوَابِرُ^(٢)

على الدهر مكتوب عليها حوائسُ

(١) الغمار جمع غمر وهو معظم البحر (٢) غبرات غبر الشيء قبضه . وغوابير جمع ظاهر وهو الباقي والمأخوذ

وأفنا هناك تنتقل بين الاصنام والتماثيل. وتأمل في التصاوير
والتهاويل^(١). وتنفكر في هذه العظام المنشرة. والرفات للنظرة .
بما عليها من الحلي والزينة . وتلك الاحجار الثمينة . كيف كانت
ملوكاً للأمم . ثم بقيت على يلى الرمم . وتوالى القِدم . في حال
الوجود مع المدم .

ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوى العاه . مع فتى من الطرز المتخاذق
المتعالم . ظهر لنا من أمرهما . وتبين من شكلهما . أن الرجل عينٌ
من أعيان المدينة . وأن الفتى ابنٌ له وزينة . وإذا هما يتناظران
ويتحاوران ، في ما يرَيان ويُبصران . فدوننا منهما . وأنصتنا إليهما :
(الابن) - أشهدتَ مشاهدَ عزتنا ورأيتَ معاهدَ خفنا وعلمتَ
كيف كان مقدار مجدنا وإلى أية رتبة بانَتْ بنا صناعةُ أجدادنا
فقلْه درهم ما كان أرقاهم في الفكر وأبدعهم في العمل ولو أن نوابغ
الامم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة . ونزلوا الى ميدان المناضلة
والمناظرة . لَمَّا سبق المصري منهم سابق . ولا تعاق بأثره لاحق .
ولكان له من بينهم الكعب الأعلى . والقِدْحُ المَلْأى . وهذه
الآثار في يده يفاضل بها ويفاخر . وينشد عليهم قول الشاعر :

(١) التهاويل زينة رتبة التصاوير والنقوش

هذه آثارنا تدل علينا . . . البيت

(الوالد) - ما أرى شيئاً في هذه الآثار التي تمجد بها وتفاخر
يفوق ما يكون في السوق من البضاعة الكاسدة والاسلع البائرة وما
يتخرج عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والامتعة البالية
(الابن) - كيف يكون منك هذا القول وهي شهادة للعالم
أجمع أنهم من كل نمين وأنفس من كل نفيس لا تقويم لها ولا تقدير
إلا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وكيف غاب عنك تهافت
هؤلاء الغربيين أهل المدنية الحاضرة على اقتناء شيء منها بالمال الجم
وتنافسهم في التمتع بمشاهدتها يتحملون لذلك الاسفار البعيدة .
والتعاب الشديدة ولا يهملونهم هم أهل الهدى والهدى . أن يشتغلوا
بباطل . أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل

(الوالد) - لكم دينكم ولى دين . وما أزال أكرر القول لك
بأننى لا أجد في نفسى شيئاً مما تشعرون به في هذا الباب . وما أراه
من هذه الاحجار والتماثيل لا يساوى في نظرى إلا أنقاض بيوت
عفت أو طولت درست وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل أنها
أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسح كان التعلق بها والتعبد بها
يفضب الخالق ولا يرضى المخلوق وأما قولك إن فيها منتهى غرنا

ومجدنا لانها من صنع ابائنا وأجدادنا وإن آباءنا وأجدادنا هم من
نسل هذه الرمم الفرعونية فإنه إثمٌ ونُكْرٌ أستعيد بالله منه « كبرت
كلمةٌ تخرجُ من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » ما كان أجدادنا
وآباؤنا الا أولئك العرب الكرام اهل الدين والاسلام لانفاخر الا
بمفاخرهم ولا ننسب لغير أصلهم. وأما من جهة الصنعة في كل ما
أراه هنا فان ضبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار
والاحجار ويتفننون في تقليدها فتخرج من أيديهم وهم بين الروث
والطين أتقنَ صنعا من هذه الحجبة في القصور المصونة في البلور
(الابن) - علم الله لو كان في لغتنا العربية من الكتب لاولفة في
مزايها هذه الآثار مثل ما في اللغات الاجنبية لعلت منها ما لم تكن
تعلم على أن مجرد النظر يكفي وحده لإثبات هذه الآيات والمجرات
في حسن الصنعة والدقة أفلا تنظر الى هذا التمثال البديع تمثال شيخ
البلد وهو قطعة واحدة من خشب الجيز . فما أدق الصنع وأتقن
العمل وما اكمل الشبه وأجمل الصورة

(الوالد) - نحن في كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم
لا من خشب وحجر . فدعني على غباوتي وجهلي وبارك الله لك
في علمك وعقلك

(الابن) بصوت خفى «وانغفر لابي انه كان من الضالين» -
 (ثم يبحر بالقول) - لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا وملثم بنا
 فقد حلّ لليماد المضروب بيني وبين ذلك السائح الذي زارنا بالأمس
 لتناول العشاء معه في «أوتيل شبرد»

(الباشا للصدق) بعد انصرافهما - ماذا تقول في هذه المناقشة
 وما دار من الكلام بين الولد والوالد

(الصدق) - ما عساي أن أقول غير ما قاله الله عز وجل :
 «تَخَلَّفَ مَنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ
 فَسُوفَ يَلْقَوْنَ فِيهَا» وماذا نرى هنا غير الذي رآه هذا الوالد
 الساذج : قبورٌ مالموبة ورموسٌ مأكوسة وأجداث منبوشة .
 فان كان الغرض من عرضها للمبرة والموعظة فان فيما هو أمامنا كل
 يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش . الى خشب النعش . ومن
 وسائد الحجر . الى مساند الحجر . ومن ظهور الصافنات الجياد .
 الى بطون الديدان في الاكفان والآلحاد . لنعيم الموعظة الحاضرة
 للتبخر والحس . والحكمة البالغة للعقل والنفس

(الباشا) - هذه هي الحقيقة بينما في نظري الآن وقد كنت
 أحسب أن لهذه الآثار شأنًا عظيمًا فيما مضى من دهرى عند

ما كنت أرى تهافت الغربيين عليها في زمن الولاة السابقين ولكن
 لعل شأنها عندكم وعلو قيمتها لديهم هو لأجل توغلها في البلى والقديم
 ومحلتها من التاريخ وما تحمله منقوشاً عليها من أساطير الأولين
 (الصديق) - نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشياء قيمة
 عند الغربيين فإنما هي كما تقول لتعلقها بمباحثهم في أخبار الأوائل
 وفلسفة التاريخ وزد على ذلك حبهم للاقتناء ولوعهم بالاختصاص
 بالنادر ولذلك هلت قيمتها عندكم وارتفع قدرها بينهم وليس
 للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثاراً تفوق
 في القدم مثلها من بقية المتاحف . ولو أنك عرضت أهل مصر
 على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ولا أفادوك
 عنها شيئاً ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى التزدد اليسير من المقلدين
 للغربيين ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد
 يفقه لغة « الهيروغليف » أعنى لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون
 مع كثرة الخبیرین بها من الامم الغربية والله أعلم بمقدار علمه بها .
 ولو تمتعت الاماني لقات عسى الله أن يخفف بقیةا المعالیة بعض
 ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من
 أعباء الضرائب والمكوس . ویالیت المصريين یخرجون عنها الاعلیهم

ولأهل قانها تكاف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها في خبايا
الارض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها الى المتحف
وناهيك بنفقات المتحف التي أنفقتها الحكومة أولاً على متحف
بولاق وثانياً على متحف الجيزة ومائنتفه ثالثاً على المتحف الجديد
بقصر النيل قانها تُعدُّ بالملايين

(الباشا) - كنتُ أرى رأيك هذا وأتفق معك لولا أن يقال
إن في المحافظة على هذه الآثار والحرص على بقائها بمصر مزية أدبية
لها قدر عظيم يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى
على الآثار والتحف وشدة صنهم بها فلا يرغبون أبداً في بيعها
والنخلت عنهم ويرون فيها فخرهم ومجدهم فلا يليق بمصر أن تشد عن
هذا السبيل

(الصيديق) - إن حرص أهل الممالك على ما في متاحفهم من الآثار
وتفاخرهم بها هو لانيها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار
واشارة الى المجد القديم والعز التليد ولكن أين علامة التغلب والانتصار
عند المصريين وما هي إشارة المجد والشرف في هذه الرمم البالية رمم
أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين - ولأن الغربيين
في غير حاجة الى قيمة أثمانها فهي عندهم من الكماليات . أما عندنا

خالاً من العكس ولم تأتِنا هذه الآثار من جهة الافتح والنصر .
 وإنما جاءتنا من طريق التبشر والحفر . والضريون في حاجة الى المال
 لا إقفاف في ضروريات للمعيش وقلماء يمر عام الا ويكشف
 المكشوفون في مصر من هذه الآثار الشيء الكثير بحيث يوجد
 لكل نوع منها أشباه كثيرة فاضر المصريين لو تخاؤا عن بعض هذا
 الكثير الزائد وعن تلك الأشباه المتعددة وانفقوا بقيمة أثمانها في
 بعض شؤونهم العامة ويبقى في المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفي
 لفخفة والمباهاة ومباراة الأمم في تشييد المتاحف . وإن كان قد
 جاز لحكام مصر السابقين ان يهادوا ملوك أوروبا وأميركا بالجانب
 العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم في الانحاء الخلفة
 عن أقطارهم وإن يفضوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية
 تسليها أو ابتياعها من أيدي الفلاحين بدرهم أو دينار فلم لا يجوز الانتزاع
 عن بعضها الانتفاع بأثمانها وهي على ما تراه - مالا يباع فانه يتقسم -
 وجملة القول ان الانتفاع بها اليوم قاصر على الاجانب وحدهم إما
 يشاهدتهم لها في ديارنا أو بابتعاها مسلوكة الى ديارهم . وأي حار على
 الأما المصرية ان تصرف في بعض الآثار لتشابهة التي تنبت لها
 المكشوف والتلال في كل يوم لتتفع بأثمانها في ترقية شأن المعارف

وبث الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للارضة بدار الكتب
المصرية في المطبعة الاميرية التي طالما أفادت الناس بطبع الكتب
النافعة في أيام الحكومة السابقة حكومة الجهل والظلم . وخبروني
ناشدكم الله أي نفع وفائدة للامة المصرية الاسلامية في أن تُنشر
بين يديها رسم الفراعنة في الانتكخانة وتُقرأ أرواح العلماء والحكماء
في الكتبخانة . وأي الامرين أعظم نفعا وأكثر مجا أن يُعرض علي
أعيننا عمال « إيديس » وصورة « إيزيس » وذراع « رعمسيس »
وتخذ « أمينوفيس » أو أن تتداول الأيدي كتابا للرازي ومقالة
للفارابي وفصلا لابن رشد ورسالة للجاحظ وقصيدة لابن الرومي .
ما تجرى الامور عندنا شهيد الله الآلى التناض وماتسير الآلى
خلاف المصلحة

قال عيسى بن هشام - وجاء أوانُ الخروج فقمنا نسمى . لنأحق
بأصحابنا في الملهي . ونشاهد ما يتم عليه حالهم . وينتهي اليه آلمهم

﴿ العدة في الملهي ﴾

قال عيسى بن هشام - ومُدنا الى المدينة وقد مدَّ الغروبُ حبالته .
ليقتنص من الأصيل غزائته . فطارت نفسها شعاعا^(١) واضمحلت

قرصها شعاعا . وجدت نافرة الى كناسها . وهي تصعدُ الشفق
من أنفاسها . ثم اخفت شقائق الشفق . تحت أكام الأفق . ولما
أن اخضر من اليل جانبه . وطرت شاربته . وتوقدت مصابيح السماء .
في قباب الظلماء . قصدنا دار التشخيص والتمثيل . وبيت التصوير
والتخيل . فدخلنا مع الداخلين نساء ورجالا . أجناسا وأشكالا .
واخترنا جلوسنا الكراسي دون الغرف . لتيسر لنا المشاهدة من كل
طرف . ثم جلسنا نحدد النظر . في مَنْ حضر . وإذا نحن بين أخلاط من
الطبقات اختلفت أزيائهم . واتفقت أذوائهم وأهواؤهم . وعلا
ضحيجهم وصياحهم . وكثر اعيهم ومزاحهم . سببا وشتما . ولكزا
ولكما . ثم يتمايل بعضهم على بعض . ويضربون بعصيتهم وأرجلهم
ظهر الارض . رجالا وعلما . شيئا وولدانا . متظاهرين بملل
الاصطبار . ومطالبين برفع الستار . ثم حولنا النظر الى أعالى الشرف .
وجوانب الغرف . فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر .
تشف عن لوامع الآلى والجواهر . في نحور الحور من مكنونات
التصور . ويضات الخدود . ولولا النادب لتخيلناها من بنات الفجور .
فهن يزحزن من الوشى والخبر . ويكشفن عن الطرر . تضيء
بالغرر . ضوء اليل تحت القمر . ويتراين تراين الكواكب والنجوم .

من خلل السحب والغيوم :

وَتَقَبَّتْ بِخَفِيفِ غَيْمٍ أَيْضٍ هِيَ فِيهِ بَيْنَ تَخْفَرٍ وَتَبَرُّجٍ
 كَتَنَفَّسِ الْحَسَنَاءِ فِي مِرَآئِهَا كَمَلَتْ عَاسِنُهَا وَلَمْ تَتَزَوَّجْ
 وَالرِّجَالُ مِنْ تَحْتِهَا يَنْظُرُونَ وَيَتَشَوَّفُونَ وَيَتَشَوَّقُونَ وَيَتَلَهَّفُونَ.
 لَا تَنْتَنِي أَبْصَارُهُمْ مِنْ وَجْهِهَا ، وَلَا يَحْوِلُونَ الْوَجْرَهُ عَنْ قِبَلَتِهَا ، فَمَنْ
 قَامُوا عَلَى عِبَادَتِهَا مَا كَفَوْا ، لَا يَنْفَكُونَ عَنْهَا وَلَا هُمْ يَسْتَنْكِفُونَ .
 وَهِيَ يُؤَالِيَنَّ الضَّحَكَاتِ ، وَيُتَالِيَنَّ الْحَرَكَاتِ ، وَيَتَبَادَلَنَّ مَعَهُمْ
 اللَّغْزُ ، وَيَتَبَادَلُونَ مَعَهُنَّ الرَّمْزُ وَيُرَاسِلُونَ بِمِرَاحٍ تُغَيِّرُ مَكْفُونِ
 الْهَوَى وَالْفَرَامِ ، وَيَشِيرُونَ بِمَنَادِيلَ تَغْنِي عَنْ فَصِيحِ اللَّفْظِ وَالْكَلَامِ .
 وَقَدْ خَرَقَتْ الْأَصَابِعُ نَسِيجَ الْأَسْتَارِ لَتَنْفِذِ مَنَارِ السَّلَاحِ زَهَارِ .
 وَتَقَابَلَتْ بَيْنَهُمُ الْمَنَاطِيرُ بِالْمَنَاطِيرِ ، تَدْنِي الْبَعِيدَ وَتَكْبُرُ الصَّغِيرَ ، وَكُلُّ
 فَتًى يَرَى أَنَّهُ الْمَرْمِيُّ دُونَ سِوَاهِ بِالْأَنْظُرَاتِ ، وَأَنَّهُ الْمَعْنَى بِتِلْكَ
 الْإِشَارَاتِ فِيَصْنَعُ التَّجَمُّلَ وَالْفُضْرَفَ وَيَتَكَافَى التَّنَاقُصَ وَاللِّتْلُفَ .
 وَفَوْقَ أَعْلَى الثَّرَفَاتِ أَقْوَامٌ وَأَيُّ أَقْوَامٍ ، مَنَازِحِينَ أَكْوَامًا عَلَى
 أَكْوَامٍ ، كَانَهُمْ فِي سَوْقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْأَنْعَامِ ، لَا يَنْتَهَوْنَ فِيهِ عَنْ
 الشَّجَارِ وَالْخُصَامِ ، وَتَقْدَرُنَا أَصْحَابُنَا فِي أَنْحَاءِ الْمَلْهَى ، فَوَجَدْنَاهُمْ فِي
 غُرْفَةٍ وَالْعَاهِرَةِ فِي أُخْرَى ، وَقَدْ تَزَيَّتْ بَزَى الْأَجْنِبِيَّاتِ فَنَبَذَتْ

الخِمار والازار . وتبدت في القُبعة والزَّار . وهي تغازم العمدة
 بعينها . وتشير اليه يديها . والخليع يكون قارة في الغرفة عندها .
 وأخري يظهر في غرفة بعدها . الى أن دق الجرس بالدخول .
 وارتفع عن اللعب ستره المسدول . وظهر فيه أمامنا طائفة من
 الممثلات والممثلين . ما بين ملحنين ومرتلين . على طريقة يمجها
 السمع . ويعافها الطبع . وبكلام مبهم . وألفاظ لا تفهم . كأنهم
 حداة في مفازة ^(١) . أو سعاة في جنازة . وهم في أزياء متعاكسة .
 وأشكال غير متجانسة . وثياب تنافرت ألوانها . على أشخاص
 تباينت أوطانها . وظلوا يعشون بالاناشيد والتلاحين . ثم انصرفوا
 عنا بعد حين . ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل . مزجج الحواجب
 مكتهل . مصبغ الخد والجبين . بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين .
 فأخذ يخطر ويتثنى . ويهتف ويتغنى . وبجانبه امرأة نصف . تمايل
 وتنمطف . لا تقل عنه شيئاً في باب التصنع والتدهن . والتضع
 والتلون . يقول لها في شكوى الغرام . وشرح الوجد بها والهيام :
 « يا حبيبة الفؤاد . وغاية المراد . ما ألفت هذا الشكل . فبيتاً
 بنا لنقتم الوصول »

فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخلل الوسيم . اذا ساعدتنا أُنحس
 نسيم . . فدير أنت ما عليك . وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك . »
 ثم تنصرف الفتاة ويبقى الفتى في انتظار حضور الأم فتدخل عليه
 واذا هي عجوزٌ شوهاء وجلبانة رزهاء ^(١) فيتصل بينهما الكلام
 وينتهي بالقبول والاتفاق ويضع الفتى في يدها كيساً من الدراهم عند
 مفارقتها إياه ثم ينصرف متجولاً يمشي وينفي مدة من الزمن ثم يذهب
 لسبيله . وتأتي الأم ومعها زوجها واذا هو رجل قد أثقلت ظهره
 السنون ولم تقدمه التجارب شيئاً فتمتحنل عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده
 على ابنته في بيته فيمتنع ويتعال بقوله : « حقاً ان ذلك الشاب
 هو ألع من الذباب . وهر عندي أفسق من الشياطين . وأخبث
 من البراذين . لا يترك من النساء الدون . ولا المجوز الحيزبون . »
 فتجيبه بقولها : « لا تخف أيها الزوج الافضل . فكل الطيور
 تؤكل . وابنتنا العاقلة الحلوة . لا يُخشى عليها منه في الاجتماع ولا
 في الخلوة . » ثم يطول الكلام بينهما وينتهي بقبول الوالد مادبره
 له كيد الوالدة . ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتمانقان ويتلازمان
 وتقول له في حديثها : « الحمد لله أيها الشاب الانيق . على التيسير

(١) الجلبانة المهداة السنة الخلق والورهاء الخفاء

والمتوفى . فقد سملت أُمى لنا الطريق . ولم يبق أمامنا الا استرضاء
 الخادمة . حتى تكون لاسرارنا كاتبة « فيجبها : » نعم وان لم تطاوعنا
 خلتها تصبح حزينه نادمة . لاني أقسم يابنت الكرام . بما بيننا من
 الحب والغرام . أنى أذيقها كأس الحام . بحذ هذا الصمصام . لان
 لم تنته عن تسهيل الارب . بقبول ما في هذا الكيس من الذهب . «
 فتقول له : « آه يا حبيبي ما أطرب الجلوة . وما أطيب الخلوة . حيث
 نسيح في بحر الذشوة . وهيا بنا اليه اللهم . فأنى اسمع صوت أقدام .
 وعندى الآن أن أحسن طريقة . ان تناشق نسيم الصبا في زوايا
 الحديقة . فيقول لها : « حفظت يا سيدتى ومولاتى ومنيع حياتى
 ومماتى . فالآن قد بزغت شمس سعودى . وعطر الاكوان
 عرف ندى وعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بهما غيرهما في تداول الكلام بينهما مرة
 عن سرقة واحتيال . وخيانة واحتيال . وأخرى عن اجترام واقتراف .
 واختلاس واختطاف . ثم حلو بينهما الضجيج ويصيحون بفناء كأنه
 نذب وعويل

وعلى هذا ينتهي الفصل الاول ويرخى عليه الستار ويبدأ الحاضرون
 حينئذ في الصفيير والتصفيق والتأوه والشهيق كأنهم جميعاً في نوبة

من الصرع أو المس. ثم انهم يتنسلون الى الخروج اشرب الخمر والتدخين
وتقيم نحن جلوساً في مكاننا فيلذت الى الباشا ويقول :
(الباشا) - لقد سئمت - عليم الله - وملاّت من منظر هذه المراقص والملاعب
فما أشبه بعضها ببعض وما أجمعها لأشتات النقائص والردائل على اختلاف أوضاعها
(عيسى بن هشام) - ليس هذا المكان في أصل وضعه بمرقص ولا ملعب
هذا هو « التياترو » المعروف عند الغربيين بأنه أصل التثقيب والتأديب ومنبع
الفضائل ومحاسن الاخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو عندهم توأمة الجرائد
هذه تعظ بالخبر وهذا يعظ بالنظر فيفوس في النفوس صورة الفضيلة مجسّمة
اللابصار بما يعرضه على الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل في الأزمان
الغابرة أو الحاضرة ويفعل في النفوس مالا تفعله الرواية والخبر وهي في بطون
القصاص والسير فيمثل لك محاسن الفعال ومحامد الخصال وما تأتي بأعواقها
من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود وإن اعترضتك بها المصاعب فالتك
المناعب ويشرح لك شناعة الرذيلة ويصور فظاعة التقيصة وما يكون في عاقبتها
من السوء وفي أثرها من المكروه وان خلبتك بمنظرها ساعة وخذ عنك بهرجها برهة
فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ما عساه يرزقك عن القبيح ان هممت به ويرذك
الى الحسن إن تقاعدت عنه ويهديك الى الطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة
الى الشهود ومن القول الى الفعل فتتجذب نفسك الى أنواع الفضيلة من شجاعة
وشهامة وكرم ومروءة وأمانة ووفاء وسباحة وصباحة وصبر وحلم ويترطبلك
عما تجمعه الرذيلة من دناقة وجبن وخيانة وغدر وجهل وحقد وفحش وفسق
(الباشا) - ان كان الامر كما تقول فكيف تسنى للمصريين أن يقبلوا

وضعه ويشربوا شـكله ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الحان فلا فرق
عندي فيما أنظره هنا الآن وما رأيته في الحانات الأخرى من الرقص والغرف
ومعاقرة الخمر ومغازلة النساء وتمثيل أحوال العشق بأعظم شكل يفرى به
ويهيج من شهوات النفوس اليه . فإذا كان التشخيص على هذا النمط معدوداً
بينهم باباً من ابواب الآداب وهم يحضرونه ويشاهدونه على هذا الاعتقاد
فإن شره عندي أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى لأن الداخل
اليه لا يزى على نفسه من لائمة يتقيا في دخوله ولا ينكر على أدبه منكرآ فيه
ولا يخشى انتقاداً عنده فتمتزل النفس في غيها ولا تجد منها لها رادعاً ولا وازعاً
بخلاف الحال في الداخل الى تلك الحانات فإنه يدخلها وهو وثق بأنه قادم
على ما يلام عليه ويعاب فيأتيه وفي نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يوماً
عن غيّه وجهله . والاقدام على الحرم الخضرّاح فيه من تأنيب النفس ما يزجر
ويشهى لكن الاقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهياء والمصيبة
العامة فلا وازع من الخجل والحياء ولا زاجر من خوف الهلاك والعقاب

(عيسى بن هشام) - لاناخذن ما تراهنا من التصغير دليلاً على أن هذا
الفن غير مفيد للآداب فقد قدمت لك أنه فن غربي ووصفته لك بمقدار
ما وصل اليه من الاتقان لدى الغربيين وهو لا يزال هنا على حال القصور
والانحطاط لم يذلت المصيريون الى إتقانه وحسن وضعه وجهل الناس أصل
الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو والمخلاعة على ما ترى . وعزروا
الذين يشتغلون بهذا الفن في تصديرهم أنه لا بد من مساعدة أهله بالمال ليتمكنوا
من السعى في ارتقائه وإتقانه وهم يلومون الحكومة المصرية في كل يوم حيث

تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغريبيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ثم إنها تحرم أهل بلاده كل مساعدة من هذا القبيل .

(الصادق) - قد سمعتُ مقالكَ وعندي أنه يجب على الباحث في الأمور المعلقة بتربية الاخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً الى تأثير العربة والاقليم والى تركيب الفرائض والفطائر والى العادة والعرف . ولا يتعجب أن ما يكون ذا فم عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوته بينهم . والشواهد كثيرة جمة على أن ما يكون في باريس حسناً يكون في برلين قبيحاً وأن ما يكون في لوندرة جيداً يكون في الخرطوم ذمياً وما يكون في رومية حقاً يكون في مكة باطلاً وما يكون عند الغربيين جيداً يكون عند الشرقيين هزلاً . ولست أرى أن هذا الفن لو تم لاصحابه ما يفيقونه من وفرة المال ومعاونة الحكومة أن يصلوا به الى حد الاتقان المطلوب ولأن يكون له النفع المقصود في تربية الاخلاق وحسن الآداب لما فيه من المنفعة البينة لطبائع أهل المشرق وأخص بالذكر منهم أهل الاسلام لا بل ربما كان منه الضرر البحت . ولا يقيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدواره وان تخلو قصة من قصصهم التي يمثلونها عن ذكر العشق والغرام وما من رواية لهم الا والعاشقان يكونان فيها كالفلانة والفاطمة لها . وهو وإن كان مقبولاً عند الغربيين مسموحاً به بما وافقة العادة عندهم ولكنه شيناً لا عيب فيه يجهز به فتيانهم وفتياتهم بل هو أصل من أصول التزواج بينهم قضت به رطوبة الاقليم وضرورة الحال الي ما يهيج الشهور ويشير ثائرة الخيال لكنه غير مقبول عند الشرقيين ولا مسموح به في عاداتهم ولا يدخلونهم في



أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب ولذلك كان شأن الكتمان والتستر لا التجاهر به والتظاهر . ولقد جرى العشق في بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والمار الفاضح وكان عند بعض قبائل العرب إذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فحاة منهم منعه عن الزواج بها لهذا السبب وربما رفعوا أمره إلى السلطان إن اشتهر بها في شعره فيهددونه . فهذا العشق الذي هو الركن الأكبر والسبب الأعظم في حصول الزواج عند الغربيين هو من أكبر الموانع في الزواج لدى الشرقيين والتجاهر به من الأمور المكروهة عندهم لطبيعة الأقاليم في حدة المازاج وتولد الشعور وتلهب الأحاساس . ثم إن تهذيب الأخلاق بهذا الفن لا يأتي إلا من الطريق المألوف والمسلك المعروف عند أهل كل بلد فتشخيص هذه الأقاليم والروايات الغربية الموضوعة على أخلاق أمة بذاتها لا يؤثر في أمة أخرى ولا بد أن يكون التشخيص والتبثيل بين الشرقيين مطابقة لأحوالهم وظروفهم جارية على مقتضى عرفهم وتاريخهم وليس من المقبول عندهم تعديل هذا التشهير والتبثيل في معيشة الأهل والولد وما تسدل عليه الحجب وألست في البيوت والدور . وليس في الدين الإسلامي ما يسهل بالفتراء الفساد مع الرجال في تأدية هذا الفن لأنه ينهى النساء عن التبرج بالزينة فضلاً عن الاختلاط بالرجال ويأمرهن بـ"بغض البصر فضلاً عن طرده" . ولا حينئذ المسلمون أن يبتل بينهم تاريخ الإسلام وتاريخ خلفائه وصاحبه على أسلوب يبتدىء بالعشق والفناء . وماذا ترى في أبي جعفر عاشقاً وأبي مغنياً وأبي الفوارس راقصاً كما يجترئ عليه الآن أهل هذا الفن وذلك أكبر إهانة للإسلام وأعظم خرف في التاريخ . وإن أردت أن

أَكْثَرُكَ بِكُلِّ مَا يَجُولُ فِي خَاطِرِي قُلْتُ لَكَ أَنَّ هَذَا الْفَنَ الَّذِي تَعَالَى
الزُّبُرُونَ فِي اتِّقَانِهِ وَارْتِفَاعِهِ لَمْ يَنْدِهِمْ أَدْنَى فَائِدَةٍ فِي بَابِ الْأَكْثَابِ وَضُرُّهُ
بَيْنَهُمُ الْيَوْمَ ظَاهِرٌ وَنَفْعُهُ غَيْرُ بَادٍ لِأَنَّ الْمَعُولَ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ فِي هَذَا الْفَنِ أَنْ يَظْهَرُوا
الْمُغْضِلَةَ مِنْ خِلَالِ تَمَثُّلِ الرَّذِيلَةِ وَيُبَيِّنُوا عَنِ الْعَنَافِ بِتَصَوُّيرِ الشَّهَوَاتِ إِلَى حُدِّ
الْمُبَالِغَةِ الَّتِي يَذْهَبُ إِلَيْهَا خَيَالُ الشَّاعِرِ . فَنَوْضِيحُ الرَّذَائِلِ وَتَبْيِينُ الشَّهَوَاتِ
وَعَرْضُهَا عَلَى أَصْحَابِ الرَّذَائِلِ فِي الْقَوَالِبِ الْمُخْتَلِفَةِ بِمَا تَتَغَاوَى عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ
الْجَلِيلِ وَالْمُسْكِرِ وَالْمُخْلِلِ . بِدَرَجَةٍ إِلَى تَعَقُّقِ صَاحِبِ الرَّذِيلَةِ فِي رَذِيلَتِهِ
وَاتِّقَانِهِ فِيهَا بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْمُتَوَعِّدِ فَلَا يَسْبِقُهُ إِلَيْهَا سَابِقٌ . وَكَمْ تَدْرُبُ الْعُصُوفُ
وَهَرُ الْأَشْقِيَاءِ وَبَرَزَ أَهْلُ الْفُسْقِ وَالْفُجُورِ بِمَحْضُورِهِمْ تَمَثُّلِ الرُّوَايَاتِ لَا كَتَسْبُوحِ
مِنْهَا مَا كَانَ يَنْتَهَصِمُ وَأَخَذُوا عَنْهَا مَا كَانَ يَعْجِزُ وَمِنْ تَأَمُّلٍ قَلِيلاً وَجَدْنَا أَنَّ
الشرحَ وَالْإِسْهَابَ فِي خَفَايَا الرَّذَائِلِ الَّتِي يَنْدِرُ حَدُوثُهَا وَيَقِلُّ وَقُوعُهَا كَانَ مِنْ
الْإِسْبَابِ فِي انْتِشَارِهَا وَلِلَّذَلِكَ قَالُوا أَنَّ تَوْضِيحَ الْجَرَائِمِ الَّتِي مِنْ هَذَا التَّمَثُّلِ فِي
الْقَوَانِينِ بِمَا لَا يَأْمَنُ مَعَهُ تَقَبُّظُ الْمُجْرِمِ إِلَيْهَا . وَقَدْ سَبَّلَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ الْيُونَانِيُّ
عَنْ سَبَبِ إِغْثَالِهِ عَقُوبَةُ الْقَاتِلِ لِأَنَّهُ فِي شَرِيعَتِهِ فَقَالَ : « مَا كُنْتُ لِأَتَصَوَّرَ
أَنَّ يُونَانِيَا فِي الْوُجُودِ يَتَقَدَّمُ عَلَى قَتْلِ أَبِيهِ » فَكَانَ قَوْلُهُ هَذَا أَنَّنِي لَوْ قَوَّعَ هَذِهِ
الْجَرِيمَةُ مِنْ تَدْوِينِهِ شِدَّةَ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا . وَكَتَسَابِ صَاحِبِ الْمُغْضِلَةِ مِنْ كَشْفِ
الرَّذِيلَةِ لَا يَقُومُ بِمَقْدَارِ الضَّرَرِ الَّذِي يَأْخُذُ بِأَهْلِ الشَّرْمَنِهَا

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ - وَدَقَّ الْجُرْسُ وَعَادَ النَّاسُ إِلَى مَقَاعِدِهِمْ وَاشْتَدَّتْ بَيْنَهُمُ
الْجَلْبَتَةُ وَهَلَا الصَّبَاحُ وَزَيْنُ السَّكْرِ لَا حُدْمَ أَنْ يَقُومَ فِيهِمْ وَاعْظَا خَطِيئاً فَازَالَ
يَهْدِي فِي الْقَوْلِ حَتَّى سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ يَتَخَبَّطُ فِي قَيْثِهِ وَرَجِيئِهِ . لَا فِي دِمِهِ

ونجمه ، ثم ارتفع الستار عن منظر غابة يدور فيها ذلك الفتي ويتغنى بغناء يشبه
أذان المؤذن ومن ورائه عشيقته تلتفت وتغتر . ثم رأينا قد ترك الغناء مرة
واحدة وتقدم نحو الحاضرين بخاطبهم بالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم
ويشكو من الشكوى من هو يشرم عليه في غنائه ثم إنه يعود الى ما كان فيه من
الغناء ويأخذ بيد خليلته للهروب فيدخل والدها عليها في تلك الحال فيحول
بينها وبين عاشقتها فينبهى له الفتي بضربة حسام تلقىه على الارض صريحا
ويدركه قومه فيصوب الفتي عليهم أسهمه ونصاله فيلجأون الى الفرار وتقع
المرأة ، غشيا عليها ويقع العاشق با كيا تحت أقدامها وعلى هذا يسدل الستار
ويتهى الفصل ويعود الناس الى مكان الشرب والذخين فتتبع أثرهم ونجلس
فاحية في بعض زوايا الحان . واذا بالعمدة ومصاحبيه وعاهرته جالسين جانبا
أمام إحدى المنافذ وأمامهم الراح والكؤوس مترعة واذا برجل عابس الوجه
بين الفاظ قد وقف أمامهم يقول للمرأة في كلامه : « أنظنين أن الهرب وخلف
المجاد بمنحك منى ويؤجل وفاء القسط المطلوب لى منك وأنا لا ازال أفتى
أثرك منذ الصباح الى الساعة ونعمات في البحث منك تعباً عظيماً والحرقلة اذ
هثرت عليك في هذا المكان وامت أبحر من هنا حتى تعطينى مبالغ القسط
أو نردى الى هذه الحلى التي يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلانك »
وبعد يده يتنزع الحلى من صدرها فيمنه الخليع متوسطا بينهما ويقول له ليس
هذا وقته وليس هنا محل المطالبة وأمامك الحاكم . فلا يرجع الرجل عن
حزمه بل يقول « انا لا أطالب بحق أمام الحاكم وأمامى مالى في صدرها »
ثم يده ثانية فتقبض الماهرة على حليها وتعمل على العمدة تستغيث به

ونستجير فأخذه الحبة والنخوة فيدفع عنها الصائغ بيده فيقول له : ان كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبتك فالشهادة تقضى عليك بأن تدفع لى المبالغ من جيبك لا أن تدفعنى عن حق يديك » فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له فتقول له المرأة إنه لا يزيد عن عشرين جنيناً فينفد الصائغ الدراهم فى الحال ويطلب منه ورقة الاستلام ثم يقدمها الى المرأة بيد الكاهن بيد أخرى فتقبل حانة الكاس شكرآ له وحسداً وينصرف الصائغ ضاحك السن قویر المين . ويعودون الى ثمرهم وحديثهم فيقترح العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكان الى سواء وأنه يفضل الذهاب الى منزل صاحبتة ويطلب من الخليلج ان ينظم لهم مجلساً هناك فوق سطح المنزل فى ضوء القمر وبينما هم فى آخر ورد اذا بصاحب الخان الذى تشغل فيه المرأة واقفاً على رأسها وضماً يديه فى خاصرتيه يبكيها بقوله : أهذا هو المرض الذى تعذبين به من تأخيرك فى هذه الليلة عن الشغل وهذا هو المستشفى الذى تعالجين فيه وأظن ان حضرة العمدة هو الطبيب الماهر فى هذا العصر الجاضر » ثم يجرها بيده لتذهب معه الى مباشرة الشغل فى الخان فيمسكها العمدة من اذبالها ويقول له : ما هذه الوقاحة وما هذا التهميم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات فى نظير تأخيرها عن الشغل فى الخان ورضيت به هذا الاوض لتكون على حريتها فى هذه الليلة » فيقول له : إن كانت أخذت منك هذا المبالغ لدفعه الى فقد كذبت فى دعواها وادخرت الدراهم لنفسها فاما أن ترد الى المبالغ وتبهر لى بأنك لا تجتمع بهذه المرأة فى غير محلى وإما أن تستعد للقضية التى أقامها عليك بطلب الترميض الذى لا يكفى

فيه دخل أطيانك « ويشد بينهم الحجاج وانضمام فتبهرى إحدى المثلثات الجاسات في الحان من انتهى دورهن قد تنصرخ البوايس لآخر اجهم فيأتي البوايس ويصمم أن يسوقهم الى القسم جميعاً . ونخرج وراهم لاتباعهم فيأتي الباشا ذلك كل الابد وينفر عنه كل النفور ويقول أنا لا أتوجه الى القسم لاشا كيا ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً فقد جرّبت مايقع فيه . وكفاني ما علمته من ظواهره وخوافيه . وقد شعرت بسأم في النفس : وصداق في الرأس . فلنذهب الى البيت لنتمتع بشيء من الراحة . ونخلص من رؤية هذه الحرمات المباحة . فأجيبه بالطاعة والالتقياد . وترك الصديق على ميماد

﴿ المدنية الغربية ﴾

قال عيسى بن هشام - وما وصانا البيت حتى عمد الباشا الى غرفة نومه . يحاول أن يشغلي بالرقاد من غمه وهمه . فتركته في غرفته . ورغبت في النوم كرهيته . وبينما انا غريق في المنام . أصبح في بحر الاحلام . اذ سمعت الباشا يناديني نداء متتالياً . فقممت اليه مسرعا وملتبساً . فأخبرني أن طول التفكير نفي عنه الرقاد . وأورثه الأرق والشهاد . وطلب مني ان نجبي الايلة بالسمر . وأن أقتلها معه بالسمر . فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث . من قديم في الزمن وحديث . الى أن حارت الايلة في أخريات الشباب . فاستهانت بالإزار والنقاب . ثم دب المشيب في فودها (١) . وبان أثر الموضح (٢) في جلدتها . فعبثت بالعقود والقلائد . من الجواهر والفرائد . ونزعت من صدرها كل متور ومتظوم . من درر الكواكب ولاكنى النجوم . وألقت بالفرقدين

(١) الفود معظم شعر الرأس ما يلي الاذن (٢) الموضح يابس الصبح

من أذنيها . وخلصت خواتيم الثريا من يديها . ثم إنها مزقت جلابيها . وهكت
حجابها . وبرزت للناظرين عجوزاً شمطاء . ترتعد متوكئة على عصا الخروء .
وتردد آخر أنفاس البقاء . فسترها الفجر بملأته الزرقاء . ودرجها الصبح
في أرديته البيضاء . ثم قبرها في جوف الفضاء . وقامت عليها بنات هديل ^(١) .
فأثمة بالتسجيع والترثيل . ثم انقلب المأتم في الحال عرس اجنلاء . وتبدل
النحيب بالغناء . لاشراف عروس النهار . وإسفار مليكة البدور والافاق . وما
نشمر الا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس . لأم وعد القى كان يبتنا من أمس .
فسألنا كيف أصبحنا . وهل نعمنا واسترحنا . فأخبرته بما كان . من اتصال
السهر الى الآن . وما كانت تجري عليه المسامرة . وتدور به المذاكرة . وجلتها
ان الباشا لا يزال يدهش مما يراه في رحلته . ولم يكن له أثر في أيام دولته .
ويستخبرني عن سرعة هذا الانتقال . من حال الى حال . وما الاعياب
والعلل في انتشار هذا الفساد والخلل . فذكرت له بعض ما حضرني منها . وما
علمته عنها . وانك خلّيق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح .
يتخبرنا بما عندك . من السبب الصحيح

(الصديق) السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدنية الغربية بينة
في البلاد الشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال معاشهم
كالعميان لا يستنبرون ببحث ولا يأخذون بقياس ولا يتبصرون
بحسن نظر ولا ياتفتنون الى ما هنالك من تنافر الطابع وتباين الاذواق

واختلاف الاقاليم والعادات ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف
والحسن من القبيح بل أخذوها قضية مسلمة رطنوا أن فيها السعادة
والجلاء وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة وتركوا لذلك جميع ما
كان لديهم من الاصول القويمة والعادات اللميمة والآداب الطاهرة
ونبدوا ما كان عايمه أسلافهم من الحق ظهرياً فانهدم الاساس ووهت
الاركان وانقض البنيان واقطعت بهم الاسباب فأصبحوا في الضلال
يعمهم وفي البهتان يتسكمون^(١) واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من
المدينة الفريرية واعتسما الحليم الاجانب يرونه أمراً مقضياً وقضاء
مرصياً وخرت بنا بيوتنا بأيدينا وصرنا في الشرق كأننا من أهل الغرب
ولأن بيننا وبينهم في المعاش أبعد المشرق من الغرب

(الاشاء) - تدىكون ذلك ولكن استأدرى لاية علة اخذ الشرقيون
مياطل المدينة الفريرية وارتدوا بلباسها ولم يلتفتوا برهة للرجوع الى
سابق مدنيتههم المحيحة وعمرانهم القويم فهم أهل السبق في ذلك
كله وعنهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون في كل زمان ومكان

(الصدىق) - لا أعلم لذلك من علة الا ما أعقب العزة السابقة من
الظطر والأشر وما يتولد عنهما من طول التواني والتواكل وسوء
التراخي والتخاذل ففعلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم ولم يكثرثوا

بمستقبلهم وقعدت بهم هماتهم عن مشقة التكليف التي كان ينبغي
أسلافهم باحتمالها ويتفخرون بممارستها . وراق لهم أن يأخذوا بهذا
الطلاء الحاضر من مدينة الفريين بلا مشقة ولا تعب ولا جد ولا
كد فمظم مقدار اهل الغرب في أنظارهم وتوهموا أنهم من طبقة
حالية فوقهم فغضعوا وذلوا وقهر الفريون وغلبوا

(الباشا) - ألا ليت شمرى كيف يمكننى الوصول الى البحث
والنظر فى أصول المدينة الفريية ظاهرها وباطنها وأن أقف على
خافيا وباديا فى أرضها وديارها . ولكن بعدت الشقة وعزّ المطلب
(عيسى بن هشام) - لا تستبعد أيها الامير حصول الغرض
ونيل المطلب فى يوم من الايام فانه لا يزال يدور فى خاطرى أن
أرحل معك رحلة الى البلاد الفريية نجتى منها ثمرات العلم والبحث
فان كان هذا العزم من غرضك أيضا فأنا أجهز له أمرا
(الصديق) - وأنا ان شاء الله ممكنا

قال عيسى بن هشام - ثم قنا وقد عقدنا النية على تحقيق هذه
الامنية . ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية . فى المبدأ والنهاية

والى هنا انتهى الحديث وتم الكلام . فان كان فى الاجل
مدة باقية . وصلنا هذه الرحلة الاولى برحلة ثانية
والحمد لله أولا وآخرا ومنه المعونة والتوفيق

بدأتُ هذا الكتاب عند طبعته الاولى بخير ما يُبدأ به كتابٌ
 بعد اسم الله وذكر رسوله : رسالة الحكيم جمال الدين
 لم أرم في ذلك - علم الله - الى التنبيه على ذكرى والتقوية بقدرى
 وأستغفره ثم أتوب اليه أن يكون الدافع الى نشرها هذا الغرض دون
 سواء وأنا أعلم أن مثل هذه الرسائل من كبار العلماء الى تلاميذهم
 إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم والافراء بالتعمق فيه كالطفل
 توضع في يده قطعة العاج المنقشة علالةً يعمل بها لتثبت أسنانه بل
 كان نشرها لانها أثر من الآثار يجب عرضه على للنظار ونفاضة بما
 يخطه ذلك العلم الجليل في أى قصد من المقاصد ومطلب من المطالب
 أن يبقى مطويًا في أدراج الاوراق وحقه أن ينشر على سائر الآفاق
 وأختم اليوم هذه الطبعة على مثل هذه النية بخير ما يختتم به
 القول بعد حمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين :
 هذه الرسالة التي شرفني بها مولانا الاستاذ الشيخ سالم بوحاجب
 شيخ العلماء وصاحب الإفتاء بالمسكة التونسية بعد أن قرأ هذا
 الكتاب في طبعته الاولى . وناهيك بقدر هذه الرسالة بركة
 وعنا وشرفاً وجلالاً بمن يمثل لك بالفضل . ما يروى عن السلف
 الصالح بالقول . ويشهد لك بسيرته في هذه الايام . كيف كان العالم

عامل في صدور الاسلام . ويعينه انا ذكري البعري في الزهد والتقى . والكوفي في الرأي والحجبي . والمكي في الفقه والدين . والمدني في العلم علم اليقين . هذا الى سعة في الاطلاع وتصرف في الافكار ودقة في البحث واستنباط للامور يؤلف للناظر بالحاضر ويطابق بين احكام ما قضت به الحكمة في سالف الأوان وما تقضى به قواعد هذا الزمان :

اتفق العُمر ناسكاً يطلبُ العلمَ ثم بكشفٍ عن أصلهِ وانتقادٍ فهو المثال التام الذي يُبشِّره الإسلام منذ السنين والاعوام من بين العلماء الاعلام ليعود اليه مجده ويرتد اليه حقه ويُعرف بهم قدره . ولو من الله بمن يأخذ بقدوته في سائر الاقطار . ولو جرى العلماء على مثاله في كل مصر من الامصار . لاستوى الأواخر بالأوائل في العلم والدين . ولعاد الاسلام الى ذلك العز القديم والنصر المبين .
محمد المويلحي

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله
أيها الجليل المنحير . المتصرف في أحرار الالباب . ورقيق الآداب .
بالاسترقاق والتحرير . البائع من رتب التهذيب أقاصيها . المالك من

بدائم التربية نواصيها . أما بعد تقديم التحية . اللاتفة بعزة تلك
الحضرة المحمدية المولى عليه . فقد وصل الى . . . واصل الله في مدارج
الاجادة ارتقاءكم وأدام لحسن الافادة إتقانكم وانتقاءكم كتابكم
الجليل . الذي يقوم به على تقدمكم في حلبة العرفان . وبراعة
البيان . وكمال تربية الانسان . أوضح دليل . فالذي علم بالقلم .
ومنح خير خلقه جوامع الكلام . إن قلمكم من السحر المبين ما تحر
له سحره البيان ساجدين . وإنه ليحقق اللطيفة الموسوية التي لمح
لنا هلكم لها كتاب الاستاذ جمال الدين . كما يحقق ما يتفأل به
من اسناد مروياتكم لاسم عيسى . ولاحياء موتى الافكار المؤسسة
على حياة من كان في التخرميسا . فيا له من معلم قد علم منه كل
أناس مشربهم . ووجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامة مأربهم .
فرجال الحكم مثلاً سواء كانوا من الامة الاسلامية أو غيرها
يتعرفون منه ملاك الامة ونواصيها ، بالاسناد الوظائف الى أهل
المعرفة والفضل . والذين بها عن غير الاهل وإقامة منار العلم والعدل .
لتدارك ما تحرب بيد الجور والجهل . . . والعلماء يدركون به طرق
النصح في التعليم . وعدم النفرة من الحديث لجر دكونه لم يهد في
التقديم . مع ما يلزم لهم في اقتياد ذوى الجهالة والعناد من الملاحظات .

فهرس

سجفة	سجفة
١٩٧ المزة فى العلم والادب	٧ المبرة وللاوعة
٢١١ علماء الدين	١٥ الشرطة أو البوليس
٢٢٧ الاعيان والتجار	٢٥ النيابة
٢٤٢ الحكام والرؤساء	٣٧ الحامى الاهلى
٢٥٩ الامراء وأبناء الامراء	٤٥ المحكمة الاهلية
٢٧١ العرس	٦٥ لجنة المراقبة
٣٠٧ العمدة فى الحديثة	٧٥ محكمة الاستئناف
٣٢١ العمدة فى المجمع	٨٥ الوقت
٣٣٥ العمدة فى المظالم	٩٤ أبناء الكبراء
٣٤٨ العمدة فى الحازن	١٠٠ كبراء العصر الماضى
٣٦٤ العمدة فى المراتص	١١٨ الحامى الشرعى
٤٠٣ العمدة فى الرسن	١٢٨ المدقرخانة الشرعية
٤١٩ العمدة فى الاهرام	١٣٩ المحكمة الشرعية
٤٣٧ قصر الجيزة والتممش	١٥٠ قصر حفيد الباشا
٤٤٣ العمدة فى المامى	١٦٣ الطب والاطباء
٤٥٦ الدنية الغربية	١٧٧ المكروب والطاعون
	١٨٧ الوباء

